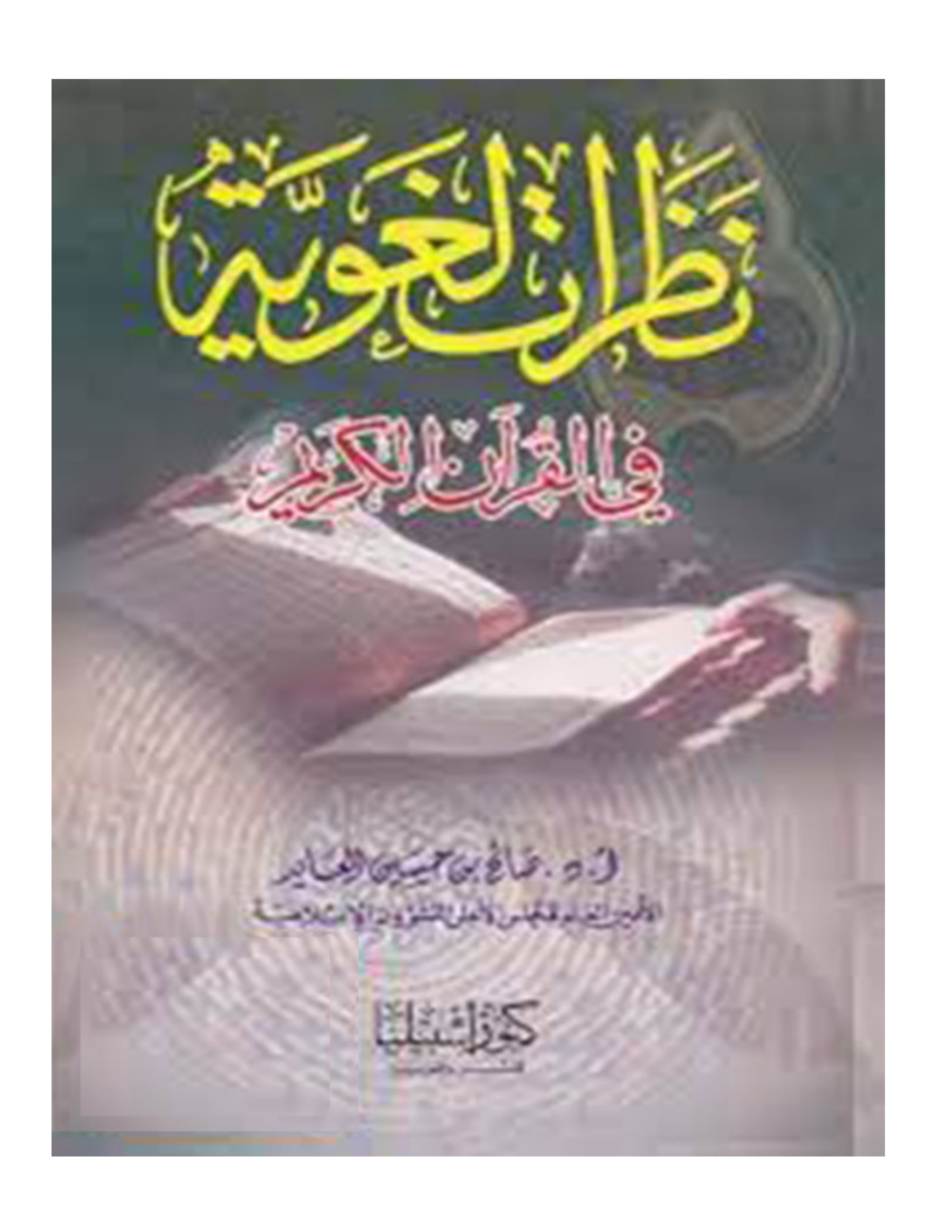


نظرات لغوية
في القرآن الكريم
أ.د. صالح بن حسين العايد
كنوز إشبيليا

نظرات لغوية في القرآن الكريم

أ.د. صالح بن حسين العايد
الأمين العام للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

هذا عرض لكتاب قرآني لغوي قال فيه مؤلفه : لقد رغبت في أن أقود طلاب العلم، ولو بالسلاسل، إلى ولوج الروضات الخلابة التي يزخر بها كتاب الله؛ كي يتفيؤوا ظلها الوارف، ويشموا عبيرها الفوَاح، وكنت أدرك أن من حرمها قد حُرِم خيراً كثيراً، وأنه لا سبيل إلى دلفان أبوابها، والتمتع بنعيمها، إلا بإعداد العدة اللازمة لبلوغ مراميها . ويقول: فإني أحمد الله جل جلاله على ما رأيته من قبولٍ لكتابي ... فإخاله لم يضع كما تضيع أكثر الأشياء الثمينة؛ فلا هو: مطر جَودٌ في أرض مُسبِخة، لا يجف ثراها، ولا ينبت

مرعاها، ولا هو سراجٌ يوقد في الشمس، ولا هو جارية حسناء تُزَف إلى عنّين أعمى، أو خَوْدٌ تزف إلى ضرير مقعد، ولا هو صنيعة تُهدى إلى من لا يشكرها، بل رأيته وسمياً باكر جنة بربوة، ثم خَلَفه وليٌّ فغدت الأرض بعده كأنها وشيٌ منشور، عليه لؤلؤ منثور

مقدمة

الطبعة الجديدة

الحمدلله الذي كثرت آلاؤه عن الإحصاء ، وجلت نعمه عن الجزاء ، تفضل على عباده بالنعم ، لا يريد منهم سوى شكرها ؛ ليتفضل عليهم بالمزيد منها : " وإذ تأذن ربكم لن شكرتم لأزيدنكم " (إبراهيم): ٧).

نحمده حمداً يليق بجلاله وعظمته ؛ أنزل علينا خير كتبه ، وأرسل إلينا أفضل رسله ، وجعلنا من خير أمة أخرجت للناس، من غير حول لنا ولا قوة ، فله الحمد حتى يرضى، وله الحمد بعد الرضا.

إلهي لك الحمد الذي أنت اهله على نعم ما كنت قط لها أهلا

متى ازددت تقصيراً تزدني تفضلاً كأئ بالتقصير أستوجب الفضلا(١)

والصلاة والسلام على عبدالله ورسوله وصفيه، خير الأولين والآخرين ، سيدنا وحبيبنا أبي القاسم محمد بن عبدالله ، عليه من ربنا أفضل الصلاة والتسليم ؛ فلقد أدى الأمانة ، وبالغ الرسالة، ونصح للأمة ، وجاهد في الله حق جهاده، حتى أتاه اليقين، وتركنا على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها ألا هالك، فصلاة ربي وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

______

(١) ديوان محمود الوراق : ١٠٨ - ١٠٩ .

فحين شرت قبل سنيات كتابي الموسوم ب(نظرات لغوية في القرآن الكرم) كنت أرمي إلى ان أشحذ يها همماً، وأرسم يم منهاجاً ؛ فلقد رغبت في أن أقود طلاب العلم ، ولو بالسلاسل ، إلى ولوج الروضات الخلابة التي يزخر بها كتاب الله؛ كي يتفيؤوا ظلها الوارف، ويشموا عبيرها الفواح، وكنت أدرك أن من حرمها قد حرم خيراً كثيراً ، وأنه لا سبيل إلى دلفان أبوابها، والتمتع بنعيمها، ألا بإعداد العدة اللازمة لبلوغ مراميها ، ولأن الوصول إلى مواطن الجمال اللغوي ظاهره وباطنه متعذر ألا على من اكتسب من علوم اللغة العربية نصيباً، كان لزاماً على من رغب في إدراك أسرار الإعجاز اللغوي الذي تفرد به القرآن الكريم ان يحيط بقدرغير قليل من علومها التي هي وعاؤه الحاوي، وحين حفزت همم طلاب العلم إلى ركوب هذا المركب البديع ، بأن يسرت النظرات أسلوباً وشرحا، وبعدت عن المصطلحات التي لا يفهمها ألا الخاصة ، وعمدت إلى تيسير العبارات ، والتجافي عن الإشارات ، حينذاك حسبتنى قد حققت مرادي بأن يعترف القراء بأنهم إلى معرفة علوم العربية محتاجون ، وأنهم عن تدبر كلام ربهم دون تحصيلها عاجزون، فرسمت لهم منهاجاً أحسب أنه يوصل إلى المراد، متبعه حري- بتوفيق الله - أن يكون من أولي الألباب الذين قال الله فيهم : " كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آَيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ **(29)** " ص

وإذا كان من نعم الله على المرء أن يرى شيئاً من ثمرة عمله في دنياه، وأن عسى أن يكون ذلك من عاجل بشراه ، فإني أحمد الله جل جلاله على ما رأيته من قبول لكتابي : (نظرات لغوية في القرآن الكرم) ، فإخاله لم يضع كما تضيع أكثرالأشياء الثمينة؛ فلا هو : (مطرجود في أرض مسبخة، لا يجف ثراها، ولا ينبت مرعاها، ولاهو سراج يوقد في الشمس، ولا هو جارية حسناء ترف إلى عنين أعمى، أو خود تزف إلى ضرير مقعد(١)، ولا هو صنيعة تهدى إلى من لا يشكرها)(٢) ، بل رأيته وسمياً باكر جنة بربوة، ثم خلفه ولي، فغدت الأرض بعده كأنها وشي منشور، عليه لؤلو منثور(٣) :

ميثاء جاد عليها مسبل هطل فامرعت لاحتيال فرط أعوام

إذا يجف ثراها بلها ديم   من كوكب نزل بالماء سجام

لم يرعها أحد وارتبها زمناً تسمع للطير في حافاتها زجلاً

كأن ريح خزاماها وحئوتها بالليل ريح يلنجوج واهضام (4)

أجل، لقد اطلع على الكتاب من الخاصة والعامة من لم يبخلوا على صاحبه بدعوة صاددقة إذا ما استجيب لها كانت له خيرا من إشادة قيلت على رؤوس الأشهاد بل كان منهم من أكرني بعد قراءة فاحصة بملحوظات لا يدركها ألا من رزقه الله بصيرة نافذة وعلما جما ولا

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(1) لأبي علد الله الحسن بن أ؛مد بن الحجاج .
انظر يتيمة الدهر **3/60**
(2) كلام لابن القرية حين سئل **:** ما أضيع الأشياء؟
(3) ديوان المعاني**: 2/18**
(4) ديوان النمر بن تولب المكلي رضي الله عنه **:** **127 -128.**

يعرف قدرها ألا من أكرمه الله بسجية العرفان لأهل الفضل بفضلهم، ومن هؤلاء الذين شرف الكتاب بتمحيصهم وتدقيقهم الشيخ العلامة إبراهيم بن يوسف بن الشيخ سيدي الشنقيطي، أحد علماء موريتانيا المشهود لهم بالفضل الوفير، والعلم الغزير، حيث قرأ الكتاب قراءة فاحص مقوم بنظرة ثاقبة، خرج منها باستدراكات سطرتها براعته، فأفدت منها كثيراً، وحليت بها هذه الطبعة الجديدة، واعترافاً مني للعلامة الشنقيطي بفضله العميم، وجهده الهميم، بادرت إلى تصويباته فأصلحتها، وإلى استدراكاته وملحوظاته فزينت بها الكتاب وحواشيه، وهو ما أعده زينة زادت كتابي رونقاً وجمالاً، وإني لأعترف بأن تقويمه للكتاب لا يقل شأناً عندي من تقريظه له، إن لم يفقه، حين كتب بخطه المغربي الخلابكلاماً مثل للؤلؤا لأزهر، والزبرجد الأخضر، والياقوت الأحمر، فقال **:** (هذا وكتاب (النظرات)**...** من الكتب الجامعة بين الإفادة والإمتاع، وحسن العرض، وسلاسة

الأسلوب، ودقة النظر. وقد غاص مؤلفه في أعماق التراث ، فأخرج درراً نفائس، أحسن اختيارها ، وأجاد في رصفها وتنضيدها ، وقد أعانه على ذلك تمكنه من علوم اللسان، وسلامة ذوقه الأدبي، ورهافة حسه الفني.
أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجزيه عن القرآن خير الجزاء ، ونطلب منه المواصلة في هذا الميدان الفسيح؛ فإن القرآن لا يخلق، ولا يتفه، ولا يتشان، ولاتفنى كنوزه، ولا يوئف منه على غور . والحمد لله رب العالمين) . انتهى كلامه، حفظه الله .
وربما أن قارئاً من القراء سيقول : ما الذي أضافته هذه الطبعة الجديدة ؟
فأقول : مع ما أثبته في الحواشي من تعليقات الشيخ إبراهيم بن يوسف الشنقيطي، زدت في الكتاب نظرات جديدة، وأضفت على بعض النظرات معلومات مفيدة ، وصوبت ما سها عنه النظر وغفل، وقومت ما حاد القلم فيه عن الصواب إلى الزلل، كما رأيت أن أضم إلى هذه الطبعة رسالة صغيرة في (أهمية اللغة العربية في الدعوة إلى الله) ، كنت أعددتها بالتعاون مع أخي وصديقي وزميلي الأستاذ الدكتور تركي بن سهو بن نزال العتيبي، وهو بحث ألقيته في مؤتمر كان عنوانه: (الدعوة الإسلامية في دول شرق آسيا والباسفيك : الواقع والمستقبل) ، عقد في جاكرتا عاصمة إندونيسيا، خلال المدة من **27/4/1416**هـ إلى **29/4/1416**هـ .

وأخيراً لا يفوتني أن أقصد الذي هو خير، فارفع اكف الضراعة إلى الله رب الأرباب، ومجري السحاب،وهازم الأحزاب، أن يتقبل هذا العمل ، وأن يبارك فيه، وأن ينفع به، ويرزقه مزيداً من القبول، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يعظم المثوبة والأجر لي، ولوالدي ووالديهم، ولذريتي وذوي رحمي، ولمن دعا لي ولهم بمثله؛ فهونعم المدخرحينما تنقشع الدنيا كحلم نائم انقضى، أو ظل غمام انجلى، حين يتلحف العبد التراب، ويتودد الثرى، حينذاك يبحث الفقير إلى عفو ربه في ظلمة القبر عن الأنيس، ولا مؤنس حينذاك ألا العمل الصالح.

اللهم بارك لنا في أعمالنا وأعمارنا، وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا أقل من ذلك، ولا أكثر، يا رب العالمين، لارب لنا سواك، فندعوه، ولاملجأ لنا ألا إليك، أنت ولينا ومولانا، يا نعم المولى، ويا نعم النصير :

لبست ثوب الدجى والناس قد رقدوا وقمت أشكوإلى مولاي ماأجد

وقلت يا أملي في كل نائبـــة ومن عليهـــا لكشف الضرأعتمد

اشكو إليك أمور انت تعلمها مالي على حملها صبرولاجلـــد

وقد مددت يدي بالذل مبتهلاً إليك يا خير من مدت إليه يد

فلاتردئها يارب خائبـــــة وبحر جودك

يروي كل من يرد**(١)**

والحمدلله أولا وآخراً . انتهت .

وكتبها

يوم الخميس**18/3/1423** هـ

الفقير إلى عفو ربه الكريم

د.صالح بن حسين بن عبد الله العايد

ص ب٩٣٦٣٣ الرياض ١١٦٨٣

(١).أبيات لأبي إسحاق الشيرازي في**:** طبقات الشافعية الكبرى للسبكي**:** ٤/٢٢٥.

أهمية اللغة العربية في الدعوة

(١)

الحمد لله الذي أنزل القرآن بلسان عربي مبين ، والصلاة والسلام على من بعثه الله بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيراً .

أماً بعد :

فلست أدري : أمن حسن حظ هذا البحث أن يلقى في هذا المكان أم لا؟.

لماذا أقول هذا القول؟

أقوله لأن هنا من سيقول : هذا عربي يتعصب للغته !

وآخر سيقول : الإسلام إذن للعرب فقط !

لكني أبادر هذا الجمع المبارك ، فأقول : لن أخشى لوماً ولا عتباً ؛ لأسباب ثلاثة :

أولها : أني قد أقمت سنين في إندونيسيا ، وعرفت محبة المسلمين فيها للغة العربية .

ثانيها : أن إدارة المؤتمر هي التي اختارت لي هذا الموضوع ، ولا شك

---

(١) ساعدني في إعداد هذا الموضوع أخي وزميلي الأستاذ الدكتور/ تركي بن سهو العتيبي عميد البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وألقيته في مؤتمر (الدعوة الإسلامية في دول شرق آسيا والباسفيك : الواقع والمستقبل) الذي عقد في جاكرتا عاصمة

في أن سبب اختيارها هوإدراكها لأهميته .
ثالثها : أن البحث سيوجه إلى دعاة ، والداعية يدرك أنه لا بد من أن تتوافر فيه من الصفات ما ليس لدى العامة ، ومنها إجادة اللغة العربية.

تعريف العرب:

مر مصطلح (العربي) بمراحل من حيث المراد به ، فقد كان قبل الإسلام يطلق على من يسكن في شبه جزيرة العرب ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (اسم العرب في الأصل كان اسماً لقوم جمعوا ثلاثة أوصاف :
أحدها : أن لسانهم كان اللغة العربية.
الثاني: أنهم كانوا من أولاد العرب ٠
الثالث : أن مساكنهم كانت أرض العرب، وهي : جزيرة العرب)(١).
وبعد بزوغ فجر الإسلام وانتشاره، وفتح بلاد فارس والروم، أصبح العربي يراد به المسلم سواء بسواء ، قال أبو جعفر محمد بن علي ابن الحسين ين علي: (من ولد في الإسلام فهو عربي) (٢)ولذلك روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض

(١) اقتضاء الصراط لمستقيم : ٤٥٤/١ .
(٢)المصدرالسابق : ٤٥٧/١ .

العرب فببغضي أبغضهم)(١) .

ثم صار كل من يتكلم اللغة العربية عربياً ، فقد روي عن أبي هريرة - رضي الله عنه- يرفعه، قال : (من تكلم بالعربية فهو عربي، ومن أدرك له اثنان في الإسلام فهو عربي)(٢) . وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال : (أماً بعد أيها الناس، فإن الرب رب واحد، والأب أب واحد، والدين دين واحد، وإن العربية ليست لأحدكم أب ولا أم، إنما هي لسان، فمن تكلم يالعربية فهو عربي)(٣) . وهكذا أصبحت العربية لغة لا جنساً (٤)، فمن تكلمها في أي بقعة في الأرض، ومن أي جنس كان، فهوعربي.

العربية لغة الإسلام :

لقد اختار الله تعالى اللغة العربية لتكون وعاء لكلامه العظيم وكتابه الكريم، وللمعجزة الخالدة لنبيه الأمين صلى الله عليه وسلم، وأثنى الله تعالى عليها ، فقال: " وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195) " [الشعراء] ، وقال أيضاً: " وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (27) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (28) الزمر.

---

(١)المعجم الكبير :٣٤٨/١٢، ح:١٣٦٥٠،والمعجم الأوسط:**3/140**،ح:٢٥٥٨ ٦/٢،ح:**6182**.

(٢) اقتضاء الصراط لمستقيم: ٤٥٨/١.

(٣) المصدرالسابق: ٤٦٠/١
(٤)الإسلام والحضارة الغربية للدكتور/ محمد محمد حسين -رحمه الله- :١٩٧ -٢٠٠ .

وقال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - : (لتعلم إعراب القرآن احب إلي من تعلم حروفه)(١).
وقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : (تعلموا العربية ؛ فإنها من دينكم)(2).
وقال عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - : (كان كلام آدم - عليه السلام ٠ بالعربية ، فلما أكل الشجرة أنسي لعربية ، وتكلم بالسريانية ، فلما تاب الله عليه ردت عليه العربية) (٣) .
وقال أبي بن كعب -رضي الله عنه- : (تعلموا العربية كما تتعلمون حفظ آلقرآن)(٤).
وقال الحسين بن علي-رضي الله عنهما-: (تعلموا العربية ؛ فإنها لسان الله الذي يخاطب به الناس يوم القيامة)(٥).
و سئل الحسن البصري - رحمه الله-:(ما تقول في قوم يتعلمون العربية ؟ فقال : أحسنوا ؛ يتعلمون لغة نبيهم)(٦) .
وقال عمر بن هبيرة الفزاري : (ما على أحدكم أن يتعلم العربية؛ فيقيم بها أوده، ويحضربها سلطانه، ويزين بها مشهده، وينوء بها على

(١)تنبية الألباب على فضائل الإعراب لأبي بكر الشنتريني: ٧٥-٧٦.
(٢) اقتضاء الصراط لمستقيم :٤٧٠/١.

(٣) المزهرفي علوم اللغة وأنواعها للسيوطي : ٣٠/١.
(صناعة الكتاب: ٣٠، تفسيرالقرطبي : ٢٣/١
(٥) تنبيه الألباب على فضائل الإعراب : ٧٧ .
(٦) صناعة الكتاب: ٣٠ ، تفسيرالقرطبي: ٢٣/١.

خصمه , أو يرضى أحدكم أن يكون لسانه مثل لسان عبده أو أكاره؟)(١).
ولعله من حسن التأسي بالرسول صلى الله عليه وسلم - وقد أمر المسلمون بالاقتداء به والتأسي بشمائله - أن يتعلم المسلم لغة نبيه ٠ .
وقد كان علماء المسلمين يعدون التكلم باللغة العربية شعاراً للإسلام، قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله- : (إن اللسان العربي شعار الإسلام وأهله، واللغات من أعظم شعائر الأم التي بها يتميزون) (٢).
ولا يحتقر اللغة العربية، أو يعيبها، ويغض من شأنها، ألا جاهل أو حاقد يكره الإسلام وأهله، ولو تزيا دعواه بزي العلم، أو وشحها بوشاح الموضوعية، قال الزمخشري (٣) : (ولعل الذين يغضون من العربية ، ويضعون من مقدارها ، ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها .....، لا يبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الأبلج، وزيغاً عن سواء المنهج.
والذي يقضى منه العجب حال هؤلاء في قلة إنصافهم، وفرط جورهم واعتسافهم؛ وذلك أنهم لا يجدون علماً من العلوم الإسلامية فقهها وكلامها

وعلمي تفسيرها وأخبارها ألا وافتقاره إلى العربية بين لا

---

(١) الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي: ٤٩٩/١ديوان المعاني: ٦٧/١.
(٢)اقتضاء الصراط لمستقيم: ٥١٩/١.
(٣) المفصل في صنعة الإعراب :١٨ .

يدفع ومكشوف لا يتقنع .. ..
ثم إنهم يجحدون فضلها وتعليمها، ويدفعون خصلها، ويذهبون عن توقيرها وتعظيمها، وينهون عن تعلمها وتعليمها، ويمزقون أديمها، ويمضغون لحمها .
ولم يسلم من ازدراء هؤلاء الحاقدين أو الجاهلين متعلمو اللغة العربية قديماً ولا حديثاً، بل كانوا يحتجون لمنقصتهم إياهم بحجج واهية، قال أبو جعفر النحاس : (وقد صار أكثر من مضى يطعن على متعلمي العربية جهلا وتعدياً حتى إنهم يحتجون بما زعموا أن القاسم بن مخيمرة قال : (النحو أوله شغل، وآخره بغي) ... .)(١).
وأبو عروة القاسم بن مخيمرة الكوفي الهمداني المتوفى سنة ١٠٠هـ، وإن كان أحد الأئمة، ليس قوله حجة إن صح؛ (فإنه مخالف لقول النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتابعيه ، وما كان كذلك لم يجز لمسلم أن يحتج به، وأيضاً قوله : (أوله شغل، وآخره بغي) كلام لا معنى له ؛ لأن أول الفقه شغل، وأول الحساب شغل، وآخره بغي ،

وكذا أوائل العلوم، أفترى الناس تاركين العلوم من أجل أن أولها شغل؟
وقوله : (وآخره بغي) إن كان يريد به أن صاحب النحو إذا حذقه صار فيه زهو، واستحقر من يلحن، فهذا موجود في غيره من العلوم)(٢).
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) صناعة الكتاب :٢٩.
(٢) المصدر السابق.

حكي عن يحيى بن أكثم أنه قال : (بينما أنا يوماً جالس مع المأمون إذ دخل الدار فتى أبرع الناس زياً وهيبة ووقاراً ، وهو لا يلتفت إعجاباً بنفسه، فنظر إليه المأمون، فقال : يا يحيى، هذا لا يخلو أن يكون هاشمياً أو نحوياً، ثم بعث من يتعرف ذلك منه، فإذا هو نحوي ، فقال المأمون : يا يحيى، أعلمت أن علم النحو قد بلغ بأهله من عزة النفس وعلو الهمة ٠ منزلة بني هاشم في شرفهم؟ يا يحيى من قعد به نسبه نهض به أدبه)(١) .
ولكن سبب ذلك الزهو أن النحوي يحتقر من يلحن ولا يتقن علمه، (وهذا موجود في غيره من العلوم، من الفقه وغيره، في بعض الناس، وإن كان مكروهاً . وإن كان يريد بالبغي التجاوز فيما لا يحل فهذا محال؛ لأن النحو إنما هو لتعلم اللغة التي نزل بها القرآن، وهي لغة النبي صلى الله عليه وسلم، وكلام أهل الجنة وأهل السماء ، كما قال مقاتل بن حيان : (كلام أهل السماء العربية)(٢).)(٣).

وقد تراجع القاسم عن قوله السابق، فقد (قال ابن الأنباري : سمعت أحمد بن يحيى ثعلباً يقول : كان أحد الأئمة يعيب النحو، ويقول : (أول تعلمه شغل، وآخره بغي، والعالم به من يزدري يه الناس، فقرأ يوماً : " إنماً يختى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور [فاطر: ٢٨] ، فقيل له: كفرت؛ من حيث تجعل الله يخشى العلماء، فقال : والله لا طعنت على علم يؤدي إلى معرفة هذا أبداً)(٤)

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) زهر الأكم في الأمثال والحكم: ٢٦٣/١.

(٢) مصنف ابن ابي شيبة : فضائل القرآن :١٥١/٧، ح ١٤.

(٣) صناعة الكتاب :٠٣,٠٢٩.

(٤) تنبيه الألباب على فضائل الإعراب لأبي بكر الشنتريني: ٦٦-٦٧ .

أهمية اللغة العربية للداعية :

مع الإيمان بأن الدعوة رسالة عامة، يجب على كل مسلم حملها والقيام بها ، سواء أكان عالماً أم غير عالم ؛ لما رواه البخاري - رحمه الله- عن عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)(1) ، مع ذلك يجب أن تتوافر في الداعية شروط كثيرة ليقوم بالدعوة على الوجه الأمثل، متها:
الفهم الدقيق المبني على العلم قبل العمل، والقائم

على تدبر معاني القرآن الكريم وأحكامه ، وفهم السنة النبوية الشريفة(٢) .
فالداعية سيكون إماماً في الصلاة، مفسراً لكتاب الله تعالى، شارحاً لسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، مفتياً ، وربما دعت الحاجة إلى أن يكون مجتهداً ، وقبل ذلك كله لا بد أن يكون سليم المعتقد .
والإمام لا بد أن يكون مجيداً للغة القرآن الكريم التي سيتلو بها آياته في الصلوات ، قال يحيى بن عتيق - رحمه الله- : (سألت الحسن البصري ، فقلت. يا أبا سعيد. الرجل يتعلم العربية ، يلتمس حسن المنطق، ويقيم بها قراءته، فقال : حسن يا بني ، فتعلمها؛ فإن الرجل
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) فتح الباري :٤٩٦/٦ .
(٢) الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى لسعيد بن علي القحطاني: ١٢٠ .

قد يقرأ الآية، فيعيا بوجوهها ، فيهلك فيها) (١).
والمفسر والمحدث والمفتي والمجتهد يحتاج كل منهم إلى معرفة اللغة العربية، كما أن سلامة المعتقد تنبع من الصواب في فهم اللغة العربية؛ لأن الانحراف في تأويل اللغة يؤدي إلى الزيغ والضلال في العقيدة، وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.
العقيدة واللغة :
إن المعتقد السليم يقوم على تنزيل الأدلة منزلتها

في اللغة العربية دون تكييف، ولا تمثيل، ولا تحريف، ولا تعطيل، وما زاغ أكثر الزائغين ألا بسبب جهلهم باللغة العربية ، أو بتعمدهم صرف معانيها عن حقائقها، قال ابن جني : (أكثرمن ضل من أهل الشريعة عن القصد فيها ، وحاد عن الطريقة المثلى إليها، إنما استهواه، واستخف حلمه، ضعفه في هذه اللغة الكريمة الشريفة)(٢).
وقال أبو عبيد : (سمعت الأصمعي يقول : سمعت الخليل بن أحمد يقول : سمعت أبا أيوب السختياني يقول : عامة من تزندق بالعراق لقلة علمهم بالعربية)(٣).
ومن شواهد الزيغ عن الطريق المستقيم بسبب الجهل باللغة العربية أنني كنت أعمل في معهد العلوم الإسلامية والعربية في جاكرتا عام
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) إيضاح الوقف الابتداء : ٢٧.
(2) الخصائص: ٢٤٥/٣
(٣) الزينة في الكلمات الإسلامية العربية: ١٢٤.

١٤٠٠هـ الموافق ١٩٨٠ م، فعلمت حينذاك أن أحد طلاب المعهد هو من القاديانيين، فدعوته للمناقشة رغبة في أن يعود عن الغي والضلال، وكنت إذا أفحمته بالحجة بدت عليه الحيرة والاضطراب، لكنه كان في اليوم التالي يعود إلي وقد لقن الجواب، وكان آخر عهدي به أن قلت له : أتؤمن بالقرآن الكريم؟ ، فقال لي : نعم، فقلت له : إذن كيف تؤمن بنبوة غلام ميرزا أحمد المزعومة، والله

سبحانه يقول في محكم كتابه : " ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما" الأحزاب: **40**، فمحمد صلى الله عليه وسلم هو إذاً آخرالنبيين، فلا نبي بعده، فاضطرب، وتلعثم، ولم يحرجواباً، لكنه جاءني في اليوم لتالي قائلا: إن معنى : (خاتم النبيين) أي : هو كالخاتم في اليد، فقلت: سبحان الله! لوعرفت اللغة العربية لما قبلت هذا التأويل ممن لقنك إياه!

وهذا مصداق لقول الزهري - رحمه الله-: (إنما أخطأ الناس في كثير من تأويل القرآن لجهلهم بلغة العرب)(١).

لكن هذا لا يستغرب من أعجمي ذي بضاعة مزجاة باللغة العربية، لكن مثل هذا يستنكرمن علامة جهبذ، بل من بحرعلوم، كفخر خوارزم العلامة الزمخشري الذي لوى أعناق النصوص استدلالاً على مذهبه الاعتزالي(٢)، فرأى أن (لن) تفيد التأبيد؛ للوصول إلى مذهبه في نفي رؤية المؤمنين ربهم في الدنيا والآخرة (**3**)مستدلآ بقوله تعالى :
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) الزينة في الكلمات الإسلامية العربية:١٢٣.

(٢) الكشاف :٢٢/٣، شرح الأنموذج للأردبيلي: ٢٣٣ .

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة : ٤٥٤/٣ .

" ولما جاء موسى ليقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إيك قال لن تراني " الأعراف : ١٤٣، وما ذلك

جهل منه في حقائق اللغة العربية، بل هو تعسف وضلال.
والرد على الزمخشري سهل جداً ؛ فإن الله سبحانه وتعالى قال : " إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا **(26)** " [مريم: ٢٦] فخص النفي اليوم ، وهذا معارض للتأبيد ، وفي آية البقرة قال : "ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين " [البقرة: ٩٥ [ولوكانت (لن) دالة على التأبيد لما احتاجت إلى التأكيد بقوله: " أبدا "، وما يرد على الزمخشري أيضاً قوله تعالى: وقالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى " [طه: ٩١] ، فقيد النفي برجوع موسى، وهو مناف للتأبيد .
وقبل الزمخشري كان أبو علي الفارسي يعرب " رهبانية " من قوله تعالى : " ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آَثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ألا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآَتَيْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ **(27)** " [الحديد: ٢٧] كان يعربها مفعولاً به لفعل محذوف يفسره المذكور بعده، أي يجعلها من باب الاشتغال، ويجعل الواو في قوله: (ورهانية) للاستئناف، ولا يجعل (رهانية) معطوفة على (رأفة)، قال : (فقوله : (رهبانية) محمول على فعل، كأنه قال : وابتدعوا رهبانية ابتدعوها ، ألا ترى أن الرهبانية لا يستقيم حملها على (جعلنا) مع وصفها

بقوله(ابتدعوها) لأن ما يجعله هو تعالى لا يبتدعونه هم)(١) .
وتبع الزمخشري أبا علي الفارسي في إعرابه، وهذا الإعراب منهما مرجعه كونهما من المعتزلة، وهم يقولون: ما كان مخلوقاً لله لا يكون مخلوقاً للعبد، فالرأفة والرحمة من خلق الله، والرهبانية من ابتداع الإنسان، فهي مخلوقة له، وهم يعتقدون أن مايفعله الإنسان لا يفعله الله تعالى، ولا يخلقه.
وهذا الإعراب منهما باطل، ولا يستقيم على قواعد اللغة؛ لأن جعل هذه الآية من باب النصب على الاشتغال غير صحيح، فمن شروط الاسم المشتغل عنه ان يكون مختصاً ليصح رفعه بالابتداء ، والمبتدأ لا يكون ألا معرفة أو نكرة مختصه ٢)، أما في هذه الآية (رهبانية) نكرة غير مختصة، فلا يصح أن تكون من باب الاشتغال، وإنما الإعراب الصحيح لها: أن تكون الواوعاطفة، و(رهبانية) معطوفة على (رأفة) ووصفت الرهبانية بجملة (ا بتدعوها) لأن الرأفة والرحمة في القلب لا تكسب للإنسان فيها، بخلاف الرهبانية؛ فإنها أفعال بدن مع شيء في القلب، ففيها موضع للتكسب. والله أعلم.

(1) الإيضاح العضدي:٧٦.
(٢) النكرة المختصة هي المضافة أو الموصوفة، مثل: كتاب علم اقتنيته، أو: كتاب قيم اشتريته.

والداعية من أولى الناس في تحري سلامة

عقيدته؛ لئلا يزيغ أو ينحرف، فتهوي معه أمم من أتباعه في الزيغ والضلال، ومعرفة اللغة العربية أحد العواصم بإذن الله من الوقوع في ذلك، قال الأصمعي - رحمه الله - : (تعلموا النحو؛ فإن بني إسرائيل كفروا بكلمة واحدة، كانت مشددة، فخففوها، قال تعالى: وياعيسى إني ولدتك، فقرأوا: وياعيسى إني ولدتك) مخففاً، فكفروا)(١).

التفسير واللغة :

إن كتاب الله تعالى هو معجزة رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو أنزل بلسان عربي مبين؛ ليقوم الناس بقراءته وبتدبر آياته : " كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آَيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (29)" [ص: ٢٩] ، ولاشك في عدم جواز تلاوة القرآن الكريم بغير اللغة العربية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (فأما القرآن فلا يقرؤه بغير العربية، سواء قدر عليها أم لم يقدر، عند الجمهور، وهو الصواب الذي لا ريب فيه(2) " وأما تدبره فكيف يتدبر القرآن الكريم من لا يعرف لغته؟ ((وإنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره، واتسع علمه، وفهم مذهب العرب، وافتنانها في الأساليب، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات)(٣) .

____

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حبان: ٢٢١-٢٢٢.

(٢) اقتضاءالصراط المستقيم :٤٦٢/١ .

(٣) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة :١٢.

قد يقول قائل : يفهم معانيه بالترجمة، ولكنني أبادر هذا القائل بالتأكيد على أن الترجمة من أي لغة لا يمكن أن تنقل المعنى كاملاً، فكيف إذا كانت اللغة المنقول منها هي اللغة العربية التي عرفت بالعمق والغزارة وتقارب معاني الألفاظ؟
وكيف إذا كان المراد ترجمته القرآن المعجز الذي عجزت فصحاء العرب وأساطين البلاغة أن يأتوا يسورة واحدة من مثله؟
إن الترجمة تظل عاجزة عن نقل معاني الآيات نقلاً كاملاً ، قال ابن قتيبة - رحمه الله (لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة كما نقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية، وترجمت التوراة والزبور وسائركتب الله عز وجل بالعربية؛ لأن العجم لم تتسع في المجاز اتساع العرب ,
ألا ترى أنك لوأردت أن تنقل قوله : "وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ **(58)**" [الأنفال: ٥٨ [لم تستطع أن تأتي بهذه الألفاظ مؤدية عن المعنى الذي أودعته، حتى تبسط مجموعها، وتصل مقطوعها، وتظهر مستورها، فتقول : إن كان بينك وبين قوم هدنة وعهد، فخفت منهم خيانة ونقضاً، فأعلمهم أنك قد نقضت ما شرطت لهم، وآذنهم بالحرب؛ لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على استواء)(١)
انتهى كلامه - رحمه الله- .
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) تأويل مشكل لقرآن : ٢١ ، وانظر: الصاحبي لابن فارس :١٧ .

وقال بعض الحكماء : (لو اجتهد جميع الناس أن ينقلوا -أي : يترجموا- : " سيهزم الجمع ويولون الدبر" [القمر :٤٥] ما قدروا، وكذا : " وغيض الماء " [هود: ٤٤] ، الآية ، وكذلك: فوفسوف يأتي الله بقوميحبهم ويحبونه 4 [المائدة :٤٥٤ الآية، وكذا : " فانبذ إليهم على سواء " [الأنفال: ٥٨ [لما فيه من الاختصار الذي هو من إعجاز القرآن، ومثله كثير *(١)٠
ولذلك قال الدكتور أحمد نسيم سوسة : (الواقع أنه يتعذر على المرء الذي لم يتقن اللغة العربية، ولم يضطلع بآدابها ، أن يدرك مكانة هذا الفرقان الإلهي، وسموه، وما يتضمنه من المعجزات المبهرة)(٢) ٠
وأقول : كيف سيترجم مترجم قول الله تعالى : " فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين " [الحجر: ٩٤ [هذه الآية التي لما سمعها أعرابي سجد، فلما سئل : لم سجدت ؟ قال : سجدت لفصاحة هذا الكلام(٣).
وبم سيترجم المترجم ألفاظ العموم التي ترد كثيراً في القرآن الكريم، مثل :" ما كتب الله لكم " في قول الله تعالى : "فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم " البقرة **187**. ولذلك لم يجز بعض العلماء ترجمة القرآن الكريم(4).
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(٢) صناعة الكتاب :٧٣٠
(٣) قالوا عن الإسلام :٧١.
(٣) الإتقان في علوم القرآن: ١٤٩/٢،روح المعاني: ٨٦/١٤.
(٤) اقتضاء الصراط المستقيم: ٥٢٠/١.

وأنى لمترجم أن يفرق في ترجمته بين(أكمل)و(أتم) في قول الله تعالى : " ... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ..." [المائدة:٣].
وكيف سيترجم مترجم " لباساً " في قوله تعالى : "وجعلنا الليل لباسا" [النبأ : **10**] ؟ أم تراه سيفعل بها كما فعل أحد مترجمي معاني القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية حين ترجمها ب(**pants**) ! .
وقد أدرك المستشرقون الذين تعلموا اللغة العربية روعة لغة القرآن الكريم ذات اللسان العربي، لذلك قال المستشرق الفرنسي جاك ريسلر : (لماً كانت روعة القرآن في أسلوبه فقد أنزل ليقرأ ويتلى بصوت عال، ولا تستطيع أية ترجمة أن تعبر عن فروقه الدقيقة المشبعة بالحساسية الشرقية، ويجب أن تقرأه في لغته التي كتب بها؛ لتتمكن من تذوق جمله وقوته وسمو صياغته، ويخلق نشره ذو الجرس المسجوع سحراً مؤثراً في النفس، حيث تزخر الأفكار قوة، وتتوهج الصور نضارة، فلا يستطيع أحد أن ينكر أن سلطانه السحري وسموه الروحي يسهمان في إشعارنا بأن

محمداً كي كان ملهماً بجلال الله وعظمته)(١) .
وقال المستشرق الإنجليزي سير هاملتون ألكسندر روسكين جب . (. .. . والواقع أن القرآن لا يمكن ترجمته بشكل أساسي كما هي الحال بالنسبة للشعرالرفيع ؛ إذ ليس بالإمكان التعبير عن مكنون القرآن باللغة العادية، ولا يمكن أن يعبر عن صوره وأمثاله ؛ لأن كل عطف أو

(١) الحضارة العربية : ٣٠.

مجاز أو براعة لغوية يجب أن تدرس طويلاً قبل أن ينبثق المعنى للقارئ، والقرآن كذلك له حلاوة وطلاوة ونظم بديع مرتب لا يمكن تحديده؛ لأنها تعد بسحرها أفكار الشخص الذي يصغي إلى القرآن لتلقي تعاليمه، ولا شك في أن تأويل كلمات القرآن إلى لغة أخرى لا يمكن ألا أن يشوهه، ويحول الذهب النقي إلى فخار .. . .) (١).
وقالت الإنجليزية إيفلين كوبولد: (الواقع أن جمل القرآن وبديع أسلوبه أمر لا يستطيع له القلم وصفاً ولا تعريفاً، ومن المقرر أن تذهب الترجمة بجماله وروعته، وما ينعم به من جرس لفظي لا تجده في غيره من الكتب)(2).
وقال الإنجليزي روم لاندرو : (بسبب من أن مهمة ترجمة القرآن بكامل طاقته الإيقاعية إلى لغة أخرى تتطلب عناية رجل يجمع الشاعرية إلى العلم ، فإننا لم نعرف حتى وقت قريب ترجمة جيدة استطاعت أن تتلقف شيئاً من روح الوحي القرآني،

والواقع أن كثيراً من المترجمين الأوائل لم يعجزوا عن الاحتفاظ بجمال الأصل فحسب، بل كانوا إلى ذلك مفعمين بالحقد على الإسلام إلى درجة جعلت ترجماتهم تنوء بالتحامل والغرض، ولكن حتى أفضل ترجمة ممكنة للقرآن في شكل مكتوب لا تستطيع أن تحتفظ بإيقاع السور الجرسي الآسر، على الوجه الذي يرتلها به المسلم ، وليس يستطيع الغربي أن يدرك شيئاً من روعة

(١) الاتجاهات الحديثة في الإسلام : ٣٠ .
(2) البحث عن الله:١١١.

كلمات القرآن وقوتها ألا عندما يسمع مقاطع منه مرتلة بلغته الأصلية (1)
وعوداً على بدء أقول : إن الداعية لا يمكن أن يستغني عن تدبر كلام الله تعالى وفهمه، ومن ثم تفسيره للعامة، فيحتاج حينئذ إلى عدة المفسر، وقد أجمع العلماء على أن العلم باللغة العربية وأسرارها شرط من الشروط الرئيسة في المفسر، قال مالك بن أنس - رحمه الله -:(لا أوتي برجل غير عالم بلغات العرب يفسر كتاب الله ألا جعلته نكالا)(٢) .
والمفسر محتاج إلى الرسوخ في عدد من علوم اللغة العربية : كعلم دلالة الألفاظ، وعلمي النحو والصرف، وعلم الاشتقاق، وعلوم المعاني والبيان والبديع(٣) ؛ وذلك للوصول إلى ما في القرآن الكريم من بلاغة وبديع ، وللترجيح بين الأقوال المختلفة في تفسير الآية، ولاستنباط بعض الأحكام بمقتضى القواعد النحوية والصرفية واللغوية، وللوقوف على المترادفات، وعلى الحقيقة والمجاز (٤) ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله- : (لابد في تفسير القرآن والحديث من أن يعرف ما يدل على مراد الله ورسوله من الألفاظ، وكيف يفهم كلامه، فمعرفة العربية التي خوطبنا بها مما يعين على أن
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(1) الإسلام والعرب :٣٦.
(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي :١٦٠/٢ .
(٣) التحبير في علم التفسي للسيوطي: ٤٢ب.

(٤) أثر الدلالة النحوية واللغوية في استنباط الأحكام من آيات القرآن التشريعية لعبدالقادر السعدي : ٨٧ .

نفقه مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني؛ فإن عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب؛ فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدعون أنه دال عليه، ولا يكون الأمر كذلك)(١).

والثمرة العظمى لهذا الفهم هو التدبر الذي ندب المرء إليه؛ ليؤدي به ذلك إلى الإيمان بالله منزل هذا الكتاب، وإلى تعظيم القرآن ومن أوحاه، ومن بلغه، وهذه كلها لا تتأتى ألا لمن عرف لغته، وأدرك أسرارها، وسبر أغوارها، وميز الفروق بين مفرداتها، ورزق ملكة تذوق أساليبها، قال ابن النقيب - رحمه الله- إنما يعرف فضل القرآن من عرف كلام العرب، فعرف علم اللغة، وعلم العربية، وعلم البيان فإذا علم ذلك، ونظر في هذا الكتاب العزيز، ورأى ما أودعه الله - سبحانه - فيه من البلاغة والفصاحة وفنون البيان، فقد أوتي فيه العجب العجاب، والقول الفصل اللباب، والبلاغة الناصعة التي تحير الألباب، وتغلق دونها الأبواب . . . . ولذلك يقع في النفوس عند تلاوته وسماعه من الروعة ما يملأ القلوب هيبة ، والنفوس خشية، وتستلذه الأسماع، وتميل إليه بالحنين الطباع، سواء كانت فاهمة لمعانيه أو غير فاهمة، عالمة بما يحتويه أو غير عالمة، كافرة بما جاء به أو مؤمنة)

.(٢)

(١) الإيمان: ١١١ .
(٢) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن : ٧ .

الحديث واللغة :

إن السنة النبوية هي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي ، روى الحاكم وغيره عن المقدام بن معديكرب -رضي الله عنه-أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه؛ ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموم، وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله) ، ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم من الفصاحة والبلاغة في منزلة عالية لا تدانى، روى البخاري-رحمه الله - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (يعثت بجوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وبينا أنا نائم أتيت بمفاتيح خزائن الأرض، فوضعت في يدي)(١) .

ومن واجبات الداعية نشر السنة النبوية بين الناس، وتبليغهم أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، فكيف يبلغ من لا يعرف لغة حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم؟ ولذلك قرن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بينهما حيث كتب إلى أبي موسى الأشعري –رضي الله عنه (أما بعد: فتفقهوا في السنة، وتفقهوا في

العربية)(٢)، وكذلك كان العلماء يشنعون على من يدرس الحديث ولا يتعلم العربية، قال شعبة بن الحجاج - رحمه الله - : (مثل الذي يتعلم الحديث ولم يتعلم العربية كالرأس بلا برنس)(٣) ؛ لأنه قد يفهم ا لأحاديث، أو يؤولها على غير
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) فتح الباري : ١٤٩/٦
(٢) مصنف ابن أبى شيبة :١٥٠/٧، صناعة الكتاب : ٣٠.
(٣) الصعقة الغضبية في الرد على منكري العربية للطوفي: ٢٤٨ .

وجهها المراد؛ بسبب جهله بدلالة ألفاظها، بل لا بد له من أن يعرف أساليبها، وعادات العرب في خطابها وحديثها في العصور الأولى؛ لئلا ينزلق في فهم خاطىء ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (ومن لم يعرف لغة الصحابة التي كانوا يتخاطبون بها، ويخاطبهم بها النبي صلى الله عليه وسلم، وعاداتهم في الكلام، وإلا حرف الكلم عن مواضعه؛ فإن كثيراً من الناس ينشأ على اصطلاح قومه وعاداتهم في الألفاظ، ثم يجد تلك الألفاظ في كلام الله أو رسوله أو الصحابة، فيظن أن مراد الله أو رسوله أو الصحابة بتلك الألفاظ ما يريده بذلك أهل عادته واصطلاحه، ويكون مراد الله ورسوله والصحابة خلاف ذلك)(١) .
وقد حضر مجلس الإمام سليمان بن مهران الأعمش قوم ليسمعوا الحديث، فقال لهم : ما

اليوم ؟ فقال رجل منهم : الاثنين، فقال الأعمش: الاثنين!! ارجعوا، فأعربوا كلامكم، ثم اطلبوا الحديث(٢). أرادمنه أن يقول: (يوم الاثنين)؛ لأن إضافة (يوم) سبب جر (الاثنين).
ويخشى على من يلحن في قراءة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون ممن يكذب عليه، قال الأصمعي : (إن أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل في جملة قول النبي صلى الله عليه وسلم : (من كذب علي متعمداً فليتبوا مقعده من النار) ؛ لأنه لم يكن يلحن، فمهما

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) مجموع الفتاوى :١/٢٤٣.
(٢) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار : ١/٦٤٤.

رويت عنه، ولحنت فيه، كذبتً عليه)(١). وقال أبو بكر الشنتريني - رحمه الله-: (روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من كذب علي متعمداً فليتبوا مقعده من النار) ، ومن لحن في حديثه صلى الله عليه وسلم فقد كذب عليه؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يلحن، فإن قيل : فإن لم يقصد به اللحن فليس بمتعمد، فالجواب : أن كل من قد علم أنه غير مستقل بالإعراب، ثم تعرض لقراءة كتاب الله أو حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه متى لحن في أحدهما فقد تعمد الكذب، ويتأكد الأمر عند من يقول بحماية الذرائع) . (٢)

ولا شك في أن هذا التشدد من بعض العلماء إنما هو من باب سد الذرائع. والله أعلم وأحكم .

الفتيا واللغة :

إن أحوج ما يحتاجه المدعوون أن يقوم الداعية بتبصيرهم بأحكام دينهم، وما من داعية في أي مكان ألا وسيستفتيه الناس فيما يعرض لهم من شؤونهم ، فلا يد حينئذ من أن يكون الداعية فقيهاً، ولا يكن لأي امرىء أن يكون فقيهاً ما لم يكن عارفاً باللغة العربية، قال ابن فارس في باب (القول في حاجة أهل الفقه والفتيا إلى معرفة اللغة العربية) من كتابه الشهير الموسوم ب(الصاحبي) : (إن العلم بلغة العرب واجب على كل متعلق من العلم بالقرآن والسنة والفتيا بسبب، حتى لا غناء بأحد منهم عنه؛ وذلك أن القرآن نازل بلغة العرب،

____

(١) مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث :١٠٧.

(٢) تنبيه الألباب على فضائل الإعراب : ٩٠-٩١.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم عربي، فمن أراد معرفة ما في كتاب الله جل وعز، وما في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، من كل كلمة غريبة، أو نظم عجيب، لم يجد من العلم باللغة بداً)(١) .

ولا تكفي من الفقيه معرفة اللغة العربية قراءة وكتابة وتحدثاً، بل يجب أن يتعلم نحوها وتصريفها ودلالة ألفاظها؛ ليكون قادراً على معرفة

وجوه الاستدلال، ولذلك قال عاصم : (من لم يحسن من العربية ألا وجهاً لم يحسن شيئاً)(٢)، وقال ابن حزم(٣): ((وفرض على من قصد التفقه في الدين كما ذكرنا أن يستعين على ذلك من سائر العلوم بما تقتضيه حاجته إليه في فهم كلام ربه تعالى و كلام نبيه صلى الله عليه وسلم، قال تعالى : " وما أرستا من رسول ألا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم " [ابراهيم: ٤] ، ففرض على الفقيه أن يكون عالماً بلسان العرب؛ ليفهم عن الله عز وجل، وعن النبي صلى الله عليه وسلم، ويكون عالماً بالنحو الذي هو ترتيب العرب لكلامهم الذي به نزل القرآن، وبه تفهم معاني الكلام التي يعبر عنها باختلاف الحركات وبناء الألفاظ، فمن جهل اللغة، وهي الألفاظ الواقعة على المسميات، وجهل النحو الذي هو علم اختلاف الحركات الواقعة لاختلاف المعاني، فلم يعرف اللسان الذي به خاطبنا الله تعالى ونبينا صلى الله عليه وسلم، ومن

(١) الصاحبي: ٥٠ .
(٢) معرفة القراء الكبار: ٢٥٤.
(٣) الإحكام في أصول الأحكام:١١٧/٥ -١١٨ .

لم يعرف ذلك اللسان لم يحل له الفتيا فيه؛ لأنه يفتي بما لا يدري، وقد نهاه الله عن ذلك بقوله تعالى : " ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا "

[الإسراء : ٣٦].
وقال الرازي : (اعلم أن معرفة اللغة والنحو والصرف فرض كفاية؛ لأن معرفة الأحكام الشرعية واجبة بالإجماع، ومعرفة الأحكام دون معرفة أدلتها مستحيل، فلا بد من معرفة أدلتها، والأدلة راجعة إلى الكتاب والسنة، وهما واردان بلغة العرب ونحوهم وتصريفهم، فإذن توقف العلم بالأحكام على الأدلة، ومعرفة الأدلة تتوقف على معرفة اللغة والنحو والتصريف، وما يتوقف على الواجب المطلق، وهو مقدور للمكلف، فهو واجب، فإذن معرفة اللغة والنحو والتصريف واجبة)(١).
وقال الآمدي : (وأما علم العربية فلتوقف معرفة دلالات الأدلة اللفظية من الكتاب والسنة وأقوال أهل الحل والعقد من الأمة على معرفة موضوعاتها لغة، من جهة الحقيقة والمجاز، والعموم والخصوص، والإطلاق والتقييد، والحذف والإضمار، والمنطوق والمفهوم، والاقتضاء والإشارة، والتنبيه والإيماء، وغيره مما لا يعرف في غير علم العربية)(2)
ولا يظن ظان أنه يجب على الفقيه أو المفتي أو الداعية الإحاطة
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) المحصول في علم الأصول :٢٧٥/١
(٢) الإحكام في أصول الأحكام :٢٤/١.

باللغة العربية؛ لأن العربية أوسع من أن يحيط بها عقل بشر ، قال بن فارس : (ولسنا نقول : إن الذي

يلزمه من ذلك الإحاطة بكل ما قالته العرب؛ لان ذلك غير مقدور عليه، ولا يكون ألا لنبي، بل الواجب علم أصول اللغة، والسنن التي بأكثرها نزل القرآن، وجاءت السنة)(١) .
لكنه إذا أراد أن يدخل في عداد المجتهدين يجب أن يكون عارفاً باللغة العربية، مدركاً لأسرارها؛ فهذا شرط اشترطه العلماء في المجتهد(٢) ، قال الشوكاني - رحمه الله في شروط المجتهد : (أن يكون عالماً بلسان العرب، بحيث يمكنه تفسير ما ورد في الكتاب والسنة من الغريب ونحوه ، ولا يشترط أن يكون حافظاً لها عن ظهر قلب، بل المعتبرأن يكون متمكناً من استخراجها من مؤلفات الأئمة المشتغلين بذلك)(٣) .

حكم تعلم اللغة العربية :

إن بعض الشعائر التعبدية يجب أن تكون باللغة العربية، كالتشهد وقراءة القرآن، ولذلك يجب على كل مسلم ومسلمة أن يتعلم من العربية ما يستطيع به القيام بهذه الشعائر، قال الإمام الشافعي -رحمه الله - : (على كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده، حتى يشهد به أن لا إله ألا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، ويتلو به كتاب

---

(١) الصاحبي :٥٠.
(٢) الإبهاج في شرح المنهاج للسبكى ٣٠./ 255 .
(٣) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول:٢٥٢ .

الله ، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك، وما ازداد من العلم باللسان الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته، وأنزل به آخر كتبه كان خيراً له)(١) .
أما لما سوى ذلك فتعلم اللغة العربية من عامة المسلمين مستحب، على القول الصحيح؛ (لأنها اللغة التي أنزل الله بها كتابه، وخاطب بها في شرائع دينه، وفرائض ملته، وبها بلغ رسوله صلى الله عليه وسلم، وعلم سنته"(٢).
ولأن اللغة العربية شعار الإسلام ، ولغة القرآن ولغة النبى صلى الله عليه وسلم، حث العلماء على تعلمها، فقال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (ينبغي لكل أحد يقدر على تعلم العربية أن يتعلمها؛ لأنه اللسان الأولى بأن يكون مرغوباً فيه، من غير أن يحرم على أحد أن ينطق بأعجميته(٣).
لكن شيخ الإسلام في موضع آخر من كتابه [اقتضاء الصراط المستقيم] جعل تعلمها فرضاً واجباً حيث قال : (إن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب ؛ فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم ألا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب ألا به فهو واجب)(٤)، والصحيح عدم وجوبه ألا للشعائر التعبدية ؛ لأن فرضيته تعني إثم من تركه، وفي هذا مشقة على المسلمين، ولا يكلف الله نفساً ألا وسعها،
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) الرسالة ٤١.
(٢) نصيحة الملوك للماوردي: ٣٥.
(٣) اقتضاءالصراط المستقيم: ١/٥٢١.
(4) المصدرالسابق: ٠١/٥٢٧.

قال الطوفي : (والإجماع منعقدعلى أن من لم يحصل صناعة الإعراب وعلم العربية لا يذم شرعاً ، ولا يتوعد بالعقاب؛ لأنا نقول : نحن نعني بوجوبه الوجوب الخاص على من أراد الفتيا والقضاء)(1) ، وهو ما رجحه الإمام الشافعي - رحمه الله - حين ذكر : (أن على الخاصة التي تقوم بكفاية العامة فيما يحتاجون إليهم لدينهم، الاجتهاد في تعلم لسان العرب ولغاتها التي بها تمام التوصل إلى معرفة ما في الكتاب، والسنن والآثار، وأقاويل المفسرين من الصحابة والتابعين، من الألفاظ الغريبة، والمخاطبات العربية؛ فإن من جهل سعة لسان العرب، وكثرة ألفاظها، وافتنانها من مذاهبها، جهل جمل علم الكتاب، ومن علمها، ووقف على مذهبها، وفهم ما تأوله أهل التفسير فيها، زالت عنه الشبه الداخلة على من جهل لسانها من ذوي الأهواء والبدع(٢) .

وأخيراً نؤكد أن الداعية مطالب بمعرفة اللغة العربية وبتعلمها، وله مع الإخلاص وصدق النية في تعلمها وتعليمها أعظم الأجر والثواب من الله الكريم الوهاب، وأن على أمة الإسلام أن تدرك أن اعتزازها بلغة القرآن الكريم من اعتزازها بدين الإسلام، وأنه يجب على خاصتهم العمل على

تيسير سبل تعليمها، ونشرها، وأن لا تكون لغة من اللغات تسبقها؛ فلئن كان تعلم غيرها حسناً لتعلمها هي أوجب وأحسن؛ لأنها أسرع وسيلة في فهم القرآن العظيم والسنة النبوية

(١) الصعقة الغضبية:٢٣٧.
(٢) تهذيب اللغة للأزهري : ١ / ٥.

الشريفة؛ فما أجدرها منا بمزيد عناية! وما أحراها بفضل تذليل لعسيرها ، وتيسير لتعلمها ، وتوفير لمعجماتها ، ونشر لكتب تعليمها وبرامج تدريسها، وتأهيل لمعلميها، وتشجيع لمتعلميها! ! ! فلئن افتخر غيرنا بلغته عصبية قومية ليكونن افتخارنا بلغتنا احتساباً وتأكيداً على أنها من ديننا، ومن ركائز بقائنا وحفظ مكانتنا، والله مولانا يتولانا برحمته.

إن اللغة العربية تفخر على كل اللغات بمزايا كثيرة
ليست في غيرها ، منها :
أنها الأطول عمراً حيث تكفل الله تعالى بحفظها
حين تكفل بحفظ كتابه الذي نزل بلسان عربي
مبين : "إنا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون ٩ "
[الحجر :٩] ، وأنها الأغزر مادة حيث تزيد موادها
على مئة ألف سوى المشتقات ، وأنها الأبلغ في
مراعاة مقتضى الحال ، ولذلك تفردت بكثرة
القواعد النحوية والصرفية والبلاغية التي يستطيع
بها الموهوب أن يملك ناصية البيان ، ومع ذلك
تمتاز بالسهولة ؛ فهي بحر له عمق، وله سطح،
وعلى قدر همة الغواص يحصل على الدرر، وإذا
كات العربية بحراً فإن القرآن أنفسها درراً ولؤلؤاً،
ولكن الحصول على جواهره يحتاج إلى غواص
ماهر ، عدته التدبر العميق لآياته وسوره ٠
وإن لبلوغ منزلة المتدبرين للقرآن الكريم وللوقوف
على مدى بلاغته وإعجازه ثلاثة أركان :
الأول : فهم علوم اللغة.
والثاني: الإخلاص.
والثالث : الذوق السليم. وسأكتفي بإيراد أقوال
لبعض العلماء الأعلام في هذه الأركان:
الركن الأول : فهم علوم اللغة :
وأقصد بعلوم اللغة نحوها وصرفها وبلاغتها

ودلالات ألفاظها؛ فإن فهم أسرار اللغة العربية، ومنها القرآن الكريم، يحتاج إلى الاطلاع على كل علومها مجتمعة؛ لأنها حلقة متصلة، يأخذ بعضها برقاب بعض، قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله — : ((لا بد في تفسير القرآن والحديث من أن يعرف ما يدل على مراد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم من الألفاظ، وكيف يفهم كلامه؛ فمعرفة العربية التي خوطبنا بها مما يعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني؛ فإن عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب؛ فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم على ما يدعون أنه دال عليه، ولا يكونالأمركذلك(١).

والثمرة العظمى لهذا الفهم هو التدبر الذي ندب المرء إليه ؛ ليؤدي به ذلك إلى الإيمان بالله منزل هذا الكتاب ، وإلى تعظيم القرآن ومن أوحاه ، ومن بلغه، وهذه كلها لا تتأتى ألا لمن عرف لغته، وأدرك أسرارها ، قال ابن النقيب - رحمه الله - : (إنما يعرف فضل القرآن من عرف كلام العرب، فعرف علم اللغة، وعلم العربية، وعلم البيان . . . فإذا علم ذلك، ونظر في هذا الكتاب العزيز، ورأى ما أودعه الله -سبحانه - فيه من البلاغة والفصاحة وفنون البيان، فقد أوتي فيه العجب العجاب، والقول الفصل اللباب، والبلاغة الناصعة لتي تحير

(١) الإيمان ١1١.

الألباب، وتغلق دونها الأبواب. . . ولذلك يقع في النفوس عند تلاوته وسماعه من الروعة ما يملأ القلوب هيبة، والنفوس خشية، وتستلذه الأسماع ، وتميل إليه بالحنين الطباع، سواء كانت فاهمة لمعانيه، أو غير فاهمة، عالمة بما يحتويه، أو غير عالمة، كافرة بما جاء به، أو مؤمنة)**(1)** .

الركن الثاني : التقوى والإخلاص والتجرد :

فالقرآن العظيم نور الله، وفهمه يحتاج إلى نور منه " ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور" **[**النور**]** 40 ، قال الزركشي-رحمه الله- : (اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي حقيقة، ولا تظهرله أسرار العلم من غيب المعرفة، وفي قلبه بدعة، أو إصرارعلى ذنب، أوفي قلبه كبر، أوهوى ، أوحب دنيا، أو يكون غير متحقق الإيمان، أو ضعيف التحقيق، أو معتمداً على قول مفسر ليس عنده ألا علم بظاهر، أو يكون راجعاً إلى معقوله، وهذه كلها حجب وموانع، وبعضها أكد من بعض ، **[**ف**]** إذاكان العبدمصغياً إلى كلام ربه، ملقي السمع، وهو شهيد ، لمعاني صفات مخاطبه، ناظراً إلى قدرته، تاركاً للمعهود من علمه ومعقوله، متبرئاً من حوله وقوته، معظماً للمتكلم، مفتقراً إلى غيب الجواب بدعاء وتضرع ، وابتئاس وتمسكن، وانتظار للفتح عليه من عند الفتاح العليم، وليستعن على ذلك يأن تكون تلاوته على معاني

(١) الفوائد المشوق إلى علوم القران : ٧ .

الكلام وشهادة وصف المتكلم من الوعد بالتشويق والوعيد بالتخويف والإنذار بالشديد، فهذا القارىء أحسن الناس صوتاً بالقرآن، وفي مثل هذا قال تعالى : " الذين آتيناهم الككاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به" [البقرة] ، وهذ هو الراسخ في العلم، جعلنا الله من هذا الصنف " والله يقول الحق وهو يهدي السبيل " [الأحزاب؛)(١) .

الركن الثالث: الذوق اللغوي السليم:

إن قراءة القرآن الكريم ، ولو توافر معها التقوى والإخلاص ومعرفة العربية، لا تستلزم القدرة على الوقوف على جمال الأسلوب وبلاغة كلام العرب؛ لأن ذلك يحتاج أيضاً إلى ذوق سليم ، وكذلك إدراك مواطن الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم يتطلب وجود ملكة الذوق القادر على تمييز الفروق بين المشتبهات وأسرارها ، وعلى مواطن الفصاحة والبلاغة وإجراء الكلام على النسق الرائع ، قال ابن أبي الحديد : (اعلم أن معرفة الفصيح والأفصح، والرشيق والأرشق، والجلي والأجلى، والعلي والأعلى من الكلام أمرلايدرك ألا بالذوق، ولا يمكن إقامة الدلالة امنطقية عليه، وهو بمنزلة جاريتين : احداهما بيضاء مشربة حمرة، دقيقة الشفتين، نقية السعر، كحلاء العين، أسيلة الخد، دقيقة الأنف، معتدلة القامة والأخرى دونها في الصفات والمحاسن، لكنها أحلى في العيون

---

(١) البرهان في علوم القرآن :٢/١٨٠-١٨١ .

والقلوب منها، وأليق وأملح(1)، ولايدرى لأي سبب كان ذلك، لكنه بالذوق والمشاهدة يعرف، ولا يمكن تعليله .
وهكذا الكلام، نعم يبقى الفرق بين الوصفين أن حسن الوجوه وملاحتها، وتفضيل بعضها على بعض يدركه كل من له عين صحيحة، وأما الكلام فلا يعرفه ألا يالذوق، وليس كل من اشتغل بالنحو او ياللغة أو بالفقه كان من أهل الذوق، وممن يصلح لانتقاد الكلام.
وإنما أهل الذوق هم الذين اشتغلوا بعلم البيان، وراضوا أنفسهم بالرسائل والخطب والكتابة والشعر، وصارت لهم بذلك دربة وملكة تامة، فإلى أولئك ينبغي أن يرجع في معرفة الكلام، وفضل بعضه على بعض)(٢).
ولا شك في أن سائلاً سيقول : ولكن أيكون الذوق فطرياً أم مكتسباً ؟ ، فأقول : إن الذوق في الأصل ملكة فطرية، لكن الاكتساب فيه هو المعتمد، ولذلك قال الزمخشري عن تدبر كتاب الله : (إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح، من غرائب نكت يلطف مسلكها ، ومستودعات أسرار يدق سلكه ، علم التفسير
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) قال الأصمعي: (الجسن في العينين، والجمال في الأنف، والملاحة في الفم).
انظر : عيون الأخبار ٢٧/٤، الروض الأنف للسهيلي ١٩/٤:، المخلاة :٥٩٦٠
وقيل: (الجمال في القامة، والحسن في الأنف،

والملاحة في الجسم، والحلاوة في العينين) .
انظر : التمثيل والمحاضرة :٢١٦.
وقال ابن ميادة (شعره :٥٨):
يا أطيب الناس ريقاً بعدهجعتها وأملح الناس عيناً حين تنتقب
وقال ذو الرمة (ديوانه : ٤٦٥/١):
وعين كعين الرئم فيها ملاحة هي السحر أو أدهى التباساً وأعلق
(٢) نقله عن ابن أبي الحديد الإمام الزركشي - رحمه الله - في كتابه : البرهان في علوم القرآن ١٢٤/٢.

الذي لا يتم لتعاطيه وإجابة النظر فيه كل ذي علم، كما ذكر الجاحظ في كتاب (نظم القرآن) ؛ فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية (١) أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق ألا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علما المعاني والبيان ، وتمهل في ارتيادهما آونة ، وتعب في التنقير عنهما أزمنة ، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم

بحظ، جامعاً بين أمرين: تحقيق وحفظ، كثير المطالعات، طويل المراجعات، قد رجع زماناً ، ورجع إليه، ورد، وردعليه، فارساً في علم الإعراب، مقدماً في حملة الكتاب، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقادها، يقظان النفس دراكاً للمحة، وإن لطف شأنها، منتبهاً على الرمزة ، وإن خفي مكانها، لا كزا جاسياً، ولا غليظاً جافياً، متصرفاً ذا دربة بأساليب النظم والنثر، مرتاضاً غير ريض بتلقيح بنات الفكر، قد علم كيف يرتب الكلام، ويؤلف، وكيف ينظم، ويرصف، طالما دفع إلى مضايقه، ووقع في مضاحضه ومزالقه) (٢) .

(١) هو: أيوب بن زيد بن قيس بن زرارة الهلالى، أحد البلغاء ، يضرب به المثل، فيقال: (أبلغ من ابن القرية) ، قتله الحجاج بن يوسف سنة ٨٤ هـ. انظر:وفيات الأعيان ١/٢٥٠-٢٥٥.

(٢)الكتف: ١/١٥,١٧.

قوله تعالى : " اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين *] الفاتحة **6-7**
عبر عن المؤمنين بجملة : " الذين أنعمت عليهم التي جاءت صلة موصولها جملة فعلية، ولم يقل : (صراط المنعم عليهم) ؛ لتكون متناسبة معقوله :"المغضوب عليهم" وقوله : " الضالين "؛ وإنما جاءت الآية على ما جاءت عليه لأن من شأن التعبير بالاسم الموصول أن يكون معهوداً نصب العين للسامع والقارىء ، وههنا دل التعبير عن المؤمنين بالاسم الموصول على علو شأنهم وتلألئهم في ظلمات البشر، كأنهم معهودون نصب العين لكل سامع(١) .
كما أسند الفعل الواقع في صلة الموصول ، وهو (أنعم) إلى ضمير رب العزة والجلال، ولذلك فائدة دقيقة هي : أن المتأمل في النظم القرآني العظيم يجد ان الله سبحانه وتعالى يفصح عن فاعل أفعال الرحمة والجود والإحسان، فيبنيها للمعلوم، ولا يبنيها للمجهول، بخلاف أفعال العقوبة والجزاء ، فيحذف فاعلها ، ويبني الفعل معها للمجهول(٢)، وفي الآية التي بين أيدينا أسند الفعل (أنعم) إلى ضمير المخاطب العائد إلى الله سبحانه وتعالى ، وعدل عنه في الغضب

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز لبديع الزمان سعيد النورسي :٢٤□ (٢)انظر: بدائع التفسير لابن القيم: ١/١١٩.

والضلال، ولهذه الآية نظائر كثيرة، تأمل قول الله سبحانه وتعالى على لسان إبراهيم-عليه لسلام-: (الذي خلقني فهو يهدين * والذي هو يطعمني ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذي يميتي ثم يحين *) [الشعراء٧٨- ٨١]، حيث أسند إبراهيم - عليه السلام - الخلق والهداية والإطعام والإسقاء وغفران الخطايا إلى الله تعالى، أما المرض فأسنده إلى نفسه، ولم ينسبه إلى الله تعالى، فقال :" مرضت "، ولم يقل: (أمرضني).

وتأمل قوله تعالى حكاية عن الجن : " وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (10) " [الجن ١٠]، حيث نسبوا إرادة الرشد إلى الله سبحانه وتعالى، وبنوا الفعل مع إرادة الشر إلى المجهول، فقالوا :) أشر أريد).

بل تأمل قوله تعالى : " فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة " [الأعراف: ٣٠] ، وقوله-عزوجل-: " فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة " [النحل:٣٦] ، فالهداية نسبها إلى المولى جل جلاله، والضلالة جعلها حاقة عليهم. ويمكن أن يكون سبب الاختلاف في السياق أنه

تعالى هو وحده المتفرد بالإنعام، كما قال :" وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون " [النحل:٥٣) ، وإن نسبت نعمة إلى غيره فهي نسبة مجازية؛ بكونه طريقاً ومجرى للنعمة، وأما الغضب على أعدائه فلا يختص به تعالى؛ بل ملائكته وأنبياؤه ورسله وأولياؤه يغضبون لغضبه(١) .

وتأمل التعبير الخلاب ب" أنعمت " حيث عبر عن هدايتهم بالإنعام؛ لأن للنعمة لذة تميل النفس إليها، وعبر بالفعل الماضي؛ لأن من شأن المنعم الكريم أن لا يستره ما ينعم به(٢)، فكأنه أراد أنهم ملكوا تلك النعمة، وحازوها، ولا سبيل إلى نزعها منهم. والله أعلم.

قوله تعالى : " ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم " [البقرة ٧] .

وفيها عدة وقفات :

الوقفة الأولى: الواوان اللتان تسبقان حرف الجر(على) يمكن أن تكون إحداهما عاطفة، والأخرى استئنافية، ففي قوله : " وعلى سمعهم " إذا جعلت الواو للعطف يكون السمع داخلاً في حكم الختم عليه، مشتركاً في ذلك مع القلوب، وتكون الواو حينئذ في قوله : "وعلى أبصارهم غشاوة " استئنافية، فتخصص الأبصار بالحكم عليها بالغشاوة .

وذكر أبو جعفر النحاس (٣) أن الأخفش سعيد بن

مسعدة أجاز الوقف على قوله: وقلوبهم، فتكون الواو الأولى في: "وعلى سمعهم" استئنافية، والواو الثانية في: "على أبصارهم" عاطفة، فيشترك السمع والأبصار في وقوع الغشاوة عليها.

(١) بدائع التفسير : ١/١٢٠ .
(٢) إشارات الإعجاز:٢٧.
(٣) ألقطع والائتناف :١١٦.

لكن الصحيح الأول، وهو الوقف على (سمعهم)؛ ليكون الختم على القلوب وعلى السمع، والغشاوة على الأبصار؛ لورود آية أخرى خصصت الأبصار بالغشاوة، وأوقعت الختم على السمع(١)، قال لله تعالى : " أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون " [الجاثية ٢٣] .
ثم إن القلوب والمسامع لما كانت مخفية كان استعمال الختم لها أولى، والأبصار لماً كانت بارزة، وإدراكها متعلق بظاهر، كان الغشاء لها أليق. والله أعلم.
الوقفة الثانية: نلحظ في الآية الكريمة إعادة حرف الجر، وهو " على " ، بعد واو العطف في قوله: (وعلى سمعهم) ، مع اشتراكهما في الحكم بالختم كما أسلفنا، فلم يقل: (ختم الله على قلوبهم وسمعهم) ؛ وفي ذلك نكتة بلاغية، هي الدلالة على تغاير الختمين، فالختم على القلوب

يكون بتغطيتها بحيث لا يؤثر فيها الإنذار، ولا ينفذ إليها الحق، وأماً الختم على السمع فيكون بسد مواضعه.
وقال أبوجعفر انحاس (٢) : (في تعليل إعادة الجار ثلاثة أجوبة، منها: إعادة الجار بمعنى المبالغة في الوعيد.
والجواب الثاني: أن السمع لماكان واحداً، والقلوب جماعة
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) البرهان في علوم القرأن للزركشى: ١٦٠/٢
(٢) القطع والائتناف: ١١٧ .

أعيدالحرف.
*والجواب الثالث: أن المعنى: (وختم على سمعهم)، فحذف الفعل، وقام الحرف مقامه) .
الوقفة الثالثة: في هذه الآية أفرد السمع، وجمعت القلوب والأبصار، ولم يرد السمع في القرآن الكريم مجموعاً ألا في قراءة ابن أبي عبلة (١) في هذه الآية التي بين أيدينا : (أسماعهم)، وقد ذكر هذه القراءة القرطبي(٢) الزمخشري(٣)وأبوحيان (٤)، وهي شاذة.
وقد ذكرعلماء اللغة والمفسرون توجيهات لإفراد السمع، منها (٥) :
* التوجيه الأول : أن أصل كلمة (السمع) قبل أن تسمى بها تلك الحاسة المعروفة مصدر للفعل (سمع) ، والمصادر والأجناس لا تثنى ولا تجمع ، ما لم تختلف أنواعها كالأكل والضرب والماء

والتراب، فأفردت كلمة (السمع) ههنا نظراً إلى أصلها ، كما تقول : يعجبني حديثكم وضربكم، ومثله قوله تعالى : " وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون" [الحجر ٦٨] ، فلم يقل: ضيوفي.
• التوجيه الثاني : إن السمع هنا مصدر مضاف إليه جمع
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) هو: إبراهيم بن أبي عبلة شمر بن يقظان بن المرتحل الشامي الدمشقي، توفي سنة١٥١هـ على الراجح. ترجمته في : غاية النهاية في طبقات القراء : ١/١٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١/١٩٠
(٣) الكشاف:١/١٦٤.
(4) البحرالمحيط: ١/٤٩٠
(٥) المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى لأبي النصر السمرقندي :١٣١-١٣٨

محذوف، والتقدير: وعلى مواضع سمعهم، أوحواس سمعهم.
التوجيه الثالث : أن إضافة السمع إلى ضمير الجمع تغني عن الجمع عند أمن اللبس، كقول المسيب بن زيد مناة الغنوي :
لا تنكري القتل وقد سبينا   في حلقكم عظم وقدشجينا(١)
معناه : في حلوقكم، وكقول علقمة الفحل :
بها جيف الحسرى فأما عظامها   فبيض وأما جلدها فصليب(2)

أي : جلودها
التوجيه الرابع -وهو توجيه متعلق بالمعنى- : ان مدركات السمع شيء واحد ، هو الصوت، والسمع لا يقبل من الأصوات مهما تعددت وتنوعت ألا صوتاً واحداً، أو يلفظها جميعاً إن تزاحمت عليه، ولم يستطع عزل بعضها عن بعض، أما البصر فمدركاته متنوعة، فهو طريق لكل المرئيات الساكنة والمتحركة، والجامدة والسائلة، والصامتة والناطقة، ويمكن أن يحيط بها البصر في لحظة واحدة، ويحتفظ لكل منها بصورة غير مختلطة بغيرها، فالرائي يرى بنظرة واحدة أعداداً كثيرة من الناس مختلفي الأشكال والألوان والملابس والهيئات، فالبصر إذن أبصار متعددة، ولأجل هذا جاء في القرآن الكريم مجموعاً.
التوجيه الخامس : أن السمع حاسة تحتاج إلى مؤثر، هو الصوت
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) شرح أبيات سيبويه لابن السيرافي : ٢١٢/١.
(٢) ديوان علقمة الفحل: ٤٠.

الذي يطرق الأذن، فلا يكفي وجود الجهاز السمعي لحدوث السمع، فإذا لم يكن صوت مسموع لم تعمل الأذن، فالسمع متوقف على المؤقر، بخلاف البصر الذي يعمل ما دام المبصر يقظاً فاتحاً عينه، فيرى صوراً كثيراً، ساكنة كانت أو متحركة، قصد أصحابها، أو لم يقصدوا.
الوقفة الرابعة : في هذه الآية الكريمة قدم الله

سبحانه وتعالى السمع على البصر، وفي كل آية اجتمعا قدم السمع ألا في قوله تعالى : " قل لله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً " [الكهف:٢٦] .
وسر تقديم السمع على البصر هو والله أعلم-كما قال أبوالسعود
-رحمه الله - : (لأن جنايتهم – من حيث السمع الذي به تتلقى الأحكام الشرعية، وبه يتحقق الإنذار - أعظم منها من حيث البصر الذي به تشاهد الأحوال الدالة على التوحيد، فبيانها أحق بالتقديم، وأنسب بالمقام ... ولأن السمع شرط النبوة، ولذلك ما بعث الله رسولاً أصم، ولأن السمع وسيلة إلى استكمال العقل بالمعارف التي تتلقف من أصحابها)(١).والله أعلم .
وقد استدل ابن قتيبة - رحمه الله - على أن السمع أفضل من البصر بقوله تعالى :" ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون * ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون *
____
(١) تفسيرأبي السعود: ١/ ٣٨.

[يونس :٤٢،٤٣]، فقال : (دل على فضل السمع على البصر حين جعل مع الصمم فقدان العقل، ولم يجعل مع العمى ألا فقدان النظر"(١) ,
ولكن رد ابن الأنباري على ابن قتيبة، فقال(٢): (

هذا غلط، وكيف يكون السمع أفضل، وبالبصر يكون الإقبال والإدبار، والقرب إلى النجاة، والبعد من الهلاك، وبه جمال الوجه، وبذهابه شينه؟
وفي الحديث ٠ (من أذهبت كريمتيه، فصبر ، واحتسب، لم أرض له ثوابا دون الجنة)(٣).
وأجاب ابن الأنباري عما ذكره ابن قتيبة : (بأن الذي نفاه الله تعالى مع السمع بمنزلة الذي نفاه عن البصر؛ إذ كأنه أراد إبصار القلوب، ولم يرد إبصارالعيون، والذي يبصره القلب هو الذي يعقله؛ لأنها نزلت في قوم من اليهود كانوا يستمعون كلام النبي صلى الله عليه وسلم، فيقفون على صحته، ثم يكذبونه، فأنزل الله فيه " أفأنت تسمع الصم "، أي: المعرضين، " ولو كانوا لا يعقلون * ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمي ولوكانوا لا يبصرون ."
قال : ولا حجة في تقديم السمع على البصر هنا؛ فقد أخر في قوله تعالى:" مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع"
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) تأويل مشكل القرآن: ٧.
(٢) ذقله عنه ابن القيم في (بدايع الفوائد: ١٦٤/٣),
(٣) رواه الإمام أحمد(في المسند: ٢٨٣/٣) عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - ، ونصه : (قال ربكم -عز وجل-: من أذهبت كريمتيه، ثم صبر، واحتسب، كان ثوابه الجنة) .

[هود: ٢٤](١).أما ابن القيم -رحمه الله – فقد نقل حججاً أخرى في تفضيل السمع على البصر، فقال : (واحتج مفضلو السمع بأن الله تعالى يقدمه حيث وقع، وبأن بالسمع تنال سعادة الدنيا والآخرة؛ فإن السعادة أجمعها في طاعة الرسل، والإيمان بما جاءوا به، وهذا إنما يدرك بالسمع، ولهذا في الحديث الذي رواه آحمد(٢) وغيره من حديث الأسود ابن سريع : (ثلاثة كلهم يدلي على الله بحجته يوم القيامة، فذكر منهم رجلاً أصم يقول : يا رب لقد جاء الإسلام وأنا لا أسمع شيئاً) .

واحتجوابأن العلوم الحاصلة من السمع أضعاف العلوم الحاصلة من البصر؛ فإن البصر لا يدرك ألا بعض الموجودات المشاهدة بالبصر القريبة، والسمع يدرك لموجودات والمعدومات، والحاضر والغائب، والقريب والبعيد، والواجب والممكن والممتنع، فلا نسبة لإدراك البصر إلى إدراكه.

واحتجوا بأن فقد السمع يوجب ثلم القلب واللسان ، ولهذا كان الأطرش خلقة لا ينطق في الغالب، وأما فقد البصر فربما كان معيناً على قوة إدراك البصيرة وشدة ذكائها ؛ فإن نور البصر ينعكس إلى البصيرة باطناً، فيقوى إدراكها، ويعظم، ولهذا تجد كثيراً من العميان أو أكثرهم عندهم من الذكاء الوقاد والفطنة وضياء الحس الباطن ما لا تكاد تجده عند البصير، ولا ريب أن سفر البصر في الجهات والأقطار ومباشرته للمبصرات على اختلافها يوجب تفرق القلب وتشتيته،

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) بدائع الفوائد:3/164- 165
(٢) سند: ٢٤/٤.

ولهذا كان الليل أجمع للقلب، والخلوة أعون على إصابة الفكرة، قالوا : فليس نفص فاقد السمع كنقص فاقد البصر، ولهذا كثير في العلماء والفضلاء وأئمة الإسلام من هو أعمى، ولم يعرف فيهم واحد أطرش (1) ،بل لا يعرف في الصحابة أطرش) (٢) .

قوله تعالى : " يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون ألا أنفسهم وما يشعرون " [البقرة :٩]
ثم قال : " ألا إنهم هم المفسدون ولكن لأ يشعرون " [البقرة 12] .
في الآية الأولى استعمل المولى - عزوجل“- النفي ب "ما"، فقال : "وما يشعرون "، وفي الآية الثانية استعمل النفي ب " لا"، فقال: "لا يشعرون" وهناك فرق بين النفي ب(ما) والنفي ب(لا) ؛ ف(ما) تنفي الحال(٣)، أي: تنفي الفعل الواقع في الزمن الحاضر، ونفي(لا) ممتد يشمل الحاضر والمستقبل(4) ؛ فاستعمال النفي ب"ما" في المخادعة وعدم الشعور بها من قبل أصحابها ؛ لأن المخادعة ليست عملاً مستمرا
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) قال الشيخ الموريتاني إبراهيم بن يوسف آل الشيخ سيدي الشنقيطي، في تعليقه على هذا

الكتاب: (بل فيهم من عرف بالأصم، كقالون عيسى بن مينا، أحد الرواة المشهورين، عن نافع المدني الإمام؛ فقد كان ملقباً بالأصم، وكان -لفرط ذكائه وشدة فطنته- يعرف اختلاف حركات القرآن بحركات شفتي القارىء .
وفيهم محمد بن يعقوب الأصم، أحد شيوخ الإمام الحافظ الكبير أبي عبدالله الحاكم، صاحب المستدرك، وجماعة يطول ذكرهم لقبوا بالأصم. ، والله أعلم) .
(٢) بدائع الفوائد ٧١/١، وانظر أيضاً: ١٦٥/٣ .
(٣) الكتاب: ٣٠٥/٢
(٤) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي: ٢٢٧/١-٢٢٨، أمالي ابن الشجري: ٥٣٤/٢

دون انقطاع، بل هي تحصل بين الفينة والفينة، ولا يمكن تصورها؛ لاحتمال أن يكتشف المؤمنون حقيقتها، فلا تكون مجدية ولا نافعة، فناسب التعبيرعن ذلك النفي ب " ما " التي لنفي الحال .
أما الإفساد فهو خصلة سوء ملازمة لأصحابها المنافقين، ولذلك تأمل تعبير الله عن هذه الخصلة فيهم إذ استعمل الجملة الاسمية المؤكدة بعدد من المؤكدات: "ألا" و" إنهم " و" هم " ، و "المفسدون"، ولكنهم فقدوا كل إحساس أو شعور بحالهم المفسدة، فصار اليأس من استيقاظهم أمراً محتماً، فناسب التعبير عن ذلك النفي ب(لا).

وتأمل مرة أخرى قوله تعالى : "وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون " ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون *)" [البقرة: ١٢،١١]، (فهذه مناظرة جرت بين المؤمنين والمنافقين، فقال لهم المؤمنون : "لا تفسدوا في الأرض" ، فأجابهم المنافقون بقولهم : "إنما نحن مصلحون "، فكأن المناظرة انقطعت بين الفريقين، ومنع المنافقون ما ادعى عليهم أهل الإيمان من كونهم مفسدين، وإن ما نسبوهم إليه إنما هو صلاح لا فساد .

فحكم العزيز الحكيم بين الفريقين بأن أسجل على المنافقين أربع إسجالات:

أحدها: تكذيبهم .

والثاني : الإخبار بأنهم مفسدون.

والثالث: حصر الفساد فيهم بقوله: " هم المفسدون " .

والرابع: وصفهم بغاية الجهل، وهو أنه لا شعور لهم البتة بكونهم مفسدين.

وتأمل كيف نفى الشعورعنهم في هذا الموضع، ثم نفى عنهم العلم في قولهم : "أنؤمن كما آمن السفهاء " [البقرة: ١٣]، فقال لهم : "ألا إنهم هم السفهاء ولكن لأ يعلمون "، فنفى علمهم بسفههم، وشعورهم بفسادهم، وهذا أبلغ ما يكون من الذم والتجهيل، أن يكون الرجل مفسداً، ولا شعور له بفساده البتة، مع أن أثر فساده مشهور في الخارج، مرئي لعباد الله، وهو لا يشعر به، وهذا يدل على

استحكام الفساد في مداركه وطرق علمه، وكذلك كونه سفيهاً، والسفه غاية الجهل، وهومركب من عدم العلم بما يصلح معاشه ومعاده، وإرادته بخلافه ، فإذا كان بهذه المنزلة، وهو لا يعلم بحاله، كان من أشقى النوع الإنساني، فنفي العلم عنه بالسفه الذي هو متضمن لإثبات جهله، ونفي الشعور عنه بالفساد الواقع منه متضمن لفساد آلات إدراكه، فتضمنت الآيتان الإسجال عليهم بالجهل، وفساد آلات الإدراك ، بحيث يعتقدون الفساد صلاحاً ، والشر خيرا(١).

قوله تعالى :" وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون " [البقرة : ١٤] .
إن النظم القرآني الفريد كان في غاية الإبداع وهو يزاوج بين الجمل

(١) بدائع الفوائد لابن القيم: ٤/١٣٠-١٣١.

الاسمية والجمل الفعلية، ويكون التعبير بإحداهما في سياق لا تنفع فيه الأخرى، فالاسم يدل على الحدث أوالحقيقة غير مقرون بزمان، أما الفعل فيدل على الحدث أو الحقيقة مقروناً بزمان، وكل ما كان زمانياً هو متغير ، والتغيريشعر يالتجدد والحدوث، ولذلك كانت الجمله الفعلية تدل على التجدد والحدوث ، أما الجملة الإسمية فتدل على الثبوت والدوام.

والمتأمل لخطابي المنافقين في هذه الآية يجد أنهم نوعوا خطابهم، فخاطبوا المؤمنين بقولهم : (آمنا)، وهي جملة فعلية تدل على التجدد والحدوث؛ وسبب ذلك - والله أعلم-أنهم يعلمون أن المؤمنين المخاطبين بهذ الخطاب ينكرون دعواهم التزام الإيمان، ولا يقرون زعمهم الانخراط في زمرة المؤمنين؛ لما عرفوه عنهم من النفاق ومخالفة أوامر الله ورسولهصلى الله عليه وسلم، ونواهيهما ، ولذلك أرادو بخطابهم هذا وباستعمالهم الجملة الفعلية، أرادو الدلالة على حدوث الإيمان في قلوبهم، والإيماء إلى تجدده فيها، والإشعار بتحولهم عما كان المؤمنون يعرفونه فيهم من الكفر والنفاق .

وأما حين خاطبوا إخوانهم الكفار واليهود فقد خاطبوهم بقولهم : (إنا معكم) ، وهي جملة اسمية تدل على الثبوت والدوام على كفرهم؛ للدلالة والتأكيد على أن إظهارهم الإيمان أمام المؤمنين إنما كان للتعمية والخداع، وليس إيماناً حقيقياً، ولذلك أكدوا خطابهم لهم ب(إن) وبالجملة الاسمية، فالتعبير بالجملة الاسمية نوع من أنواع التأكيد .

وإذا تأملنا الآية مرة أخرى نجد أن خطابهم للمؤمنين ورد غير مؤكد بمؤكدات، مع أن المؤمنين يشكون في إيمانهم، ونجد أن خطابهم لإخوانهم الكافرين مؤكد بمؤكدين، هما : الجملة الاسمية و(إن)، مع أن ظاهر الحال يدل على أن إخوانهم الكفار لا يشكون في يقائهم على دينهم، وكان

مقتضى الحال يقتضي بأن يعكسوا في كلامهم، فيؤكدوا خطابهم للمؤمنين، ولا يؤكدوا خطابهم لقومهم ، فما السر فيما جرى عليه الكلام في الآية؟ .

الجواب عن ذلك(١): أنه جرى (على خلاف مقتضى الظاهر لمراعاة ما هو أجدر بعناية البليغ من مقتضى الظاهر ؛ فخلو خطابهم مع المؤمنين عما يفيد تأكيد الخبر؛ لأنهم لا يريدون أن يعرضوا أنفسهم في معرض من يتطرق ساحته الشك في صذقه؛ لأنهم إذا فعلوا ذلك فقد أيقظوهم إلى الشك، وذلك من إتقان نفاقهم، على أنه قد يكون المؤمنون أخلياء الذهن من الشك في المنافقين؛ لعدم تعينهم عندهم، فيكون تجريد الخبر من المؤكدات مقنضى الظاهر .

وأما قولهم لقومهم : "إناً معكم" بالتأكيد فذلك لأنه لما بدا من إبداعهم في النفاق عند لقاء المسلمين ما يوجب شك كبرائهم في البقاء على الكفر، وتطرق يه التهمة أبواب قلوبهم احتاجو إلى تأكيد ما يدل على أنهم باقون على دينهم) ٠ كذا قال ابن عاشور في تفسيره(٢) ، والله أعلم.

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) انظر: بدائع الفوائد: ٢٧٠/١

(٢) تفسير التحرير والتتوير : ٢٩١/١

قوله تعالى : (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمي فهم لا

يرجعون *) [البقرة :١٧ ١٨].
في هاتين الآيتين عدة وقفات:
الوقفة الأولى: قال ابن كيسان: (استوقد) بمعنى (أوقد)، وقد يجوز أن يكون استوقدها من غيره، أي: طلبها من غيره (١).
والصحيح أن الهمزة والسين والتاء في قوله: (استوقد) تدل على الطلب، وهي ههنا توحي وتشعر بما تكبده موقد النار من مشقة ونصب في سبيل إشعالها، وتنبئ عن تعاظم تلهفه على ذلك؛ لتنير النار له غياهب الظلمة المدلهمة، وتقشع من طريقه الحيرة والوحشة، فحين يفقدها الموقد يفقد عزيزاً، وفقد المتعوب عليه أشد وأقسى على القلب من فقد ما نيل بيسر وسهولة، ودون نصب ولا كبد، ألا ترى إلى قوله تعالى " أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون * لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون * [الواقعة: ٦٣- ٦٥ [، فقال:) لجعلناه)مؤكداً باللام مع الزرع؛ لأن فقده فقد متعوب عليه، ثم قال : (أفرأيتم الماء الذي تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون *) [الواقعة:٦٨ -٧٠ [، فقال مع الماء:" جعلناه غير مؤكد؛ لأن فقده ققد غير متعوب عليه.

---

(١) معاني القرآن للنحاس : ١٠١/١

وحين يقرأ قارئ هاتين الآيتين - أعني آيتي سورة

البقرة - بتدبر وتمعن يتصور مدى ظلمة الليل البهيم، الذي يبدو كما قال تأبط شراً :

وليـــل بهيم كلمـــا قلت غورت كواكبـــه عادت فمـــا تتزيل

به الركب إما أومض البرق يمموا وإن لم يلح فالقوم بالسيرجهل(١)

وترتسم في مخيلته صورة مستوقد النار، وهو يلهث بغية جمع الحطب، وهو بلا شك حاطب ليل لايفرق بين رطب ويابس، وجاءت محصلته بعد جهد جهيد حطباً رطباً، بطيء الإشتعال، كثير الدخان، لا ينفك باغي النار من مثله ينفخ في ناره، كنافخ الكير يشرق بدخانه، وحيث كان مضطراً إليها، غير مستغن عنها، لم يمل، ولم يكل، حتى شب أوارها، وملأ ضوءها الآفاق، ولكن فجأة ذهب النور ، فيا لخيبة التعب ، فهوكصاحب الجنة المحترقة : " وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً " [الكهف: ٤٢]، وهكذا كانت لفظة (استوقد)أبلغ في هذا الموضع من (أوقد) بما دلت عليه الهمزة والسين والتاء من طلب ومشقة ٠

الوقفة الثانية: في قوله : (لفما أضاءت ما حوله) عبر عن مكان الإضاءة بقوله : (ما حوله) حيث كان الضوء لما حوله مجاوراً له، وليس منبعثاً منه، ولا مضيئاً له، (ولو اتصل ضوءها به، ولابسه، لم يذهب، ولكنه كان ضوء مجاورة، لا ملابسة ومخالطة، وكان الضوء عارضاً، والظلمة أصلية،

فرجع الضوء إلى معدنه، وبقيت الظلمة في
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) ديوانه : ٩٠، كتاب الجمان في تشبيهات القرآن
:٤٣.

معدنها، فرجع كل منهما إلى أصله اللائق به حجة من الله قائمة، وحكمة بالغة تعرف بها إلى أولي الألباب من عباده) (١).

الوقفة الثالثة: قوله : (ذهب الله بنورهم) فيه نكتتان بليغتان :

* إحداهما : أنه تعالى عبر عن انقطاع النور عنهم بذهاب الله به، ولم يقل : (انقطع نورهم)، ولا : (أخذ الله نورهم)، ولا: (أذهب الله نورهم) ، ولم يسند الذهاب إلى النور نفسه، فلم يقل : (ذهب نورهم) ، بل عبر عن ذلك بما يتضمن انقطاع النور وذهابه يعد ذهاب مسببه يه، وهو المولى - عز وجل- ، فانقطعت عنهم معية الله تعالى، فذهاب الله بذلك النور هو انقطاع المعية التي خص بها أولياءه، فقطعها بينه وبين المنافقين، فلم يبق - أي الله - عندهم بعد ذهاب نورهم، ولا معهم، فليس لهم نصيب من قوله : (لا تحزن إن الله معنا) [التوبة : 40]، ولا من: (قال كلا إن معي ربي سيهدين) [الشعراء: ٦٢])(٢).

وقال ابن القيم-عليه رحمة لله-: (ولم يقل : (أذهب الله نورهم)؛ لأن كل من ذهب بشيء فقد أذهبه، وليس كل من أذهب شيئاً ذهب به؛ لأن الذهاب بالشيء هو استصحاب له ومضي به، وفي

ذلك نوع احتياز للمذهوب به، وإمساك له عن الرجوع إلى حالته، والعود إلى مكانه، وليس كذلك الإذهاب للشيء ؛ لزوال معنى الاحتياز، وهذا كلام دقيق يحتاج إلى زيادة تأمل، وإنعام نظر، فافهمه" **(2) .**

---

(١) التفسير القيم لابن القيم : ١١٦.
(٢) المصدر السابق :١١٥.
(٣)بدايع التفسير: ١/٢٧١

*والنكتة الأخرى : أن الله تعالى قال: (بنورهم ولم يقل: (بنارهم) ، فيكون ذلك اتساقاً مع أول الآية (استوقد ناراً)، ولا : (بضوئهم) توافقاً مع قوله : " فلما أضاءت"؛ وسبب ذلك - والله أعلم - أن النار تشتمل على ثلاثة أشياء، هي: الضوء، والنور، والحرارة، فالضوء زيادة في النور، فذهابه لايعني ذهاب أصله، وهوالنور، لأن النور إشراق وضياء ، لكن الذهاب بالنور ذهاب بالضياء ؛ (لأن الضوء هو زيادة في النور، فلو قال : (ذهب الله بضوئهم) لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل، فلما كان النور أصلا لضوء كان الذهاب به ذهاباً بالشيء وزيادته، وأيضاً فإنه أبلغني النفي عنهم، وأنهم من أهل الظلمات الذين لا نور لهم، وأيضاً فإن الله تعالى سمي كتابه نوراً(١) ، ورسوله نوراً (٢) ، ودينه نوراً(٣)، ومن أسمائه النور(٤)، والصلاة نور"، فذهابه - سبحانه -بنورهم ذهاب بهذا كله"(6)

والحرارة والإحراق والأذى مماً تشتمل عليه النار ، وبقاؤها مراد

(١) قال تعالى : " فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا .) [التغابن : ٨] .

(٢) قال تعالى : " قد جاء كم من الله نور وكتاب مبين [المائدة: ١٥] .

(٣) قال تعالى : " يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم.. " [الصف: ٨] .

(٤) قال تعالى : " الله نور السموات والأرض .. ه

[النور :٣٣٥]
(٥) روى مسلم في صحيحه (٢٠٣/١) عن أبي مالك الأشقري رضي الله عنه، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الطهور شطرالإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو؛ فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها).
(6) التفسيرالقيم:١١٦.

هنا؛ لأن من أوجه الشبه بين المنافقين ومستوقدي النار ذهاب ما ينفعهم من البهاء والإشراق، وبقاء ما يضرهم من الاصطلاء بحرارتها وإحراقها، ولذلك لم يقل : (بنارهم) ؛ لأن الله تعالى شبه (أعداءه المنافقين بقوم أوقدوا ناراً لتضيء لهم، وينتفعوا بها، فلما أضاءت لهم النار، فأبصروا في ضوئها ما ينفعهم وما يضرهم، وأبصروا الطريق بعد أن كانوا حيارى تائهين، فهم كقوم سفر ضلوا عن الطريق، فأوقدوا النار، تضيء لهم الطريق، فلما أضاءت لهم، فأبصروا وعرفوا طفئت عنهم تلك الأنوار، وبقوا في الظلمات لا يبصرون)(١)، فالمنافقون اكتسبوا نوراً ظاهرياً بما عرفوا من الحق؛ بمخالطتهم المؤمنين، وصلاتهم معهم، وصيامهم معهم، وسماعهم القرآن، لكن ذاك النور ذهب بعد أن تلطخت قلوبهم بوحل النفاق ودنسه، فبقيت في قلوبهم حرارة الكفر والنفاق والشكوك والشبهات،

تحرقها، وتغلي كالمرجل فيها، وكذلك ستكون حالهم في الآخرة حيث يرزقون نوراً ظاهرياً، فإذا وقفوا على الصراط، وكانوا أحوج ما يكونون إليه، أطفئت أنوارهم، وبقوا في الظلمة على الجسر حتى تخطفهم كلاليب النار.
وهناك وجه شبه آخر بين المنافق ومستوقد النار ، هو أن المستوقد حين أوقدها كان في ليلة مظلمة، بمفازة موحشة، فاستضاء بها ما حوله ، واتقى ما يخاف، وأمن، فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره ، فبقي مظلماً خائفاً متحيراً ، وكذك المنافق إذا أظهركلمة الإيمان استاربها،
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) التفسير القيم:١١٤-١١٥.

واعتز بعزها، وأمن على نفسه وماله وولده، فإذا مات عاد إلى الخوف، وبقي في العذاب والنقمة(١)
.
الوقفة الرابعة : قوله : "وتركهم في ظلمات" جمع المولى عز وجل (الظلمة) في مقابل إفراد (النور) ؛ لأن الحق واحد، (وهوصراط الله المستقيم الذي لا صراط يوصل إليه سواه، وهو عبادة الله وحده لا شريك له بما شرعه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، لا بالأهواء والبدع وطرق الخارجين عما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم من الهدى ودين الحق، بخلاف طرق الباطل فإنها متعددة متشعبة . . ...) (٢) .

قوله تعالى : " فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين " [البقرة: ٢٤]٠

وقوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا قوا ألفسكم وأهليكم نارا وفودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون" [التحريم: ٦] .

تأملوا - رحمني الله وإياكم - الآيتين تجدوا أن النار في الآية الأولى وردت معرفة، وفي الثانية جاءت منكرة، ولتعريفها في الأولى، وتنكيرها في الثانية، مقصد عظيم؛ فالخطاب في الآية الأولى للكفار

(١) بدائع التفسير :١/٢٧٠-٢٧١.

(2) التفسير القيم: ١١٦,١١٧٠

والمنافقين، وهم خالدون مخلدون فيها، محيطة بهم من كل جانب، بل إن المنافقين في الدرك الأسفل منها، فتعريف النار فيها للدلالة على الاستغراق.

أما الآية الثانية فالخطاب فيها للمؤمنين العصاة، فتعذيبهم يكون في جزء يسير من أعلاها ، فتنكيرها لتقليلها .

قوله تعالى : " وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقرباً هذه الشجرة فتكونا من الظالمين " [البقرة: ٣٥].

إن المتأمل لكتاب الله تعالى يجد أن كلمة (الزوج) مراداً بها (الزوجة) لم ترد ألا في حق المؤمنين، أي: حين يكون الزوجان مؤمنين، أماً إذا كان أحدهما غير مؤمن فتستعمل لفظة (امرأة) ، كامرأة فرعون، وامرأة نوح، وامرأة لوط، وامرأة أبي لهب.
وللعلماء في ذلك تعليلات:
منها ما قاله أبو القاسم السهيلي من أن ذلك التعبير هو بسبب كونهن لسن أزواجاً لهم في الآخرة، وإنما زواجهم في الدنيا فقط، ولذلك تاسب عدم ذكر الزوجية، وأبدل عنه بما يدل على الأنوثة فقط دون لفظ المشاكلة والمشابهة، وهو لفظ (امرأة) .
ومنها أيضاً قول السهيلي(٢): (ولأن التزويج حلية شرعية، وهو من أمر الدين، فجردها أي امرأة أبي لهب - من هذه الصفة كما جرد
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) الروض الأنف :١١٣/٢٠
(٢)المصدر السابق.

امرأة نوح وامرأة لوط، فلم يقل: (زوج نوح)).
وأقوى منه تعليل الإمام ابن القيم - رحمه الله - بأن هذا اللفظ - وهو الزوج - مشعر يالمشاكلة والمجانسة والاقتران، وهدا غير متأت لغير المؤمنين، حيث قطع الله سبحانه وتعالى المشابهة والمشاكلة بين الكفار والمؤمنين، قال تعالى : "لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة " [الحشر :

20] . . وقطع سبحانه المقارنة بينهما في
أحكام الدنيا، فلا يتوارثان، ولا يتناكحان، ولايتولى
أحدهما صاحبه، فكما انقطعت الصلة بينهما في
المعنى انقطعت في الاسم، ولذلك ورد في آية
المواريث لفظ (الزوج) دون (المرأة) إيذاناً بأن
هذا التوارث إنما وقع بالزوجية المقتضية للتشاكل
والتناسب، والمؤمن والكافر لا تشاكل بينهما، ولا
تناسب ، فلايقع بينهما التوارث (١).
ويرى السهيلي أن هذه القاعدة لم تنتقض ألا في
قول زكرياً -عليه السلام-:" وكانت امرأتي عاقرا "
[مريم: ٨]، وقوله تعالى عن زوج إبراهيم-عليه
لسلام- : " فأقبلت امرأته في صرة " [الذاريات:
٢٩]، وقدعلل السهيلي ذلك بقوله: (إلا أن يكون
مساق لكلام في ذكر الولادة والحمل ونحو ذلك،
فيكون حينئذ لفظ (المرأة) لائقاً بذلك الموطن ،
كقوله تعالى: (وكانت امرأتي عاقرا) [مريم: ٨]،
(فأقبلت امرأته في صرة) [الذاريات؛ ٢٩]؛ لأن
الصفة التي هي الأنوثة هي المقتضية للحمل
والوضع، لا من حيث كانت زوجاً)(٢) .

---

(١) اتفلسير القيم:١٣٢-١٣٣.
(٢) الروض الأنف:١١٣/٢.

وأرى أن هذا التعليل ضعيف؛ لأن الحمل والوضع
من مقتضيات الزوجية، فعلى هذا التعليل استعماا
لفظ (الزوجة) أولى، لكن بعد أن تأملت أنه لم يرد
هذا اللفظ في حق المؤمنين ألا مع امرأتين ما

تلدان؛ لكون إحداهما عاقراً، والأخرى كبيرة آيسة،
أري- والله أعلم- أن السبب في استعمال لفظ
(المرأة) من قبل الزوجين في هاتين الآيتين هو
انتفاء مستلزمات الزوجية بكبر السن وانقطاع
الولادة .
ولا يعترض على هذا بقول الله تعالى : " إذ قالت
امرأت عمران رب إني نذرت لك ما في بطني
محررا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم " [آل
عمران : ٣٥] ؛ بكون عمران وزوجه مؤمنين ،
وبكون زوجه حاملا؛ إذ سبب استعمال " امرأت "
ههنا أنه أيضاً كانت عاقراً لا تلد، كما قال عكرمة ،
فقد أمسك الله عنها الولد حتى أسنت وشاخت،
كما أن عمران - عليه السلام - كان قد مات قبل
تبين حمل زوجه وقبل ولادتها، بدليل قول امرأته :
" وإني سميتها مريم " [آل عمران :٣٣٦]؛
إذليس من العادة أن تسمي المرأة مولودها، وهناك
دليل آخر على موته قبلاً، وهو قوله تعالى: "
وكفلها زكريا " [آل عمران: ٣٧]، ولا يكفل ألا
اليتيم(١)
فائدة:
هل يقال: زوج، وزوجة؟
نقل ابن جني(2) عن أبي حاتم السجستاني(٣)
قوله :
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) تفسير الطبري :٢٣٥/٣، تفسير الرازي : ٨ / ٢٢
□ ٢٤ .
(٢) ورواها المرزياني من طريق آخر في: الموشح:

٢٨٤,٢٨٣.
(٣) الخصائص: ٣/٢٩٥.

(كان الأصمعي ينكر(زوجة)، ويقول: إنما هي (زوج)، ويحتج بقول لله تعالى: "أمسك عليك زوجك"الأحزاب: ٣٣٧ قال: فأنشدته قول ذي الرمة(١) :
أذو زوجة في المصر أم ذو خصومة   أراك لها بالبصرة العام ثاويا
فقال : ذو الرمة طالما أكل المالح والبقل في حوانيت البقالين!!!.
قال : وقد قرأنا عليه من قبل لأفصح الناس، فلم ينكره :
فبكي بناتي شجوهن وزوجتي   والطامعون إلي ثم تصدعوا(٢)
وقال آخر:
من منزلي قد أخرجتني زوجتي
تهر في وجهي هرير الكلبة)(٣)
والصحيح جوازه، قال الفراء(٤): (وأهل الحجاز يقولون للمرأة : (زوج)، وسائر العرب يقولون: (زوجة)).
قال الفرزدق:
تقول وقد ضمت بعشرين حوله   ألا ليت أني زوجة لابن غالب(٥)
وقال :
ولتكفينك ففد زوجتك التي   هلكت موقعة الظهور قصار(٢)

(١) ديوانه: ١٣١١/٢
(٢) ديوان عبده بن الطبيب : ٥٠ .
(٣) المخصص ٢٤/١٧.
(٤) المذكر والمؤنث:١٠٨,
(٥) ديوانه:63
(٦) ديوانه: ٣٢.

وقال:
فإن امرأً يسعى يخبب زوجتي   كساع إلى أسد الشرى يستبيلها(١)
وقال :
آدم قد أخرجته وهوساكن   وزوجته من خيردارمقام(٢)
وقال الأخطل:
زوجة أشمط مرهوب بوادره   قد كان في رأسه التخويص والئزع(٣)
وقال أيضاً:
على زوجها الماضي تنوح وإنني   على زوجتي الأخرى كذاك أنوح(٤)
و قالت حميدة بنت النعمان بن بشير ا لأنصار ي .
ترى زوجة الشيخ مغمومة   وتمسي لصحبته قاليه(٥)
وقال الشماخ بن ضرار الذبياني :
قد أصبحت زوجة شماخ بشر(٦)
وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

جدي وجد رسول الله متحد   وفاطم زوجتي لا قول ذي فند(٧)

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) ديوانه :٤١٧.

(٢) ديوانه: ٥٤١.

(٣) شعره: ١/٣٦٠.

(٤) البيت معزو إليه في: أدب الكاتب ١/٣٢٧، والأغاني :٨/٣٠٩، وليس في ديوانه.

(٥) الاقتضاب في شرح أدب لكتاب: ١١٧ .

(٦) يوانه: ٤٣٧ .

(٧) ديوانه: ٦٠

قوله تعالى : " وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم يلاء من ربكم عظيم " [البقرة:٤٩]٠

وقوله تعالى : " وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم " [إبراهيم : ٦] .

ففي الآية الأولى قال: " يذبحون أبناءكم " وفي الثانية قال: " ويذبحون أبناءكم " بالعطف بالواو، وفائدة الواو أن القول في الآية الثانية لموسى عليه الصلاة والسلام، وهو في مقام تعداد أنواع امتحانات بني إسرائيل، وتذكيرهم بنعم الله عليهم، ودعوتهم لشكرها ، فذكر منها أن آل فرعون

ساموهم سوء العذاب بتكليفهم إياهم بالأعمال الشاقة، حيث جعلوا منهم عمالاً ينحتون السواري من الجبال حتى قرحت أعناقهم وأيديهم وظهورهم من قطع الحجارة ونقلها وبنائها، فنجاهم الله تعالى من هذا العذاب السيء ، ومن تذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم، ولذلك أتى بالعاطف؛ ليؤذن بأن إسامتهم العذاب مغاير لتذبيح الأبناء وسبي النساء، وهو ما كانو عليه من التسخير(١).

(١) البرهان في علوم القرآن : ١٢٠/١

أما في آية سورة البقرة فالخطاب من الله سبحانه وتعالى، فأبدل " ويذبحون أبتاءكم " من قوله : " يسومونكم سوء العذاب " فوقع تفسيراً و توضيحاً له (١).

قوله تعالى : " وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين * فبدل الذين ظلموا فولأ غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون [البقرة : ٥٨،٥٩]
وقوله تعالى : " وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين * فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم

فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون *
] 162 161 : الأعراف ["
الموازنة بين آيتي سورة البقرة وآيتي سورة الأعراف تبرز النظرات التالية(٢):
١ - عطف " كلوا " بالفاء في سورة البقرة، وبالواو في سورة الأعراف؛ لأنه تعالى أمرهم في سورة (البقرة) بالدخول، وهو سريع

(١) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في المتشابه اللفظ من آي التنزيل: ١/١٩٧- ٢٠٢، كشف المعاني في المتشابه من المثاني :٩٥-٩٦.
(٢) ملاك التأويل: ١/٢٠٣، كشف المعاني:٩٦,٩٨ فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن للأنصاري": ١٢,١٣٠

الانقضاء، فقال : " وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية "، ثم إنه لا يحسن الأكل مع الدخول، ولا قبله، بل لا يكون ألا بعده؛ لسرعة انقضاء ادخول، ولذلك ناسبه استعمال حرف العطف (الفاء) ؛ لدلالتها على التعقيب من غير مهلة.
أما في سورة الأعراف فأمرهم بالسكنى - وهي الاستقرار، وهي ممتدة، فقال : " وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية " ، مما يمكن أن يكون معها الأكل، ولذلك استعمل (الواو) ، فكأن الأمر في سورة (البقرة) مراد به الإسراع بالدخول والأكل والسجود والقول والعودة مرة أخرى، أما في سورة (الأعراف) فالمراد الاستقرار والتمتع بالأكل ٠

٢ - الإتيان بقوله : " رغداً " في سورة (البقرة) ، وحذفها في سورة (الأعراف) له مقصد بليغ ؛ فإنه - والله أعلم لما أسند القول إليه تعالى، فقال : " وإذ قلنا " ، كان من المناسب أن يذكر معه ما يدل على إفاضة النعم، وما يدل على كرم الكريم، فقال : " رغداً ".

أما في سورة الأعراف فإنه لما بنى الفعل للمجهول، فقال : " وإذ قيل "، لم يذكر معه ما ذكر من الإكرام الوافر؛ لأنه لم يسند إلى الله تعالى.

وجعل ابن الزبير الغرناطي سبب عدم ذكر " رغدا " في سورة الأعراف أن في فحوى الآية ما يدل على معنى الرغد، فلم تكن هناك حاجة للنص عليه، قال : (إن مفهوم السكنى وهو الملازمة والإقامة مع الأمر بالأكل حيث شاؤوا، مع انضمام معنى الامتنان والإنعام المقصود في الآية، كل ذلك مشعر ومعرف بتمادي الأكل، وقوة السياق مانعة من التحجير والاقتصار، فحصل معنى الرغد، فوقع الاكتفاء بهذا المفهوم الحاصل قطعاً من سياق آية الأعراف) (١).

٣ - قال في سورة البقرة : " وسنزيد المحسنين " عاطفاً بالواو؛ ليكون اتصاله بما قبله أقوى؛ بسبب إسناده القول إلى الله تعالى في أولها: "وإذ قلنا". أما في سورة الأعراف فلما لم يكن القول مسنداً إلى الله تعالى ناسب حذف الواو ؛ ليكون الكلام استئنافاً,

٤ - قال الله تعالى في سورة (البقرة) : "فبدل الذين ظلموا" ، وزاد في سورة (الأعراف): " منهم

" وهي مرادة في سورة البقرة؛ لأن الذين ظلموا هم من المخاطبين الأمر: " ادخلوا هذه القرية "، وهم الذين بدلوا، وغيروا في القول.
أما ذكرها فى سورة (الأعراف) فلأن أول قصة أصحاب موسى- عليه الصلاة والسلام - في السورة نفسها مبني على التخصيص ؛ إذ قال، " ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون " [االعراف :١٥٩]، فذكر أن منهم من يفعل ذلك، ثم عدد صنوف إنعامه عليهم، وأوامره لهم، فلما انتهت قال : " فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل

(١) ملاك التأويل :١/٢٠٤-٢٠٥.

لهم " فأتى في آخر ما حكى عنهم من مقابلة نعمة الله عليهم بتبديلهم ما قدم به القول إليهم بلفظ (من) التي هي للتخصيص والتمييز، بناء على أول القصة ؛ ليكون آخرها متوافقاً مع أولها.
٥-في سورة (البقرة) قال: " نغفر لكم خطاياكم " وفي سورة (الأعراف) قال: " نغفر لكم خطيئاتكم " ومن المعروف أن (خطايا) جمع تكسير يدل على الكثرة، وأن (خطيئات) مما جمع يالألف والتاء ، والجمع بالألف والتاء إذا لم تدخل عليه (أل) يدل على القلة.
وتعليل هذا الاختلاف هو ما قلناه آنفاً: إنه لماً كان إسناد القول في سورة (البقرة) إلى الله تعالى ناسب تكثير النعم والفضائل، فأتى بما يدل على

الكثير من الجم، ف(فعالى) من أوزان جمع الكثرة، وذلك ليدل على كرمه وجوده وعظيم امتنانه - سبحانه وتعالى-، فكأنه قال : نغفر لكم خطاياكم كلها جمعاء ، وعكسه في سورة الأعراف .

قوله تعالى : " وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين [البقرة: ٦٠] .
وقوله تعالى : " وأوحيناً إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرةعينا قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون * " [الأعراف: ١٦٠] .
ففي الآية الأولى قال: " فانفجرت "، وفي الثانية قال : " فانبجست " (١)، والانفجار أبلغ؛ لأنه يعني انصباب الماء بكثرة، أما الانبجاس فهو ظهور الماء ولو كان قليلاً، وهو يسبق الانفجار؛ لأنه أوله، وقد أتى بالانفجار في سورة البقرة؛ لأنه استجابة لاستسقاء موسى عليه السلام " وإذ استسقى موسى لقومه "، ولذلك أمرهم في آية سورة البقرة بالأكل والشرب، وأتى بالانبجاس في سورة الأعراف؛ لأنه استجابة لطلب بني إسرائيل استسقاء موسى - عليه السلام - لهم :"وأوحينا

إلى موسى إذ استسقاه قومه " ، ولذلك أمرهم بالأكل فقط والله أعلم.

قوله تعالى : " ثم قست قلوبكم من يعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون * [البقرة: ٧٤].
أتى بالتفضيل من القسوة بوساطة " أشد " مع أن الفعل : (قسا) مما يؤتى ب(أفعل) التفضيل منه مباشرة، فيقال: (أقسى)، والسبب في ذلك – والله أعلم أن الإتيان ب " أشد " أبين، وأدل على فرط القسوة، ولأنه لا يريد معنى (الأقسى)، ولكن قصد وصف القسوة بالشدة، كأنه قيل: اشتدت قسوة الحجارة، وقلوبهم أشد قسوة، كذا قال الزمخشري في (الكشاف)، وقال ابن المنير(٢): (إن سياق هذه

(١) ملاك التأويل : ٢١٣,٢١٢/١ ، كشف المعاني : ٩٩,٩٨ ، فتح الرحمن: ١٤ .
(٢)حاشيته على الكشاف: ٢٩٠/١.

الأقاصيص قصد فيه الإسهاب لزيادة التقريع.. .
ولاشك في أن قوله: " أو أشد قسوة " أدخل في الإسهاب من قول القائل : أو أقسى" .
فإن قيل : علام رفعت كلمة " أشد "، وقد وقعت يعد (أو) العاطفة؟

فأقول : إن رفعها إما بكونها معطوفة على الكاف
من قوله :
" كالحجارة "، فالكاف اسم بمعنى (مثل) واقع
خبراً، وإما أن تكون فو أشد^معطوفة على محلا
لجار والمجرور: (كالحجارة) إذاجعلنا
الكافحرفجر، والرأي الثالث - وهولأصح - أن تكون
" أشد " خبراًلمبتدأ محذوف، تقديره : أوهي أشد
. **(1)**

قوله تعالى : " فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم
ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلاً
فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مماً يكسبون
"]البقرة : ٧٩ [.
إن المتأمل لهذه الآية يرى قوله: "بأيديهم" كأنها
زيادة يغني عنها ما قبلها؛ إذ معلوم سلفاً أن الكتابة
لاتكون ألا باليد، فما فائدتها في الآية؟
إن النص على أن أولئك المحرفين لكلام الله تعالى
كتبوه بأيديهم فيه زيادة في التشنيع عليهم، وفي
تقريعهم وتقبيح أفعالهم؛ لأنهم قد
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١)البحرالمحيط: ١/٤٢٤-٤٢٥.

باشروا هذا الصنيع السخيف بأيديهم، إذ يمكن أن
يقال . كتب زيد كتاباً، إذا أمر بكتابته، وإن لم
يباشره، فإذا كان مهتماً به باشر كتابته بيده(١) ,
وإني أرى أن لقوله: " يكتبون الكتاب بأيديهم
فائدة أخرى، هي المبالغة في إخفاء حقيقة

التزوير؛ لمخادعة من يتلقى عنهم الكتاب المزور وزيادة التلبيس والتدليس عليه، فهم لا يثقون في غيرهم أن يحفظ سرهم لو طلبوا منه القيام بالكتابة نيابة عنهم. والله أعلم .
والمتأمل لقوله تعالى : " ثم يقولون هذا من عند الله " يجد أن استعمال " ثم " في النظم القرآني العظيم يدل على أنهم كانوا يخفون ما يكتبون حتى تمرعليه مدد طويلة ينسى الناس خلالها أصل لكتاب، ثم ينسبونه إلى لله تعالى، فلا يجدون معارضاً لصنيعهم ؛ فتقادم الزمن أنسى الناس حقيقة الأمر.

قوله تعالى: " وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون ألا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم ألا قليلاً منكم وأنتم معرضون) [البقرة :٨٣]٠
التولي والإعراض ظاهرهما أنهما شيء واحد، فما سرالجمع بينهما في هذه الآية ؟

---

(1) التفسير الكبير للرازي: ١٢٨/١,١٢٩ .

اقول: إن المقصود بالتولي هنا عدم الوفاء بالعهد الذي أخذ عليهم بعبادة الله تعالى، وبر الوالدين، والإحسان إليهما، ولذي القربى واليتامى والمساكين، ومخاطبة الناس بما يليق، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، ثم بين سبحانه وتعالى أنهم

فعلوا ذلك غير متدبرين، ولا مفكرين في عواقب هذا التولي، فحصل منهم تول وإعراض عن التفكر في عواقبه **(١).**

قوله تعالى : " ولقد آتينا موسى الككاب وقفيناً من بعده بالرسل وأتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون " [البقرة : ٨٧] .
عبرالمولى-عزوجل-عن التكذيب بالفعل الماضي وكذبتم الذي يدل على حصول الحدث وانقضائه، وعبر عن القتل بالمضارع " تقتلون " الذي يدل على الزمن الحاضر أو المستقبل، مع أن القتل قد حصل، وانقضى، فالسر في ذلك - والله أعلم- أن التعبير بالمضارع بدلا من الماضي لاستحضاره في النفوس، وتصويره في القلوب؛ لفظاعته .
ويمكن أن يقال : إن الفعل امضارع (تقتلون)" باق على زمنه، وهو المستقبل، لأن اليهود كانو في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم يحومون حول قتل النبي صلى الله عليه وسلم، لولا آن عصمه الله تعالى منهم، أما التكذيب فقد حصل منهم وانقضى.
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) البحرالمحيط: ٤٦٤/١.

قوله تعالى : " قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كتم صادقين * ولن يتمنوه أبدا بماً قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين * [البقرة؛ ٩٤، ٩٥] ٠
وقوله تعالى : "قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن

كتم صادقين 0 ولا يتمنونه أبداً بماً قدمت أيديهم
والله عليم بالظالمين * " [الجمعة : ٦ ٧] .
في آية سورة البقرة قال : " ولن يتمنوه " ، وفي
آية سورة الجمعة قال : "ولا يتمنونه" والنفي
ب(لا) أعم من النفي ب(لن)، قال السهيلي-رحمه
الله -(١): (فحرف (لا) لام بعدها ألف، يمتد بها
الصوت ما لم يقطعه تضييق النفس، فآذن امتداد
لفظها بامتداد معناها، و(لن) بعكس ذلك، فتأمله؛
فإنه معنى لطيف، وغرض شريف) انتهى كلامه.
ف (لا) تفيد العموم؛ لأن نفيها ينسحب على
جميع الأزمنة، و(لن) تفيدالقطع وفرب المنفي
وقال السهيلي-عليه من رحمة الله شآبيبها (على
أني أقول : إن العرب – مع هذا - إنما تنفي ب(لن)
ما كان ممكناً عند المخاطب، مظنونا أن سيكون ،
فتقول : (لن يكون) لما يمكن أن يكون؛ لأن(لن)
فيها معنى (أن)، وإذا كان الأمرعندهم على

(١) نتائج الفكر في النحو: ١٣١.

الشك لا على الظن، كأنه يقول : أيكون أم لا يكون
؟ ، قلت في النفي: (لايكون).
وقد فرق كمال الدين عبدالواحد بن عبدالكريم
الزملكاني بينهما تفريقاً مبنيا على اللفظ، فقال:
(لن) محل استعمالها المظنون حصوله، ومحل
استعمال (لا) المشكوك في حصوله، وهذا يعلمك
أن (لن) آكد في النفي، على ما قاله فخر خوارزم
رحمه الله، وإن كان زمانها أقصر؛ ومما يثبت عندك

ذلك قوله - عز وجل-: " ولا يتمنونه أبداً " بعد حرف الشرط، وهو : " قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين 0 " ، كأنه قيل: متى زعموا ذلك في وقت من الأوقات، وقيل: تمنوا الموت، فلا يتمنونه أبداً.
فلما كان حرف الشرط لا يختص بوقت دون وقت، وعم جميع الأزمنة، قوبل ب(لا)؛ ليعم ما جعل جواباً له.
ولما فات العموم من قوله تعالى : " قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كتم صادقين؛ بسبب دخول (كان)؛ لكونها لا تدل على الحدث، بل تدخل على المبتدأ والخبر؛ لتقرن مضمون الجملة بالزمان الماضي، وكأنه قيل: إن كان قد وجبت لكم الدار الآخرة عند الله فتمنوا الموت الآن.
وكان حرف الشرط داخلا على فعل أمده قريب جاء في جوابه

---

(١) نتائج الفكر في النحو:١٣٣ .

(لن)،فانتظم الخطاب في الآيتين) (١) انتهى كلامه.
ولكني أرى بينهما تفريقاً من حيث المعنى؛ فإن فائدة "لن" في آية سورة البقرة الدلالة على القطع والبتات؛ لأنه علق صحة فعل الشرط الذي ادعوه - وهو كون الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس

- على تمني الموت؛ ليصلو إلى جنة النعيم الخالصة لهم من دون الناس بزعمهم، فالحبيب لا يكره لقاء حبيبه، بل يتمناه، (والابن لا يكره لقاء أبيه، لا سيما إذا علم أن كرامته ومثوبته مختصة به، بل أحب شيء إليه لقاء حبيبه وأبيه، فحيث لم يحب ذلك، ولم يتمنه، فهو كاذب في قوله، مبطل في دعواه)(٢) .

ودعواهم بأن لهم الدار الآخرة خالصة عند الله، وزعمهم كما في غير هذه الآية (٣) أنهم أبناء الله وأحباؤه، لو صحت لكانت غاية ما يطلبه مطيع الله وعابده، فليس بعد حصول الدار الآخرة خالصة لأمة من الأمم مطلباً أعظم منه، ولا يطمع طامع بزيادة عليه من حيث الظفر بالآخرة، والاستئثار بنعيمها، ونظراً إلى عظم هذه الدعوى وثوق أصحابها بها احتاج الرد عليهم يها إلى ما هو ابلغ في القطع وأقوى، فجاء ب "لن" القاطعة النافية، فقال : "ولن يتمنوه"، فهذا النفي كالصاعقة وقعت على رؤوسهم، ودحضت دعواهم.

(١) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: ١٩٣-١٩٤ .
(٢) بدائع التفسير : ٣٣٠/١
(٣) المائدة :١٨.

أما في آية سورة (الجمعة) فقد علق على تمني الموت صحة فعل الشرط الذي ادعوه، وهو كونهم أولياء لله من دون الناس ، فليس زعمهم هذا مطلباً لا مطلب وراءه؛ لأنهم يحتاجون بعد ذلك

إلى طلب قبول أعمالهم كما يفعل الأولياء ، ويرجون الثواب عليها في الآخرة، فلما كان الشرط في هذه الآية قاصراً عنه في سورة البقرة لم يحتج في نفيه إلى ما يدل على القطع، فجاء ب " لا " النافية، فقال " ولا يتمنونه " ، وهذا النفي أيضاً يدل على عموم الأزمنة؛ لأن دعواهم بأنهم أولياء الله وأحباؤه اكثر تردداً من دعواهم بان لهم الدار الآخرة خالصة .

وههنا تنبيه يحسن ذكره، وهو: أن الزمخشرى (١) يرى أن (لن) تفيدالتأبيد؛ للوصول إلى مذهبه الاعتزالي في نفي رؤية المؤمنين ربهم في الدنيا والآخرة(٢) مستدلاً بقوله تعالى: " ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظرإليك قال لن تراني " [الأعراف :٠ ١٤٣]

والرد على الزمخشري سهل جداً ؛ فإن الله سبحانه وتعالى قال : " فلن أكلم اليوم إنسياً " [مريم : ٢٦]، فخص النفي باليوم، وهذا معارض للتأبيد ، وفي سورة البقرة قال : "ولن يتمنوه أبداً"، ولوكانت (لن) دالة على التأبيد لما احتاجت إلى التأكيد بقوله : " أبداً " ، ومما يرد على الزمخشري أيضاً قوله تعالى : و قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى [طه: ٩١]، فقيد النفي برجوع موسى، وهو مناف للتأبيد.

---

(١) الكشاف: ٢٢/٣، شرح الأنموذج للأردبيلي: ٢٣٣.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ٤٥٤/٣

وعجيب أمر عالم جهبذ كالزمخشري، كيف يسقط مثل هذه السقطة؟ لكنه الانحراف في العقيدة، يعمي ويصم، ولا يخفى على ذي بصيرة ما يعتور المعتزلة من قصور في فهم كلام الله، فهم كما قال لإمام ابن القيم — رحمه الله (١) : (وهكذا كل صاحب يدعة تجده محجوباً عن فهم القرآن.)
وتأمل قوله تعالى : " لا تدركه الأبصار [الأنعام :103، كيف نفى فعل الإدراك ب " لا " الدالة على طول النفي ودوامه؛ فإنه لا يدرك أبداً، وإن رآه المؤمنون فأبصارهم لا تدركه، تعالى عن أن يحيط به مخلوق.
وكيف نفى الرؤيه ب "لن"، فقال :" لن تراني "؛ لأن النفي بها لا يتأبد ، وقد أكذبهم الله في قولهم بتأبيد النفي ب(لن) صريحاً بقوله : " ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك " [الزخرف : ٧٧] ، فهذا تمن للموت، فلواقتضت (لن) دوام النفي تناقض الكلام، كيف، وهي مقرونة بالتأبيد قوله : " ولن يتمنوه أبداً؟" ولكن ذلك لا ينافي تمنيه في النار؛ لأن التأبيد قد يراد به التأبيد المقيد، أوالتأبيد المطلق، فالمقيد كالتأبيد بمدة الحياة، كقولك : والله لا أكلمه أبداً، والمطلق كقولك : والله لا آكفر بربي أبداً.
وإذا كان كذلك فالآية إنما اقتضت نفي تمني الموت أبد الحياة الدنيا، ولم يتعرض للآخرة أصلاً؛ وذلك لأنهم لحبهم للحياة، وكراهتهم للجزاء لا يتمنون الموت، و هذا منتف في الآخرة .

(١) بدائع الفوائد : ٩٧,٩٦/١

فهكذا ينبغي أن يفهم كلام الله، لا كفهم المحرفين له عن مواضعه) .

قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم " [البقرة :104)
حيث نادى الله تعالى المؤمنين بقوله : " يا أيها الذين آمنوا " ، ولم يقل : (يا أيها المؤمنون) ، مع أنها أخصر، بحذف الاسم الموصول، وبالتعبير بالاسم بدلاً من الفعل ؟
والجواب عن ذلك من وجهين – والله أعلم- :
الوجه الأول: أن التعبير بقوله : فالذين آمنوا يشعر بتقدم حدوث إيمانهم ؛ لأنه عبر عنه بالفعل الماضي ، فهم قد آمنوا ، وامتحن إيمانهم ، وليسوا من المؤمنين قريباً ، فلم يقع عليهم قول الله سبحانه وتعالى : " الم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون *" [العنكبوت : ١ ٢] ، ولوقال : (ياأيها المؤمنون) لم يدل على ذلك، ولم يرد في لقرآن؛ (يا أيها المؤمنون) قط(١)

(١) قال الشيخ إبراهيم بن يوسف في تعليقاته علي هذا الكتاب : (بل وردت في سورة النور في قوله تعالى :" وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون " [النور: 31] ولا فرق بينهما ألا

حذف أداة النداء من آية النور، وقد كتبها الصحابة محذوفة الألف أيضاً هكذا: (أيه المؤمنون)، ولا نظير لها ألا قوله: ويأيه الساحر) و(أيه الثقلان)، الأولى في الزخرف، والثانية في الرحمن، وهذه الألفاظ الثلاثة: (أيها المؤمنون-أيها الساحر- أيها الثقلان) مفردة في القرآن، لا توجد متكررة، وربما كان ذلك من العوامل التي حملت الصحابة رضي الله عنهم إلى تمييزها خطاً عن غيرها، ولبعض العلماء كلام ورسائل في تعليل رسم المصحف، وقد لا يكون أكثر ذلك مقنعاً؛ إذ الرسم توقيفي.والله أعلم).

الوجه الثاني: أن(أل) تستعمل للدلالة على كمال الشيء ، فإذا قيل: (يا أيها المؤمنون) دل على أن المخاطبين هم الذين كمل إيمانهم، فإذا جاء بعد النداء أمر أو نهي توهم أن ذلك مخصوص بمن هم كاملو الإيمان ، بخلاف ما إذا عبر بالاسم الموصول، فقيل: " يا أيها الذين آمنوا " ، فإن الفعل لايشعرإلا بمطلق الصفة، وما وردت فيه (أل) دالة على الكمال قوله : " يوسف أيها الصديق " [يرسف : ٤٦]، وقوله : " قالوا يا أيها العزيز" [يوسف: ٧٨]، ولعل من ذلك قوله " قل يا أيها الكافرون "[الكافرون: ١]، والله أعلم.

وتأملوا قوله تعالى: " لا تقولوا راعنا " ف(راعنا) بمعنى: راقبنا، وانتظرنا، وتأن بنا، يا رسول الله حتى نفهم ما تتلو علينا من كلام الله تعالى،

ونحفظه، ولم يكن في هذه للفظة مأخذ ، في نهى المؤمنون عن استعمالها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن اليهود حرفوا المراد بها، حيث جعلوه من الرعونة ، فهم يعنون بها المسبة له صلى الله عليه وسلم، فيقصدون بها الحمق، فض الله أفواههم(١).

وأخيراً تدبروا قوله تعالى : " لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا " حيث بدأ بالنهي، ثم أتى بالأمر، وهذا مما عرف لدى العرب بالتخلية قبل التحلية، فنهى عن قول : (راعنا)، ثم أتى بما هو أشق وأصعب، حيث قيد الخطاب بقول : " انظرنا " بعد أن حصل الاستئناس بالنهي.

(١)التفسيرالكبير: ٢٠٣/٢.

قوله تعالى : " ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير* [البقرة : ١٠٧]

حيث جمع السماء، وأفرد الأرض، ولم ترد الأرض في القرآن الكريم ألا مفردة ، حتى أنه تعالى لما أراد الإشارة إلى تعددها قال : " الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن] الطلاق: 12] .

والسبب في ذلك –والله أعلم- على نوعين :

الأول : سبب معنوي قاله ابن جني، وهو: (أن السماء بعيدة عنا، فلسنا نشاهد حالها ، فنعلم اتصال بعضها بعض، كاتصال أجزاء الأرض بعضها

يبعض، ألا ترى أن السهل والجبل والوادي والبحر والبر لا تجد شيئاً من أجزائه منفرداً عن صاحبه، ونحن لا نعلم هذا من حال السموات، كما علمنا، وتحققنا من حال الأرض، فلاق بالأرض أن تاتي يلفظ لإفراد ، ولاق يالسماء أن تأني يلفظ الجمع تارة ، وبلفظ الإفراد أخرى؟ (١) انتهى كلامه.
ثم إن الأرض لا نسبة لها إلى السموات في سعتها، قال الإمام بن القيم - رحمه الله — (٢) : (بل هي بالنسبة إليها كحصاة في صحراء ، فهي ، وإن تعددت ، وكبرت، بالنسبة إلى السماء كالواحد القليل، فاختير لها اسم الجنس" .
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) الخاطريات:٤٠.
(٢) بدائع الفوائد:١/١١٥.

ولذلك استعملت الأرض مفردة، والسماء مجموعة.
الثاني: سبب لفظي، وهو أنهم لو جمعوا الأرض جمع تكسير لقالوا : آرض، كأفلس، أو آراض، كأجمال، أو أروض، كفلوس، وهذه الجموع ثقيلة، عكس جمع السماء، فهوعذب حسن، قال ابن القيم - عليه رحمة الله — . (وأنت تجد السمع ينبو عنه بقدر ما يستحسن لفظ السموات، ولفظ السموات يلج في السمع بغير استذان؛ لنصاعته وعذوبته)(1) .

قوله تعالى : " ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولإن

اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير*]البقرة: ١٢٠]
وقوله تعالى : " ولإن أتيت الذين أوتوا الكاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وماً أنت بتابع قبلتهم وماً يعضهم بتابع قبلة بعض ولإن اتبعت أهواءهم من بعد ماً جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين *)"]البقرة : ١٤٥].
يجعل علماء اللغة (ما) الموصولة بمعنى (الذي)، وهذا تعبير غير دقيق؛ لأنهما مختلفان من حيث المعنى، ومن حيث الأحكام، فأما افتراقهما من حيث الأحكام فليس هذا مجال بحثه، لكنه مفصل في كثيرمن كتب النحو(٢).

(١) بدائع الفوائد: ١/١١٤,١١٥
(٢) نتائج الفكر في النحو: ١٨٠-١٨١ ، بدائع الفوائد ١/١٣١-١٣٢.

أما وجه اختلافهما في المعنى (فإن (ما) اسم مبهم في غاية الإبهام، حتى إنها تقع على كل شيء ، وتقع على ما ليس بشيء ، ألا ترى أنك تقول : إن الله عالم بما كان وما لم يكن، و(ما لم يكن) معدوم، والمعدوم ليس بشيء ، فلفرط إبهامها لم يجز الإخبار عنها حتى توصل بما يوضحها)(١).
وفي هاتين الآيتين اللتين هما موضع النظرة عبر في الآية الأولى بقوله : " بعد الذي جاءك من العلم " ، وفي الثانية بقوله : " من بعد ما جاءك من العلم "، فعبر ب "الذي" في الأولى؛ لأن المراد

بالعلم فيها العلم الكامل، وهو معرفة الله وصفاته، وبأن الهدى هدى الله، فناسب ذكر" الذي "؛ لكونه أبلغ في التعريف من (ما) ، وعبر ٠ب"ما " في الآية الثانية؛ لأن المراد بالعلم فيها العلم بأن قبلة الله هي الكعبة، وهوعلم خاص، فناسب ذكر "ما" معه(٢) ، والله أعلم .

قوله تعالى : " قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار و بئس المصير *" [البقرة : ١٢٦]

قال: " فأمتعه "، ومعلوم أن الزيادة في المبنى تدل على الزيادة في الـمعنى، و(متع) تدل على الكثرة ، فكيف وصف مصدرها فقال:

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(1) منائج الفكر: **180**

(٢) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن للأنصاري :١٩ - ٢٠ .

(قليلاً) ، فوصف الكثيربالقليل ؟ (١).

أقول : السبب في ذلك - والله أعلم-أن الله تعالى مهما أغدق على بن آدم من نعم الدنيا فإنها قليلة بالنظر إلى صيرورتها إلى نقص ونفاد وفناء ، ونظراً إلى هلاكه ورحيله عن الدنيا وتركه ما فيها :

أماوي مايغني الثراء عن الفتى   إذا حشرجت نفس وضاق بها الصدر(٢)

فكثر الفعل بعين صاحب المتاع، و قلله بالنظر إلى

حقيقته، ومثله قوله تعالى :" ومن كفرفلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور * نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ *) [لقمان: ٢٣ ٢٤] .

قوله تعالى : " إن الذين يكتمون ماً أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون 0 ألا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم * إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين * [البقرة :١٥٩-١٦١] .
لو وقفنا أمام هذه الآيات العظيمات متدبرين فيها لخرجنا منها بفوائد بديعة، منها :
الفائدة الأولى؛ أن الله تعالى عبر عن الكاتمين لما أنزله من البينات

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي: ٣/٣٥-٣٦.
(٢)ديوان حاتم الطائي: ١٩٩.

والهدى، عبرعنهم بالفعل لمضارع، فقال: " يكتمون)، ومن المعلوم أن الفعل المضارع يدل على الزمن الحاضر والمستقبل، فالفعل " يكتمون " إذاً يدل على أن اليهود في الوقت الحاضر كاتمون للبينات والهدى، ولو وقع التعبير بلفظ الماضي لتوهم السامع ان الحديث عن قوم مضوا، وليس عن قوم حاضرين(١)، فيخرج حينئذ عن دائرة

المذمومين يهود عصر التنزيل والعصور التالية له ، وهذا غير مراد؛ لأن صفات اليهود لا تتغير ، فالتعبير بالفعل المضارع يدل على تجدد الكتمان منهم، فبقاؤهم عليه تجدد له .
الفائدة الثانية: قال الله تعالى: " أولئك يلعنهم الله " والجملة خبر ل(إن) ، وهي جملتان : كبرى وصغرى ، فالصغرى جملة الخبر الفعلية : " يلعنهم الله " والكبرى الجملة الاسمية : " أولئك يلعنهم الله "، والتعبير بالجملتين ذو دلالة مزدوجة ، فهو بالجملة الاسمية يدل على ثبوت لعن الله لهم ودوامه، وبالجملة الفعلية يدل على تجدد لعن الله لهم كلما تجدد كتمانهم، فهم يكتمون، والله يلعنهم، أي : يطردهم من رحمته.
والإشارة ب " أولئك " التي تدل على البعد للدلالة على بعدهم بالإفساد، وإفراطهم فيه، ثم إن الإشارة لا تكون ألا للمشاهد، ومع ذلك أشار بها إلى صفاتهم، وهي لا تشاهد ؛ وذلك لأن وصفهم بتلك الصفات جعلهم كالمشاهدين للسامع (٢) .
____

(١) تفسير التحرير والتنوير : ٦٦/٢.
(٢) المصدرالسابق : ٦٧/٢

الفائدة الثالثة: في تكرار (يلعنهم) في قوله: " ويلعنهم اللأعنون " مع إمكان أن يقال : (أولئك يلعنهم الله واللاعنون) ؛ وذلك لأن معنى اللعن في الثاني مختلف عنه في الأول، فإن اللعن من الله الطرد والإبعاد من رحمته، واللعن من غيره الدعاء

على الملعون بذلك، فلاختلاف معنى اللعن تكررالفعل(١)، والله أعلم .
الفائدة الرابعة: قوله : (اللاعنون) هذا الوصف المعرف بالألف واللام يشعر بأن هنالك قوماً شغلهم الشاغل هو اللعن، وليس الأمر كذلك؛ فما هناك من أحد متخصص باللعن ، فيوصم به، إنما المراد هنا الذين يمكن ان يصدر منهم اللعن كالملائكه والصالين الذين ينكرون امنكر، ويغضبون لله تعالى، ويطلعون على كنمان من يكتم آيات لله، فهم يلعنونهم لذلك، فكأنهم اختصوا بذلك (٢) .
الفائدة الخامسة: اختلف النحاة في نوع الاستثناء في قوله: (ألا الذين تابوا)، أمتصل هو أم منقطع؟ .
ومعلوم أن الاستثناء المتصل: هو ما كان المستثنى فيه بعضاً من المستثنى منه، والاستثناء المنقطع: هو ما لم يكن فيه المستثنى جزءاً من المستثنى منه .
فمن قال في هذه الآية : إن آالاستثناء متصل(٣)، أراد أنه استثنى
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) تفسير التحرير والتنوير : ٦٨/٢.
(٢) الكشف: ٣٢٥/١، البحر المحيط: ٧٠/٢
(٣) البحرالمحبط: ٧٠/٢

التائبين ممن يلعنهم الله، ويلعنهم اللاعنون.
ومن قال : إن الاستثناء في هذه الآية منقطع جعل التائبين من غير الملعونين؛ لأنهم يرون أن

من يلعنه الله لا يتوب عليه .
الفائدة السادسة: قال الله تعالى : " إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار،" عبرعن كفرهم بالفعل الماضي لذي يدل على ثبوت الكفر منهم، ثم أردفه يالإخبار عن موتهم على حالة الكفر، وهذا الصنف من الناس لا توبة لهم ، ولايغفر لهم الله؛ لأته تعالى يقول : " إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ماً دون ذلك لمن يشاء " [النساء : ١١٦]، ولذلك عبر الله عن جزائهم بجملة اسمية تدل على الثبوت والدوام، وليس فيها استثناء ، فقال : " أولئك عليهم لعنة الله والملانكة والناس أجمعين "، وتأملو كيف عبر الله عن جزاء من يكتم آيات الله يقوله : " أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون "، فاللعن عليهم غير دائم؛ لإمكان أن يتوبوا، فيرضى الله عنهم، فهو حديث عن أحياء.
أما الآية الكرية الأخيرة فقد عبر فيها عن جزائهم بثبوت لعنة الله عليهم ودوامها، وكذلك لعنة الملائكة والناس أجمعين؛ لأنهم ماتوا على الكفر، فأغلق دونهم باب التوبة ، فالحديث عن هالكين .

[image]

[image]

قوله تعالى : " أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون " [البقرة : ١٨٧] .

توطئة :

إن الأفعال اللازمة يمكن أن تتعدى إلى مفعولها بوساطة حرف لجر، مثل أن تقول : نظرت بطرف خفي ، فتعدي الفعل (نظر) بالباء ، أو ب(إلى) كأن تقول: نظرت إلى الجبل .

فإذا قلت : نظرت من طرف خفي، فعديته ب(من) دون الباء او (إلى) ، فبعض النحاة يقولون : إن (من) ضمنت معنى الباء ، وهؤلاء هم الذين يقولون بتناوب حروف الجر بعضها عن بعض(١)، وهم يرون أن الحرف حينئذ يبقي فيه رائحة من معناه الأصلي، يقول الكفوي : " كل حرف كان له معنى متبادر، كالاستعلاء في (على) مثلاً، ثم استعمل في غيره، فإنه لا يترك ذلك المعنى

المتبادر بالكلية، بل يبقي فيه رائحة منه، ويلاحظ معه)(٢) وقال غيرهم (٣): إن الحرف لا يضمن معنى حرف آخر، ولكن العامل فيه
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) كالفراء وأبي عبيدة والأخفش وابن قتيبة والمبرد.
انظر : معاني القرآن للفراء : ٦٣/١ ، مجاز القرآن : ٣٢٤/١، معاني القرآن للأخفش : ٤٦/١، تأويل مشكل إعراب القرآن :٥٦٧، المقتضب: ٣٢٨/٢.
(٢)الكليات:٩٩٧.
(٣) هم أكثر البصريين : انظر : معاني القرآن وإعرابه : ٤١٦/١، الإنصاف في مسائل الخلاف : ٤٨٢،الجنى الداني ١٠٨.

هوالذي يضمن معنى عامل آخر يتعدى بذلك الحرف، فيكون في ذلك دليل على الفعلين، أحدهما بالتصريح به، والثاني بالتضمن والإشارة إليه بالحرف الذي يقتضيه، مع غاية الاختصار.
ومثل الفعل اللازم الفعل المتعدي بنفسه حين يستعمل متعدياً بوساطة حرف الجر ، فيكون مضمناً معنى فعل آخر ، كقول إمام الصلاة : سمع الله لمن حمده، فقد عدى الفعل (سمع) إلى مفعوله (من حمده) باللام مع إمكان أن يقول: سمع الله من حمده . والسبب في ذلك أنه ضمن (سمع) معنى (استجاب) ، و(استجاب) يتعدى بوساطة حرف الجر (اللام) ، فكأنه قال : سمع الله، واستجاب لمن حمده (١) .

وهذا يؤيد قول القائلين : إن التضمين يكون في الفعل، لا في الحرف؛ لأن وجود الحرف هنا غير جائز أصلاً لو لم يشرب الفعل معنى فعل آخر.
وههنا في هذه الآية التي بين أيدينا موضعاً للنظرة وقفتان :
الأولى: يقال: رفث فلان بزوجه، أو: رفث معها، ولايقال: رفث إليها، فلم قال الله تعالى في الآية الكريمة: " الرفث إلى نسائكم "؟
الجواب على هذا السؤال هو: أنه ضمن (رفث) معنى (أفضى) ،
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١)انظر: بدائع الفوائد: ٢/٧٥-٧٦.

وهذاالفعل الأخير يتعدى ب (إلى)، تقول: أفضى فلان إلى زوجه(١).
والتضمين هنا أفاد صحة الرفث والإفضاء إلى الزوجة ليلة الصيام، والرفث هو متضمن لما يستقبح ذكره من ذكر الجماع ودواعيه، أما الإفضاء فهو المباشرة والجماع، ولذلك لو لم يعد الرفث ب(إلى) لتبادر إلى الذهن حل ذكر الجماع ودواعيه دون مباشرته، فتأملو أسرار العربية ، والبيان القرآني العظيم.
الثانية: اختلف النحاة في مجرور" إلى " في قوله : " إلى الليل "، أيكون غاية لا يدخل في حكم ما قبلها ؟ او يدخل فيه؟ .
فيه قولان(2)
أحدهما: عدم دخوله، فإذا قلت: سرت من القصيم

إلى الرياض، فإنك لم تدخل الرياض .
والقول الآخر: انه إن كان مابعد(إلى) من جنس ما قبلها فهو داخل، وإلا فلا، مثال الجنس: اشتريت الغنم إلى آخرها، ومثال غير الجنس: سرت من الخرج إلى الرياض
وفي الآية الكريمة التي بين أيدينا: " ثم أتموا الصيام إلى الليل " الليل غير داخل في الصيام قطعاً؛ لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إذا أقبل الليل من ههنا، وأدبر النهار من ههنا، وغربت الشمس، فقد أفطر الصائم)(3)، وهذا
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) الكشاف: ٣٢٨/١
(2) اجنى الداني٣٧٣.
(٣) صحيح البخاري80/٣ :"

يؤيد قول الذين قالوا بعدم دخوله إذا لم يكن من جنس ماقبله؛ لأن الإفطار يكون بغروب الشمس، فالسنه الفطر إذا تبين الليل.
فإن ترك الصائم الأكل لعذر أو لشغل جاز، وإن تركه قصداً لمواصلة الصيام فللعلماء فيه ثلاثة أقوال (١) : منهم من رآه جائزاً، ومنهم من جعله مكروهاً ، والأكثرعلى انه حرام؛ لما فيه من مخالفة الظاهر، والتشبه بأهل الكتاب. والله أعلم
والمتأمل في قوله تعالى :" حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر " يجد أن الله تعالى قد قدم الخيط الأبيض على الخيط !
لأسود ؛ وذلك-والله تعالى أعلم-لأن السواد هو

لأصل، فالليل ملتحف بوشاحه الداكن، والبياض طارئ عليه، ولما لم يكن المراد بالخيطين هما الحقيقيان (٢) أتى ب(من) البيانية، وكان الصحابي الجليل عدي بن حاتم الطائي-رضي الله عنه-قد فهم الآية على ظاهرها، فعمد إلى عقالين أسود وأبيض، فجعلهما تحت وسادته، ينظرإليهما في الليل، فلا يستبين له شيء، فقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكرله ذلك، فقال: (إنما ذلك سوادالليل وبياض النهار(٣)

(١) أحكام القرآن لابن العربي: ٩٣/١.
(٢) قال الشيخ إبراهيم بن يوسف: (الأولى: (الحقيقيين) بالنصب على الخبرية ل(كان) ، وهي لغة القرآن، وهي اللغة الفصحى، وقال تعالى : " وإذ قالوا اللهم إن كان هذ هو الحق" ، وقال : "وإما أن نكون نحن الملقين" في آيات كثيرة، وللرفع وجه، ولكن الأولى والأفصح ما ذكر. والله أعلم)
(٣) صحبح البخاري-: ٦٦/٣

قوله تعالى : " ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون " [البقرة : ١٨٧] .
وقوله تعالى : " الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا ألا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيماً حدود الله فلا جناح عليهما

فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون " [البقرة : ٢٢٩]
حينما نتدبر الآيتين نجد في الأولى نهياً عن مقاربة حدود الله، ونجد في الثانية نهياً عن مجاوزتها، ولذلك مقاصد عظيمة؛ فالحدود نوعان : حدود مانعة من ارتكاب المحظور، فينهى عن مقاربتها، وحدود فاصلة بين الحلال والحرام، فينهى عن مجاوزتها.
وفي الآية الأولى نهي عن مواقعة النساء في حالة الاعتكاف في المساجد، فغلظ الوعيد بالنهي عن مقاربته، وشدد بالابتعاد عنه، والحذر من مقدماته ودواعيه؛ لئلا يقع المعتكف في الحرام من حيث لا يشعر، فاقتضى ذلك المبالغة في النهي عن المقاربة.
وفي الآية الثانية بيان لحل قيام المرأة بافتداء نفسها بمهرها، ومخالعة زوجها، وأنه لا إثم عليها، فنهى عن مجاوزة الحد برفض ذلك أو مخالفته، فقال: فلا تعتدوها.
وقال بدر الدين ابن جماعة : (الحدود في الأولى هي عبارة عن نفس المحرمات في الصيام والاعتكاف من الأكل والشرب والوطء والمباشرة، فناسب: " فلا تقربوها " .
والحدود في الثانية : أوامر في أحكام الحل والحرمة في نكاح المشركات، وأحكام الطلاق والعدة والإيلاء والرجعة، وحصر الطلاق في الثلاث والخلع، فناسب " فلا تعتدوها "، أي : لاتتعدوا

أحكام الله تعالى إلى غيرها ما لم يشرعه لكم، فقفوا عندها، ولذلك قال بعده: " وتلك حدود الله يبنها لقوم يعلمون [البقرة: 230)(١).

قوله تعالى: " وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (196) " [البقرة : ١٩٦] .
العرب في حديثهم يفرقون بين أداتي الشرط (إذا) و (إن) ، قال ابن مالك - رحمه الله-(٢): ((إذا) للوقت المستقبل، مضمنة معنى الشرط غالباً، لكنها لما تيقن كونه، أو رجح، بخلاف (إن)) .

وقال الكفوي : ((إن) الشرطية تقتضي تعليق شيء ، ولا تستلزم تحقق وقوعه، ولا إمكانه، بل قد يكون ذلك في المستحيل عقلاً، كما في قوله تعالى : " قل إن كان للرحمن ولد " [الزخرف :٨١]

(١) كشف المعاني :١١٣.
(٢) تسهيل الفوائد :٩٣.

وعادة كما في قوله تعالى : " فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض " [الأنعام: ٣٥] لكن في المستحيل قليل"(١).
فيجعلون (إذا) مع الشيء المتحقق وقوعه، أو المترجح، فيقولون : إذا دخل وقت الصلاة نصلي؛ لأن دخول وقتها متحقق الوقوع، ولا يصح أن يقال : إن دخل وقت الصلاة نصلي؛ لأن هذا الأسلوب يشعر بأن دخوله محتمل وغير مؤكد.
وكذلك يؤتى ب(إذا) مع الشيء الذي يحدث كثيراً، أما (إن) فيؤتى بها مع قليل الحدوث، كقول الطالب الذي اعتاد النجاح دائماً: إذا نجحت فسأعود إلى بلدي، وإن رسبت فسوف أبقى هنا، أما الطالب المهمل المفرط الذي اعتاد الإخفاق فيقول : إن نجحت فسأعود إلى بلدي، وإذا رسبت فسوف أبقى هنا.
قال ابن القيم — رحمه الله -(٢) : (المشهور عند النحاة والأصوليين والفقهاء أن أداة (إن) لا يعلق عليها ألا محتمل الوجود والعدم، كقولك : إن تأتني أكرمك، ولا يعلق عليها محقق الوجود، فلا تقول : إن طلعت الشمس أتيتك، بل تقول : إذا طلعت الشمس أتيتك، و(إذا) يعلق عليها النوعان) .
وقول ابن القيم أوله صحيح، وآخره ليس كذلك؛ إذ لم يوافقه أحد من العلماء على أن (إذا) يعلق عليها النوعان، إلا ابن الجويني الذي قال : (الذي أظنه أنه يجوز دخولها على المتيقن والمشكوك؛ لأنها

(١) الكليات: ١٠٢١.

(٢) بدائع الفوائد:**1/46-47**

ظرف وشرط، فبالنظر إلى الشرط تدخل على المشكوك كـ(إن) ، وبالنظر إلى الظرف تدخل على المتيقن كسائر الظروف)(١).

وقول ابن الجويني وابن القيم غير صحيح؛ لأن سيبويه يقول(٢): ((إذا) تجيء وقتاً معلوماً، ألا ترى أنك لو قلت: آتيك إذا احمر البسر، كان حسناً، ولو قلت : آتيك إن احمرالبسر، كان قبيحاً؛ ف(إن) أبداً مبهمة، وكذلك حروف الجزاء، و(إذا) توصل بالفعل، فالفعل في (إذا) بمنزلته في (حين) ، كأنك قلت : الحين الذي تأتيني فيه آتيك فيه) .

ولذلك ذكر بعضهم أنها : (اسم للوقت . . . ، ومعناها في نفسها، والمتكلم بها يعرف كون ما دخلت عليه، و(إن) حرف وضعت لتعليق الثاني بالأول، ومعناها في غيرها، والمتكلم شاك في كون ما دخلت عليه، وهذا حق ما يجازى به ألا يدرى أيكون أم لا يكون)(٣) .

قال أبو سعيد السيرافي(٤) عن (إذا): (إن الذاكر لها في الكلام كالمعترف بأنها كائنة، كقولك : إذا طلعت الشمس فائتني، فالمتكلم معترف بطلوع الشمس، وحق ما يجازى ب(إن) أن لا يدرى أيكون أم لا يكون؟ كقولك : إن قدم زيد زرته، وإن تمطر اليوم نجلس للحديث، ولا يدرى أيقوم زيد أم لا؟ ولا يدرى أتمطر اليوم أم لا؟ ولذلك حسن: إذا

احمر البسر فائتني، وقبح : إن احمر البسر فائتني؛ لإحاطة العلم أن

(١) ابرهان في علوم القرآن للزركثي": ٢٠١/٤ .
(٢) الكتاب: ٤٣٣/١ ،وانظر :شرحه للسيرافي :٢٢٨/٣ب-٢٢٩ أ.
(٣) معاني الأدوات والحروف: ٨١/١.
(٤) شرح الكتاب: ٢٢٨/٢ب.

احمرار البسر كائن) ٠
وإنني لا أنفي ورود (إذا) مع ما ظاهره أنه مشكوك فيه ، كقوله تعالى : " نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً * [الإنسان: ٢٨] ، ولا وقوع (إن) مع ما ظاهره أنه متحقق الوقوع، كقوله تعالى: " أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم " [آل عمران: ١٤٤ [لكني أرى أن ذلك يأتي تنزيلاً ل(إذا) منزلة (إن) ، وتنزيلاً ل(إن) ، منزلة (إذا) ؛ لفائدة غير خفية.
قال السيرافي(١) أيضاً: (وقد تستعمل (إذا) في الموضع لذي يحسن فيه (إن) ، ولا يبين بينهما فرق؛ للمشابهة التي بينهما، وكذلك تستعمل (إن) في موضع (إذا)، قد يقول القائل: إن مت فأخرجوا نلث مالي للفقراء والمساكين، وقال الله تبارك وتعالى : " أفإن مات أو قتل " [آلعمران: ١٤٤ [، والموت كائن لا محالة، وقال الشاعر:
كم شامت بي إن هلكت وقائل لله دره(٢)
وقال زهير:

إذا أنت لم تنزع عن الجهل والخنا أصبت حليماً أوأصابك جاهل(٣)

وقد يجوز أن تنزع، ويجوز أن لا تنزع، ولا يحيط العلم بأي ذلك يكون.

(1) شرح الكتاب:٢/٢٢٨ب.

(٢) بيت من البحر الكامل للنابغة الذبياني في (ديوانه: ٢٣١).

(٣) شرح شعر:٢١٩.

وقولهم : إن مات زيد كان كذا، أحسن من قولك : إن احمر البسر؛ لأن الموت، وإن كان معلوماً أنه كائن، فلا يعرف وقته، واحمرار البسر معروف الوقت .

وفي هذه الآية التي بين أيدينا قال الله تعالى :" فإن أحصرتم "، فاستعمل (إن) ؛ لأن الإحصار قليل الوقوع، أما الأمن والتمكن من الوصول إلى مكة، والقدرة على إتمام لحج، فهو الأكثر، ولذلك قال: " فإذا أمنتم " . والله أعلم .

وأما قوله : " عشرة كاملة " فظاهرالكلام فيه أن كلمة "عشرة" مغنية عن "كاملة"(١)؛ لأنها إذا لم تكن كاملة فستكون تسعة، أو ثمانية , . . إلخ.

وقد اختلف العلماء في هذه الآية، فقال محمد بن يزيد المبرد : (لو لم يقل : " تلك عشرة " جاز أن يتوهم السامع أن يعدها شيئا آخر، فقوله : " تلك عشرة " بمنزلة قولك في العدد : فذلك كذا وكذا) . (٢)

ولكن الصحيح أن قوله: "كاملة" إنما هو بعنى (فاضلة) ؛ من كمال الفضل، لا من كمال العدد، قال كمال الدين الزملكانى: (الإتمام لإزالة نقصان الأصل، والإكمال لإزالة نقصان العوارض بعد تمام لأصل، ومن ثم كان قوله تعالى :" تلك عشرة كاملة" أحسن من: (تلك عشرة تامة) ؛ إذ التمام في العدد قد علم، وإنما يقي احتمال النقص في صفاتها.
ويفترقان أيضاً من جهة أن قولهم (تم) يشعربحصول نقص قبل
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١)البرهان في علوم القرآن للزركشي : **2/478-482**
(٢) معاني القرآن للنحاس؛ ١/١٢٧.

ذلك، و(كمل) لا يشعربه، ومن ثم قالوا: رجل كامل، إذا جمع خصال الخير ، ورجل تام ، إذا كان غير ناقص الطول)(١)
وأيضاً (تم) يشعر بحصول نقص بعده، كما يوصف القمر بالتمام، مثل قول العجاج :
أو شرفاً يتم نوراً قد زهر   كماتتم ليلة البدر القمر (٢)
وقال النابغة الذبياني:
فتى تم فيه ما يسر صديقه   على أن فيه ما يسوء الأعاديا
فتى كملت أخلاقه غير أنه   جواد فما يبقي من

المال باقيا
وقال الشاعر:
وإذا الفتى جمع المروءة والتقى   وحوى مع الأدب
الحياء فقد كمل(4)
وقال عدي بن الرقاع العاملي:
هو الفتى كلـــــه مجدا وتكرمة   وكل أخلاقه
الخيـرات قد كمـــــلا(5)
وقال امرؤ القيس:
إذا ما اتقى الله الفتى ثم لم يكن   على أهلـــه
كلا فقد كمـل الفتى (6)
____
(1) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن : 91-92
(2) ديوانه : 68
(3) ديوانه : 233
(4) بهجرة المجالس : 1/2/646
(5) ديوان شعره : 79
(6) ديوانه : 336

وقال الشاعر :
متى يبلغ البنيان يوماً تمامه   إذا كنت تبنيه
وآخر يهدم (١)
وكذلك تقول العرب: (تم البدر)؛ لأنه كان ناقصاً،
ومصيره إلى نقصان، قال العرجي:
ووجه كمثل البدرإذ تم فاستوى   إذا ما بدا في
ظلمة الليل يسدف(٢)
ولذلك آحسن الحسن بن هانى أيما إحسان حين
فال في لخليفة العباسي محمد الأمين :

تتيه الشمس والقمـــــرالمنير إذا قلنـــا كأئهما الأمير
فإن يــــك أشبها منه قليلاً فقد أخطاهمـــا شبـــه كثير
لأن الشمس تغرب حين تمسي وأن البــدريئقصه المسير
ونور محمـــد أبداً تمـــــــام على وضح الطريقة لايحور(٣)
ولله درأبي هلال العسكري حين يقول(٤) :
لوتم شيء من الدنيا لذي أدب لانضاف مال إلى علمـــي وآدابي
فتم جاهي عند الناس كلهـــم وطاب عيشي في أهلي وأصحابي

عزالكمال فلا يحظى به أحـــد فكل خلق وان لم يدر ذوو عـــاب

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) شعر عمرو بن شأس الأسدي :٧٩.
(٢) ديوانه: ٢٦٤.
(٣) ديوان المعاني: ٢٣٠/١
(؛) ديوان المعاني: ١٤٢/١

وقال الزجاج : (قال بعضهم "كاملة" أي تكمل الثواب، وقال بعضهم : كاملة في البدل من الهدي، والذي أراه في هذا - واله أعلم -أنه لما قيل : " فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم "

جاز أن يتوهم المتوهم أن الفرض ثلاثة أيام في الحج، أوسبعة في الرجوع، فأعلم الله-عز وجل- أن العشرة مفترضة كلها، فالمعنى : المفروض عليكم صوم عشرة كاملة على ما ذكرمن تفرقها في الحج والرجوع"(١) .
فليست الواو بمعنى (أو) كما في قوله تعالى : " فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع " [النساء : ٣]؛ إذ الواو فيها بمعنى (أو) ؛ لئلا يظن ظان أنه يصح جمع تسع من النساء جملة واحدة(٢) .
قال كمال الدين الزملكاني : (ومما جاء خبراً لإرادة معنى التأكيد قوله تعالى : " تلك عشرة كاملة " ؛ لاحتمال أن يعني بالواو معنى (أو) ، كما في قوله تعالى :" واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن)) [النساء : ٣٤] ؛ إذ لا يسوغ الجمع بينها)(٣) .
ومما يحسن ذكره ههنا أنه يروى أن الحجاج بن يوسف الثقفي قال لرجل من ولد عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه، وعن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أجمعين - : لم قرأ أبوك - يعني عبدالله بن مسعود رضي الله عنه - : فإن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة أنثى " [ص: ٢٣] ، أترى لا

---

(١) معاني القرآن وإعرابه : ٢٦٨/١, ٢٦٩ ، وذكرالزركشي رحمه الله ثلاث عشرة إجابة أخرى. انظر : البرهان في علوم القرآن: ٤٧٩/٢-٤٨٢ .

(٢) غرائب آي التنزيل: ٢٠.
(٣) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: ٣٠٤.

يعلم الناس أن النعجة أنثى ؟ فقال : قد قرىء قبله : " ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ألايعلم أن سبعة وثلاثة عشر؛؟ فما أحارالحجاج(١).

قوله تعالى : " يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكمحتى يردوكمعن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون " [البقرة: ٢١٧] .
في هذه لآية العظيمة عدة فوائد :
الفائدة الأولى: في تقديم الشهرالحرام على قوله : " قتال فيه "، والأخير يسميه أهل النحو بدل الاشتمال، وذلك يعنى ان المراد السؤال عن القتال في الشهر الحرام، فكان من الممكن أن يقال: (يسألونك عن قتال في الشهر الحرام) ، و: (عن القتال في الشهر الحرام) ، لكنه جاء على ما في الآية من تقديم المبدل منه، ثم الإتيان بالبدل، فلم كان هذا التقديم والتأخير؟.
قبل الإجابة على السؤال لا بد من معرفة سبب نزول الآية؛ كي تتضح الإجابة :

ــت

(١) البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي: ٨١/٧، نثرالدر للآبى: ١٩٥/٢

روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عبدالله بن جحش الأسدي - رضي الله عنه - على سرية في شهر جمادى الآخرة من السنة الثانية لهجرته - عليه الصلاة والسلام - قبل قتال بدر شهرين ؛ ليترصد عيراً لقريش فيها عمرو بن عبدالله الحضرمي وثلاثة معه، فقتلوه، وأسروا اثنين ممن معه، وغنموا العير، وكان ذلك في أول يوم من رجب، وهو أحد الأشهرالحرم، وهم يظنونه آخر يوم في جمادى الآخرة، فقالت قريش: قد استحل محمد الشهرالحرام، شهراً يأمن فيه الخائف، ويبذعر فيه الناس إلى معايشهم، أي يتفرقون إليها.

فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم العير، وعظم ذلك على أصحاب السرية، وقالوا : ما نبرح حتى تنزل توبتنا ، فنزلت هذه الآية (١).

فدل سبب النزول على أن هذا السؤال لم يقع إلا بعد وقوع القتال في الشهر الحرام ، وتشنيع الكفرة عليهم انتهاك حرمة الشهر، فاغتمامهم واهتمامهم بالسؤال إنما وقع من أجل حرمة الشهر ؛ فلذلك قدم في الذكر، كذا قالا ًالسهيلي رحمه الله(٢),

فقدم الشهر الحرام ؛ لعموم حرمته وشمولها لكل مخالفة من قتل أوغيره، ثم أبدل منه " قتال فيه

" ؛ لكونه سبب السؤال ، فجمع بين الأمرين، ومعلوم عند أهل اللغة أن البدل على نية تكرار العامل، فكأنه
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) أسباب النزول للواحدي: ٩٨-١٠٢ ، الكشاف : ١/٣٥٦-٣٥٧ ، تفسير الطبري: ٢/٣٦٠
(٢) نتائج الفكر في النحو: ٣١٣.

ههنا قال : (يسألونك عن الشهر الحرام، يسألونك عن قتال فيه) ، ولو قال (يسالونك عن قتال في الشهر الحرام) لكان المسؤول عنها القتال فقط دون سائر ما ينتهك به الشهرالحرام، فسبحان من هذا كلامه! !!.
الفائدة الثانية: في تنكير قوله : (قال فيه) حيث لم يقل: (القتال فيه)؛ وذلك ليدل على أن المراد القتال، ولوكان قليلاً غير مستحر ، كما حصل في سبب نزول الآية، حيث لم يقتل ألا كافر واحد ، ولوقال: (القتال) بالتعريف لظن أنه المقصود القتال العظيم، باعتبار(أل) دالةعلى الكمال، أوأنه القتال المسؤول عنه. وهو ما كان سبباً في نزول الآية، باعتبار (أل) للعهد، لكن تنكيره دل على أن المقصود أى قتال.
ولعدم دلاله النكرة على الكثرة ؛ لأنها لا تدك على الكثرة ألا إذا وقعت في سياق النفي، ونظراإلى احتياجه إلى الدلالة عليها في الجواب، وصفه بما يدل عليه، قال: (قل قتال فيه كبير)، والله أعلم.
الفائدة الثالثة: قوله: " والمسجد الحرام " علام

عطف؟
أكثرالمفسرين والنحاة على أنه معطوف على "سبيل الله"(١) ، ف "صد" مبتدأ، وهو كائن صداً عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، والخبر قوله : " أكبر عند الله "، لكن اعترض على هذا الإعراب بدر الدين ابن الناظم بقوله(٢) : (لأن جر(المسجد) بالعطف على وسبيل

(١) تفسير الرازي٢٨/٦-٢٩،إعراب القرآن للنحاس ٢٥٩/١.
(٢) شرح الألفية:٥٤٦.

الله)" ممتنع مثله باتفاق؛ لاستلزامه الفصل بين المصدر، وهو " صد " ، ومعموله، وهو— " المسجد الحرام بالأجنبي" وهو قوله: "وكفر به"، ويرى بن الناظم أنه يجب عطفً " المسجد الحرام " على الضمير المتصل المجرور في قوله : " وكفر به "، فيكون التقدير : (وكفر به وبالمسجد الحرام)، وعطفا ل اسم الظاهر على الضميرالمجرور لا يجوزعند الأكثرين إلا بإعادة الجار، كقوله تعالى: (وعليها وعلى الفلك تحملون *) [المؤمنون: ٢٢]، وأجازبعضهم (١) ذلك دون إعادة الجارمستدلين يقوله تعالى : " وانقوا الله الذي تساءلون به والأرحام "] النساء 1] بجر (الأرحام)، وهي قراءة حمزة(٢)، وبشواهد شعرية كثيرة(3) تدل على صحة ما ذهبوا إليه، وأنه جائز .

لكن على أي التقديرين يستقيم المعنى : (وصد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام)، أم: (وكفر به وبالمسجد الحرام)؟
كلا المعنيين مستقيم، لكني أميل إلى الأول؛ لأن جرم الكفار ازداد يصدهم المسلمين عن دخول البيت الحرام، لا بكفرهم فيه والله أعلم.
الفائدة الرابعة: ما السر في تكرار كلمة (قتال) مع إمكان أن يقال: (قل: هو كبير)؟ ؛ إن سبب التكرار هو أن التصريح به دون الإضمار وصولا إلى الدلالة على عموم الحكم لكل قتال، ولو جاء مضمراً لاختص الحكم بتلك الحادثة التي وقعت في سرية عبدالله بن
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) هم الكوفيون، انظر : الإنصاف في مسائل الخلاف :٤٦٣/٢.
(٢) سبعة ٢٢٦.
(٣) الإنصاف في مسائل الخلاف: ٤٦٤/٢-٤٦٥ .

جحش، رضي لله عنه. والله أعلم
قوله تعالى : و ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين " [البقرة: ٢٢٢] .
قال تعالى: " فاعتزلوا النساء في المحيض "، فأظهر (المحيض) بعد إضماره حين قال : " قل

هوأذى " ، وكان يمكن أن يقال في غير القرآن : (يسأل الناس عن المحيض،قل: هو أذى، فاعتزلوا النساء فيه) ، أو يقال : (يسألون عن المحيض، قل : المحيض أذى، فاعتزلوا النساء في المحيض)، لكن في هذا الأسلوب الأخير تتكرر كلمة " المحيض " ثلاث مرات، وهو غير حسن، وأما الأسلوب الأول، وهو الإضمار في الموضعين الأخيرين، فقد علل العدول عنه بن القيم رحمه الله، فقال : " فاعتزلوا النساء في المحيض " ولم يقل : (فيه) تعليقاً لحكم الاعتزال بنفس الحيض، وأنه هو سبب الاعتزال)(1) .

وأرى أن سبب مجيء سياق الآية على النحو المذكور هو أن" المحيض " في قوله : " يسألونك عن المحيض " هو مصدر ميمي، معناه: الحيض، ولكون الحيض نفسه أذى، ذكره مضمراً حين أراد ذكره مرة ثانية، فقال : (هو أذى) ، أما " المحيض " في قوله :

(١) بدائع الفوائد : ٤٨/٢ .

" فاعتزلوا النساء في المحيض " فليست مثل الأولى، بل هي مختلفة عنها؛ لأنها هنا ليست مصدراً كالأولى، بل هي اسم مكان على رأي اكثرالعلماء(1)، اراسم زمان على رأي بعضهم(٢) ويلاحظ أنه يترتب على هذا الخلاف في دلالته على المكان أو الزمان أحكام فقهية حول ما يعتزل من الحائض في زمن حيضها (٣) ، ولكنها في كلتا

الحالتين يكون معناها : ويسألونك عن الحيض، قل : الحيض أذى، فاعتزلوا النساء في مكان الحيض، أو فاعتزلوا النساء في زمان الحيض. والله أعلم(٤).

ولكننا حين لا نحتاج إلى تأويل بعض المفسرين (٥) الذين يقدرون : فاعتزلوا النساء في مكان الحيض، أو في زمن الحيض، ولا نحتاج إلى البحث عن أسباب بعيدة للإظهار بعد الإضمار، كما فعل ابن القيم رحمه الله .

---

(١) تفسير الطبري :٣٩٤/٢□ ٣٩٨ ، تفسير الرازي:٥٥/٦ .

(٢) البحر المحيط:/٤٢٢-٤٢٣،أحكام القرآن لابن العربي:١٦٠/١-١٦١.

(٣) أحكام القرآن : ١٦٤-١٦٢/١

(٤) قال الشيخ إبراهيم بن يوسف : (ويستدل لإرادة اسم المكان هنا بقوله صلى الله عليه وسلم : (اصنعوا كل شيء إلا النكاح) ، فلا يحرم ألا الوطء في الفرج، وهو مذهب سفيان الثوري وداود الظاهري وأحمد ومحمد بن الحسن، وأصبغ من المالكية، وجماعة يطول ذكرهم، ومن رأى أن المحيض في الآية اسم زمان أو مصدر ميمي، لم يجز المفاخذة ولاما يقرب منها، واعتمد الأحاديث الصحيحة عن عائشة وميمونة وأم سلمة رضي الله عنهن، أنه عليه الصلاة والسلام كان يأمر إحداهن إذا كانت حائضاً أن تشد عليها إزارها، ثم يباشرها. والله أعلم) .

(٥)تفسير التحرير والتنوير : ٣٦٦/٢ .

وقوله : " حتى يطهرن فإذا تطهرن "، هذان الفعلان مختلفا الأصل والمعنى، فالأول منهما "يطهرن " مأخوذ من الطهر، والثاني " تطهرن " مأخوذ من التطهر، ويقال : طهرت امرأة، إذا انقطع دم حيضها، فهر فعل طبعي يقوم بنفسه، ويقال : تطهرت المرأة، إذ اغتسلت بعد الحيض أو النفاس، فهو فعل محدث من قبل فاعله، فالمطهر من طهارته كانت خلقة، كالملائكة والحور العين، والتطهر من فعل الطهور- كالمتفقه، وهومن يذخل نفسه في الفقه مثل الآدميين والآدميات إذا تطهروا.
والجمع بين الفعلين في هذه الآية للدلالة على اشتراطهما جميعاً قبل حل إتيان النساء بعد الحيض ، فلو حصل الطهر دون الغسل، أو الغسل دون الطهر لما جاز الجماع(١).

قوله تعالى : " للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم * وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم " [البقرة: 226□227] .
الآية الأولى ختمها الله تعالى بالغفران والرحمة؛ لأن رجوع

---

(١) قال الشيخ إبراهيم بن يوسف : (أقول، هو مذهب مالك والشافعي والجمهور، لكن ذهب أبو

حنيفة وأصحابه إلى أن المرأة إذا طهرت لأكثر أمد الحيض -وهو عنده عشرة أيام- جاز وطؤها قبل أن تتطهر، وذهب الأوزاعي إلى أنها إن غسلت فرجها بالماء جاز وطؤها، وبه قال أبو محمد بن حزم. فالمسألة خلافية كما ترى، وظاهر الآية مع الجمهور. والله أعلم).

الزوج إلى عشرة زوجته، والإحسان إليها بالنفقة والعشرة الطيبة، وعدم طلاقها، عمل حسن، وصنيع يستحق عليه المجازاة بما هو أحسن من صنيعه، من مغفرة الله ورحمته .
والآية الثانية ختمها بالسمع والعلم؛ لأنه في مقام التعقيب على إيقاع الطلاق بعد اليمين والتربص، والطلاق قول، فناسبه السمع والعلم بمضمونه وأسبابه وغايته. والله أعلم

قوله تعالى : " والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء " [البقرة:٢٢٨] .

التربص: الانتظار، سواء أكان المنتظر خيراً أم شرا ، والمراد به ههنا الانتظار والمكث في العدة . ويستقيم اللفظ والمعنى لو قيل في غير القرآن الكريم : (المطلقات يتربصن ثلاثة قروء) ، ولكن لزيادة قوله : " بأنفسهن " فائدة عظيمة، قال الزمخشري: (في ذكر الأنفس تهييج لهن على التربص، وزيادة بعث؛ لأن فيه ما يستنكف منه، في حملهن على أن يتربصن، وذلك أن أنفس النساء طوامح إلى الرجال، فأمرن أن يقمعن أنفسهن، ويغلبنها على الطموح، ويجبرنها على التربص " (١).

وقال الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي- رحمه الله تعالى-(٢) :

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) الكشاف:٣٦٥/١.

(٢) المواهب الربانية من الآيات القرآنية : ٤ .

(واعلم أن في قوله: " بأنفسهن " فائدة جليلة، وهي أن هذه المدة المحدودة للتربص مقصودة لمراعاة حق الزوج والولد، ومع قصد البراءة فلا بد أن تكون في هذه المدة منقطعة النظر عن الرجال، محتبسة على زوجها الأول، لا تخطب، ولا تتزين للخطاب، ولا تعمل الأسباب في الاتصال بغير زوجها) .

قوله تعالى : " وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ **(233)** "البقرة .

في هذه الآية عدة تأملات :

التأمل الأول: في قوله تعالى : " والوالدات يرضعن " فهذه جملة خبرية معناها الأمر ، فالتقدير : أيها الوالدات أرضعن أولادكن حولين كاملين، والأمر هنا أمر ندب لا إيجاب ؛ بدليل استحقاق الأم الأجرة عليه، ولقوله تعالى. " وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى * " [الطلاق : ٦]، ويصير واجباً إذا لم يقبل الصبي ألا ثدي أمه ، أو لم توجد له ظئر، أو كان الأب عاجزاً عن الاستئجار(١) .

وقيل(٢): إن الخبرعلى معناه، ويكون الكلام حينئذ أبلغ؛ لأنه

---

(1) الكشاف :٣٧٠/١.

(٢) تفسيرالتحريروالتنوير: ٤٣٠/٢ .

يدل على شيئين :

الأول: ان هذا حق من حقوق الأم، لا ينبغي

للمولود له أن ينازعها فيه.
الثاني: أنه حق على الأم، لا ينبغي لها أن تماطل به، أو تتخلى عنه، أو تساوم فيه.
ويؤيد ذينك تقديم الاسم على الفعل، والتعبير بالجملة الاسمية التي تدل على الحصر، فلو قيل: (ترضع الوالدات أولادهن) ما كان ملزماً للأم، ولا للمولود له . والله أعلم
التأمل الثاني: في قوله : " يرضعن أولادهن) ، فإن ذكر المفعول به " أولادهن " مع أن هذا مفهوم من السياق، فيه تذكير لهن بدواعي الحنان والشفقة(١)، وأن هؤلاء الذين يحتاجون إلى الرضاعة هم أولاد أولئك المرضعات الذين فطرن على حبهم والشفقة عليهم، فكيف يعرضن عن إرضاعهم ؟ .
التأمل الثالث: في قوله: " حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة "، فإن هناك فرقاً بين الإكمال والإتمام، فالإكمال لإزالة نقصان العوارض بعد تمام الأصل، والإتمام لإزالة نقصان الأصل، كم سبق بيانه(2).

(١) تفسيرالتحرير والتنوير: ٤٣٠/٢ .
(٢) ص: ١٠٨ .

فلماذا وصف الحولين بالكمال ، ووصف الرضاعة بالإتمام ؟
وصف الحولين بالكمال؛ لأن (الحول) لفظ يحتمل عدم الإكمال، فلو قيل : " حولين " مجرداً من

الصفة " كاملين " لم يدل على استكمالهما قطعا (1) إذ يمكن أن تقول؛ أقمت في مدينة الرياض حولين، ولولم تستكملهما، فجعل الله تعالى الحولين الكاملين حداً عند اختلاف الأبوين في مدة الإرضاع ، فلا يحق للوالدة الامتناع عن إرضاء الولد قبل إكمال الحولين، أما لو أراد الأب فطام ولده دون بلوغ الحولين فله ذلك،ما لم يكن في ذلك ضرر على الولد، أو مضارة للأم.
ثم إن وصف الحولين بالكمال تنبيه على أنه لا يجوز تجاوز ذلك، وأنه لاحكم للإرضاع بعدهما .
أما استعمال الإتمام مع الرضاعة فلأن الفطام يمكن أن يحصل قبل استغراق المدة المعتادة، ثم إن الرضاعة لا يمكن أن تكمل ؛ لأن الطفل لو لم يقسر على الفطام لشب على حب الرضاع، كما قال أبو عبد الله محمد بن سعيد البوصيري .
والنفس كالطفل إن تهمله شب على   حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم(2)
التامل الرابع: في قوله: " المولود له " لم لم يقل: وعلى الوالد؟.
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) انظر: الكشاف ١/٣٦٩-٣٧٠ .
(٢) بردة المديح المباركة: ٦.

قال العز بن عبد السلام : (الجواب أن الولد ينفع أباه أكثر مما ينفع أمه؛ لأن الولد يحمل أباه في المحافل، ويدفع عنه في الحروب، إلى غيرذلك من النفع، مما لا يحصل للأم، فأراد سبحانه أن ينبه ب

" المولود له " على العلة التي لأجلها أختصت نفقة الولد بأبيه دون أمه، ولأن الأم تستعمل في النفع، فيقال شهد له، ومنه: " من عمل صالحا فلنفسه " [فصلت : ٤٦]، وهي هنا مشعرة بالنفع الحاصل من الولد)(١). انتهى كلامه.
واستعمال لفظ " المولود له " بدلاًمن لفظ؛ الوالد، أو الأب؛ ليدل أيضاً على إعلام الأب بفضل الله عليه، حيث منحه الولد، وأعطاه إياه دون مشقة، ولا نصب من الأب، فالله وحده هوالمتفضل به حين رزقه إياه، واللام في قوله : والمولود له " معناها شبه التمليك، فالولد شبه الملك لأبيه يتصرف في ماله وفي نفسه بما يختار غالباً، وكذلك الولد يكون -غالباً- مطيعاً لأبيه، ممتثلا لما يأمر به، منفذاً ما يوصي به. كذا قال أبو حيان رحمه الله تعالى (٢) .
وأقول أيضاً : إن التعبير ب" المولود له " للدلالة على أن النفقة واجبة على من يكفل الوليد في حالة وفاة أبيه، كجده، أو أخيه، أو عمه، أو غير ذلك ، فالتعبير بهذه اللفظة أشمل من التعبير بالأب.
والله أعلم.

(١) الفوائد في مشكل القرآن: ١٠٠ .
(٢) البحرالمحيط :٥٠٠/٢ .

قوله تعالى : " وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ

أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (235)" [البقرة: ٢٣٥].

الفعل (يعزم) يتعدى بوساطة حرف الجر (على) ، أما تعديته بنفسه في هذه الآية، ونصبه " عقدة " على أنه مفعول به، فلأنه ضمن معنى فعل آخر، هو(لاتنووا)، ويؤيده قوله تعالى بعد ذلك : " واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه " ، فيكون معنى الآية : لا تعزموا، ولا تنووا عقدة النكاح وهي ما به يتم ويصح حتى تنقضي العدة (١).

وقيل(٢) : إن قوله تعالى :" لا تعزموا " ضمّن معنى (لا تعقدوا) ، وقيل : إن الفعل بمعناه الأصلي، وقد حذف حرف الجر الذي يه تعدى الفعل، والتقدير: ولاتعزموا على عقدة النكاح، فهوكقول عنترة بن شداد العبسي:

ولقد أبيت على الطوى وأظلة حتى أنال به كريم المأكل (٣)

فقوله: (وأظله) أصله: (وأظل عليه)، فحذف حرف الجر،

---

(١) تفسيرالرازي: ٣/٢٣٥,٢٣٦ .

(٢) الكاشف: ١/٣٧٣٣٧٤ .

(٣) ديوان عنترة: ٢٤٩ .

وعدى الفعل بنفسه. والله أعلم.

قوله تعالى : " حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين * فإن خفتم فرجالاً أو ركبانا فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون *" [البقرة:] ٢٣٨ ٢٣٩] .
سبق أن تحدثت عن الفرق بين (إن) و) إذا ((١) ، وفي قوله : " فإن خفتم فرجالاً أو ركبانا فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون *" جاءت " إن " مع الخوف وصلاته، و" إذا " مع الأمن وذكره؛ لأن الخوف وصلاته قليل الحدوث، فناسب أن يأتي شرطها ب "إن" التي تدل على قلة حدوث فعلها وجوابها، أما الأمن وصلاته المعتادة فهما الأغلب، فاستعمل معهما " إذا " التي تدل على كثرة حصول فعلها وجوابه.
وأنبه هنا على أن الكاف في قوله: " كما علمكم ماً لم تكونوا تعلمون " تفيد التعليل، فهي بمعنى اللام، والمعنى: فاذكروا الله؛ لتعليمه إياكم ما لم تكونوا تعلمونه، وهي مثل الكاف في قوله تعالى: " واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين) [البقرة:١٩٨] .

قوله تعالى : " مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت

(١) ص104

سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم * " [البقرة ح ٢٦١]
نحن نعلم أن جمع التكسير في اللغة العربية ينقسم من حيث دلالته العددية قسمين : جمع كثرة، وجمع قلة.
وجمع القلة هو : ما دل على ما دون العشرة من العدد، وجمع الكثرة هو: ما دل على أكثر من ذلك.
ومما يدل على القلة ما جمع بألف وتاء ، إذا كان له جمع تكسير أيضاً (1)، كقولك؛ جفنة وجقنات وجفان
وفي هذه الآية التي هي محل وقفتنا قال المولى- عزوجل-: " أنبتت سبع سنابل "، ف " سنابل " جمع كثرة؛ لأنهاعلى وزن (فعالل) ، فلم عبر يصيغة منتهى الجموع عن العدد (سبعة) الذي حقه أن يعبر عنه بجمع القلة؟ أي : ب(سنبلات)، كما في سورة (يوسف) حيث قال الله تعالى: " وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضروأخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رءياي إن كنتم للرءياً تعبرون * " [يوسف : ٤٣].
قيل في سر ذلك: (إن آية البقرة مبنية على ما أعد الله للمنفق في سبيله، وما يضاعف له من أجر إنفاقه، وإن ذلك ينتهي إلى سبعمئة ضعف، وقوله : " والله يضاعف لمن يشاء " قد يفهم الزيادة على ما نص

(١) الكتاب: ١٤١/٢، المذكر والمؤنث لابن الأنباري:

.٢٠٣/١

عليه من العدد، كما أشارت إليه آيات (١) وأحاديث (٢)، فبناء هذه الآية على التكثير، فناسب ذلك ورود المفسرعلى ما هو من أبنية الجموع للتكثير لحظاً للغاية المقصودة ، ولم يكن ما وضعه للقليل في الغالب ليناسب ما تلحظ فيه الغاية من التكثير .

أما آية (يوسف) فإنما بناؤها على إخبار الملك عن رؤياه سبع سنبلات، فلا طريق هنا للحظ كثرة ولا قلة؛ لأنه إخبار برؤيا، فوجهه لإتيان من ابنية الجمع بما يناسب المرئى، وهو قليل؛ لأن ما دون العشرة قليل، فلحظ في آية (البقرة) ما بعده مما يتضاعف إليه هذا العدد، وليس في آية (يوسف) ما يلحظ، فافترق القصدان، وجاء كل على ما يجب،ويناسب،والله اعلم)(٣)

وأقول : إن سنبلة فيها مئة حبة، مع ست مثيلات لها؛ لتبدو في عين الناظر كثيرة ، فلعل هذا مما ناسب معه التعبيرعنها بجمع الكثرة، وهو " سنابل " ، ومن سياق آية سورة (يوسف) يظهر أن كل سنبلة من السنبلات المذكورة فيها هي صغيرة في حجمها، قليل حبها، فناسب التعبيرعنها مع مثيلاتها بجمع القلة : " سنبلات " ، والله أعلم .

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) البقرة :٢٤٥، الحديد :١١، التغابن :١٧ .

(٢) كما في صحيح البخاري-رحمه الله- [٢ / ٢٢١] عن أبي هريرة-رضي الله عنه أنه قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - وإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يربيها لصاحبها كما يربي آحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل) .

(٣) ملاك التأويل : ٢٧٥/١-٢٧٦ .

قوله تعالى : " قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ **(263)** " البقرة . إن ختام الآية دائم التناسق مع مبدئها ومحتواها، روي أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ قول الله تعالى : " رالسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسباً نكالاً من الله " [المائدة٣٨] ، فختمها القارىء بقوله: (والله غفور رحيم) ، فقال الأعرابي : ما هذا كلام فصيح!، فقيل له: ليس التلاوة كذلك، وإنما هي: " والله عزيز حكيم "، فقال : بخ بخ، عز، فحكم، فقطع (١) .
وحكي أن أعرابيا آخر سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى " فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم *" [البقرة : ٢٠٩]، فقرأها القارىء : (فاعلموا أن الله غفور رحيم) ، ولم يكن الأعرابي يقرأ القرآن، فقال: إن هذا ليس بكلام لله؛ لأن الحكيم لا يذكر الغفران عند لزلل؛ لأنه إغراء عليه(٢)
ولذلك في هذه الآية الكريمة الى هي محل التظرة لما كان المقام مقام تهديد لأولئك المتصدقين الذين يتبعون ما أنفقوا مناً وأذى، وهو أيضاً مقام

إشعار لهم بأن الكلام الطيب والاعتذار الحسن مع العفو عمن أساء إليهم، خير من صدقاتهم تلك، بين الله سبحانه وتعالى أنه
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) البحرالمحيط: ٢٥٥ /٤.
(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن: ٤٠/١ .

غني عن الصدقات، لن يناله منها شيء ، وإنما النفع يعود عليهم، والله تعالى مع غناه الكامل حليم على المان بالصدقات، حيث لم يوقع عليه العقوبة التي يستحقها لمنه ، ولكنه تعالى حليم يصفح مع عطائه الواسع عمن يمن بمال الله الذي استودعه إياه ٠

قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ماً كسبتم ومما أخرجناً لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد)" [البقرة : ٢٦٧].
ل**l**ا كان المقام مقاما لطلب الإنفاق من الطيبات، والله غني عن الطيب والخبيث من المال، فلا يقبل- عز وجل- الرديء من مال عبده، يقدمه عبده لنفس، فالله أحق من يختار له خيار الأشياء وأنفسها؛ لأن قابل الرديء إماً أن يقبله لحاجته إليه، والله غير محتاج لأحد، وإماا أن نفسه غير كريمة ولا شريفة، والله هو الكريم الحميد، أي المحمود المستحق للحمد كله ، فلا يقبل غير

الطيب، لما كان ذلك كذلك ناسب ختام الآية بقوله : " غني حميد " .

قوله تعالى :" يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه [البقرة:٢٨٢] .
حيث قال : " تدايتم بدين " ولذكر: " دين " فائدة عظيمة مع إغناء الفعل " تداينتم " عنها، ففائدتها لفظية ومعنوية، فاللفظية ليرجع إليه الضمير في قوله: " فاكتبوه "؛ لأنه لو لم تذكر تلك لكلمة لوجب أن يقال: (إذا تداينتم فاكتبوا الدين)، وهذاغيرحسن، فما في الآية أحسن نظماً، قاله الزمخشري(١) .
و قال الزركشي: (وهو ممنوع ؛ لأنه كان يمكن أن يعود على المصدر المفهوم من " تداينتم "؛ لأنه يدل على الدين)(٢)
أما الفائدة المعنوية فإن قوله : " تداينتم " (مفاعلة) من (الدين) ، ومن (الدين)، فمجيء قوله؛ " بدين " ليدل على أنه من(الدَّين)، لا من (الدِّين) (٣) ، وكذلك لو لم تخصص المفاعلة يقوله : " بدين" لجاز أن يقصد به المجازاة بالمودة، كما قال الراجز :
داينت أروى والديون تقضى فمطلت بعضاً وأدت بعضا (٤)
وهذا النوع من الدين لا كتابة له ، ولا شهود عليه (٥) .
وله فائدة أخرى حيث تبين تنوع الدين إلى مؤجل وحال، وأراد هنا الدين المؤجل؛ لأنه قال: " بدين

إلى أجل "
وأما فوله : "إلى أجل مسمى" فوصف لأجل المسمى؛ ليعلم أن

(١) الكشاف :٤٠٢/١.
(٢) البرهان في علوم القرآن :٣٩٨/٢ .
(٣) المصدر السابق.
(4) ديوان رؤبة بن العجاج :٠٧٩.
(5) الكشاف:٤٠٢/١.

التأجيل لا يد أن يكون وقته معلوماً ، كالتوقيت بالسنه والشهر واليوم، وليس معلقاً على مجهول (١).
وبهذه المناسبة أنبه على أن كثيراً من الناس يخلطون مصطلح (الاسم) بمصطلح (المسمى)، فيسمون كل واحد منهما باسم الآخر، فيقول أحدهم : أنا أشترك مع فلان بالمسمى، أو غير فلان مسماه إلى كذا، وهذا كله خطأ، فليس الاسم هو المسمى، ولا العكس(٢)، قال ابن السيد البطليوسي " ولو صح أن يكون الاسم هو المسمى لوجب أن يروى من قال: (ماء)، ويشبع من قال: (طعام)، ويحترق فم من قال: (نار)(٣)،ويموت من قال:(سم))(٤).
فالمسمى هو صاحب الاسم، فمثلا ٠ أداة الكتابة مسمى ، والقلم اسمها . وهكذا

قوله تعالى: " يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين

إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كماعلمه الله فليكتب

(1) الكشاف: ٤٠٢/١

(٢) التفسير القيم : ٤٧٧,٤٧٦ .

(٣) قال الشاعر:

لوأن من قال نار أحرقت فمه   لما تفوه باسم النارمخلوق

انظر: التمثيل والمحاضرة: ٢٦٤.

(٤) الاسم والمسمى لابن السيد ، تحقيق : أحمد فاروق ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق : م47، ع2، ص 230

وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا فإن كان الذي عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرئ " [البقرة : ٢٨٢] .

فيه هذه الآية وقفتان:

الأولى: أنه قد يظن ظان أن " رجلين " في قوله: " لم يكونا رجلين " تكرار لضمير التثنية في : " يكونا " حين تعرب (يكون) ناقصة، وألف التثنية اسمها، و"رجلين" خبرها ؛ لأن ألف التثنية راجعة إلى قوله .. " شهيدين من رجالكم "، و هو بمعنى:

رجلين، فكأنه قال : فإن لم يكن الرجلان رجلين..
.، وهذا محال، إذاً ما فائدة قوله: " رجلين "؟
قد أجاب بعض العلماء بإجابات كثيرة ، منها :
الأول: أن الف التثنية راجعة إلى قوله : " شهيدين
" ، وحينئذ لا يكون في الكلام تكرار؛ لأن المعنى :
فإن لم يكن الشهيدان رجلين، وهذا قول
الأخفش(١).
الثاني: أن المقصود بقوله: " رجلين " العدد
المجرد؛ فالتقدير: فإن لم يكونا اثنين، وهذ الرأي
نقل عن الأخفش أيضاً(٢).
____

(١) معاني القرآن :٢٠٤/١.
(٢) البرهان في علوم القرآن :٤٣٩/٢ .

الثالث: أن تكون (يكون) تامة، وألف الاثنين
فاعلها، و" رجلين " حالاً، فكأن المعنى: فإن لم
يوجد الشهيدان حال كونهما رجلين ...(١).
والقول الأخير هو الراجح، وتكون الفائدة من ذكر
" رجلين " حينئذ كما قال الزركشي- رحمه الله -:
(والذي يظهر في جواب السؤال هو أن " شهيدين
" لما صح أن يطلق على المرأتين، بمعنى :
شخصين شهيدين، قيده بقوله تعالى: " من
رجالكم " ثم أعاد الضمير في قوله تعالى : " فإن
لم يكونا " على الشهيدين المطلقين، وكان عوده
عليهما أبلغ ؛ ليكون نفي الصفة عنهما كما كان
إثباتها لهما، فيكون الشرط موجباً ونفياً على
الشاهدين المطلقين؛ لأن قوله : " من رجالكم "

كالشرط، كأنه قال : إن كانا رجلين، وفي النظم على هذا الأسلوب من الارتباط وجري الكلام على نسق واحد ما لا خفاء به (٢) .
الوقفة الأخرى: أن ظاهر الأمر يقتضي أن يقال : (أن تضل إحداهما فتذكرها الأخرى) ، فلماذا أعاد " إحداهماً " ظاهرة في موضع الإضمار؟
الجواب عن ذلك: أنه لو أتى بالضمير مكان الظاهر، فقال : (أن تضل إحداهما فتذكرها الأخرى) ، لعاد الضمير على الضالة، فكان المعنى: أن تضل إحداهما، فتذكرالضالة الأخرى، وذلك ليس هو
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) البرهان في علوم القرآن : ٤٣٩/٢ .
(٢) المصدرالسابق :٤٤٠/٢

المقصود، بل المراد أن الذاكرة تذكر الناسية في أي زمان، قال ابن الحاجب : (لأنها قد تكون الضالة الآن في الشهادة هي الذاكرة فيها في زمان آخر، فالمذكرة هي الضالة، فإذا قيل : (فتذكرها الأخرى) ، لم يفد ذلك، لتعين عود الضمير إلى الضالة، وإذا قيل : " فتذكر إحداهما الأخرى " كان مبهماً في كل واحدة منهما، فلو ضلت إحداهما الآن، وذكرتها الأخرى ، فذكرت، كان داخلاً، ثم لو انعكس الأمر والشهادة بعينها في وقت آخر اندرج أيضاً تحته؛ لوقوع قوله : " فتذكر إحداهما الأخرى غيرمعين، ولوقيل؛ (فتذكرها الأخرى)، لم تستقم أن تكون مدرجة تحته ألا [على] التقدير لأول ، فعلم أن لعلة هي التذكير من إحداهما

للأخرى، كيفما قدر، وإن اختلفت، وهذا المعنى لا يفيده ألا ما ذكرناه، فوجب لذلك أن يقال: " فتذكر إحداهما الأخرى"(١).

قوله تعالى : " نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل * من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام * آل عمران: ٣٤.
إن التعبير ب" نزل " يختلف عن " أنزل " إذا اجتمعا، فهما إذا اجتمعا افترقا ، وإذا افترقا يمكن أن يجتمعا ؛ فالتنزيل يقتضي نزول المنزل مفرقاً ومنجماً على أزمنة متنوعة، والإنزال يكون بإنزال المنزل كله جملة واحدة، لا تفريق فيها، ولا تنجيم.

(١) الأماني النحوية: ٤٣/١.

وأما إذ لم يجتمعا فيمكن التعبير بالتنزيل، ويراد به الإنزال، ويرد التعبير بالإنزال، ويقصد به التنزيل، وفي هاتين الآيتين اجتمعا، فورد التعبير عن نزول القرآن الكريم على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم بالتنزيل، فقال : " نزل " ، وعن نزول الكتب السابقة بالإنزال، فقال : " أنزل " ، وتعليل ذلك والله أعلم- ما قاله أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي(١) : (فقوله تعالى : " نزل عليك الكتاب " مشير إلى تفصيل المنزل وتنجيمه بحسب الدعاوي ، وأنه لم ينزل دفعة واحدة، أما

لفظ (أنزل) فلا يعطي ذلك إعطاء و نزل " ، وإن كان محتملاً، وكذا جرى في أحوال هذه الكتب؛ فإن التوراة إنما أوتيها موسى جملة واحدة في وقت واحد، وهوالمراد بقوله تعالى: " وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء فخذها بقوة) [الأعراف :١٤٥] الآية، أي المجموع، وأما الكتاب العزيز فنزل مقسطاً من لدن ابتداء الوحي.. .). انتهى كلام الغرناطي رحمه الله .

وأقول : وأماً قوله : " وأنزل الفرقان " فليس ناقضاً لهذه القاعدة؛ إذ علل بعض العلماء التعبيرعن ذلك بالإنزال بدل التنزيل بأن المقصود هنا إنزاله إلى السماء الدنيا، كما قال تعالى: " إنا أنزلناه في ليلة القدر" [القدر: ١]، وقيل(٢): إن المراد بالفرقان في الآية نصر رسولنا صلى الله عليه وسلم على أعدائه.

(١) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل : ٢٨٦/١-٢٨٧ .

(٢) كشف المعاني:١٢٤.

وأقول : إن هذا القول الأخير أرجح عندي ؛ إذ يؤيده قوله تعالى بعده : " إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد " .

ومما اجتمع فيه الفعلان، وتفرق معناهما ، قوله تعالى في سورة (محمد) : " ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر

فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت " [محمد :٢٠]، قال ابن الزبير الغرناطي (١): (ووجه ذلك - والله أعلم - أن امؤمنين هم الذين يودون نزول السورة، وطلبهم نزولها إنما هو على ما اعتادوه جارياً في غيرها من التنجيم وتفصيل النزول، فالملائم هنا عبارة التضعيف أي : نزلت-، وقوله: " فإذا أنزلت سورة " إنما المراد تحصيلها بجملتها بعد كمالها، وذلك مفهوم من سياق الكلام، والملائم - لما تحصل، وتم- عبارة الإنزال من غير تضعيف، فكل من الموضعين وارد على انسب نظم، والعكس غير ملائم، والله أعلم) . انتهى كلامه رحمه الله , وإذا انفرد أحدهما بالذكر- أعني : أنزل ، ونزل - لم يكن ممنوعاً أن يرد أحدهما بمعنى الآخر، فقول الله تعالى : " وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً * [الفرقان؛ ٣٢] التنزيل فيه بمعنى الإنزال؛ لأنه قال: "جملة واحدة" وجاء التعبير عن الإنزال بالتنزيل في قوله تعالى : " ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا ألا سحر مبين "

---

(١) ملاك التأويل:٢/١٠٢٣,١٠٢٤.

[الأنعام : ٧] فالمراد الإنزال جملة واحدة لدلالة قوله: وفي قرطاس4 ومثلها قوله: : " كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل ألا ما حرم إسرائيل على

نفسه من قبل أن تنزل التوراة " [آل عمران : ٩٣] ومعلوم أن التوراة أنزلت مجتمعة. والله أعلم.

قوله تعالى : " قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء " [آل عمران : ٢٦].
إن الأصل في الأسماء إذا ذكرت ابتداء أن تكون ظاهرة، فإذا ذكرت بعد أضمرت استغناء بالاسم الظاهر المتقدم، فتكرار الكلمة إطناب، والإيجاز يدعو إلى ضد ذلك، والإظهاريحسن في موضعه، كما هو الإضمار في موضعه .
ولكن الإظهار في موضع الإضمار أتى في القرآن الكريم كثيراً محققاً فوائد عظيمة وصلت به إلى قمة البلاغة، وتسنمت به ذرى الفصاحة وسنامها، ومن هذا الباب تلك الآية التي بين أيدينا، فتأملوا تكريره كلمة " الملك " حين قال : " تؤتي الملك " ؛ لأنه لوقال : (تؤتيه) لعاد الضميرإلى "الملك" في قوله : "مالك الملك"، وهو ملك الله، قاله ابن الخشاب(١)، ولأوهم ذلك أن الله تعالى يعطي ملكه كله من يشاء، وهذا غير صحيح، وغيرمراد، بل المراد أن الله
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) انظر : البرهان في علوم القرآن : ٤٨٨/٢ .

يعطي شيئاً قليلاً من ملكه لبعض البشر، لا ينقص ذلك مهما كثر من ملكه - تعالى - شيئاً ، أما تكرار الملك مرة ثالثة في قوله : " وتنزع الملك "

فلتعدد المالكين . والله أعلم.

قوله تعالى : " إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين *) " [آل عمران: ٤٥] .
أشكل على المفسرين الضميرالمذكر في قوله : " اسمه المسيح " كيف يعود على المؤنث ، وهو " بكلمة " (1) ، ولم لم يقل : (بكلمة منه اسمها)؟
.
والجواب على هذا الإشكال (٢) : أن المراد بقوله : " بكلمة منه " هو عيسى ابن مريم - عليه السلام — وهو مذكر، فأعاد الضمير على المؤنث مذكراً نظراً إلى المراد منه، والعرب في كلامها تغلب المذكر على المؤنث، والذي جعل ذلك الصنيع حسناً أن قوله : " اسمه " إعرابه مبتدأ، وخبره قوله : " المسيح " ، وهو مذكر، فذكر الضمير في المبتدأ؛ ليناسب الخبر، ولذلك تقول : أهديتك هدية، هي قلم، لكن احسن منه ان قول؛ أهديك هدية ، هو قلم

(١) انظر : معاني القرآن وإعرابه :٤١١/١، إعراب القرآن للنحاس : ٣٣٢/١ . (٢) انظر : حقائق التأويل في متشابه التنزيل للشريف الرضي :

وكما أشكلت هذه الآية على المفسرين أشكلت

أيضاً على النحاة(١) ؛ لأنهم يقولون: إذا اجتمع اسم ولقب قدم الاسم وجوباً، فتقول؛ هو محمد بن عبدالله الهاشمي صلى الله عليه وسلم، ولا يصح أن تقول: هو الهاشمي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، كما يفعل إخواننا أهل المغرب العربي حين يقولون : الناصري علي، وفي ظاهر هذه الآيه أنه قدم اللقب، وهو "المسيح" على الاسم " عيسى " ، وقد حاول النحاة تخريج هذه الآية على عدة تخريجات : أصحها أن المسيح ليس لقباً لعيسى - عليه السلام - وإنما هو اسم له .

وأعجب كيف ذهب النحويون في هذه الآية كل مذهب ، والله تعالى يقول؛ " اسمه المسيح " فهذا نص من الله تعالى على ان المسيح اسم لعيسى - عليه السلام - ، فهل اسمه مركب كما يفعل كثيرمن المسلمين عرباً وغير عرب؟ ربما يكون ذلك ، لكن الراجح عندي أن لعيسى - عليه السلام - أكثر من اسم، كما كان لرسولنا صلى الله عليه وسلم أكثر من اسم، حيث كان يسمى محمداً، وأحمد، وطه، وغيرها

أما قوله : "ابن مريم " فله فائدة عظيمة، فمع أن مريم لا تحتاج إلى أن تخبر انه ابن لها؛ لعدم الشك في بنوته لها، لكنه مع ذلك نص عليها، وفائدة هذا النص أن العرف جرى على أن ينسب الولد إلى أبيه لا إلى أمه، فنسبته إلى أمه إعلام لها بأنه يولد من غير أب، وهذه خصيصة يخص الله تعالى يها مريم، تطهيرها واصطفائها بهذه المكرمة

(١) البحر المحيط : ٣/١٥٤

العظيمة، قال الله تعالى : " وإذ قالت الملائكة يا مريم إل الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين " [آل عمران: **42**] .

قوله تعالى: " قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وماً الله بغافل عماً تعملون * [آل عمران:٩٩]٠
سبيل الله هو دين الإسلام، أما صد أهل الكتاب عن سبيل الله فقد قيل فيه:
إنهم يحتالون لصد من أراد الدخول في الإسلام عن ذلك، وهذا التأويل يصح عند تأويل " من آمن " بمن أراد الإيمان.
وأحسن من هذا اتفسير أن يقال إنهم يحاولون افتتان المسلمين بأن يثيروا ما بينهم من عداوات جاهلية، كما كان اليهود يفعلون مع الأوس والخزرج، أو بأن يشككوا في دين الإسلام وبالرسول صلى الله عليه وسلم إذ كانوا يقولون: إن صفته - عليه السلام - ليست في كتابهم، ولا تقدمت البشارة به - عليه الصلاة والسلام - في كتابهم.
والذي أريد أن ألفت إليه الأنظار في هذه الآية هو قوله: " تبغونها عوجا "، فالضمير يعود على " سبيل الله " والسبيل يذكر ويؤنث، وهذه الآية شاهد على تأنيثه، ومثلها قوله تعالى : " قل هذه

سبيلي " [يوسف: ١٠٨ [ومن التذكير قوله تعالى:
" وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن
يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا
بآياتناً وكانواعنها غافلين * "] الأعراف: ١٤٦ [
والأصل أن يقال : (تبغون لها عوجاً) ؛ لأن الفعل
(بغى)غير متعد بنفسه، لكن عدل عنه إلى ما
هوأبلغ، فإن المعنى مع تقديرحرف الجر هو:
تطلبون لها اعوجاجاً، فيكون " عوجا " مفعولاًبه،
لكن ما ورد في الآية من حذف اللام، وجعل
الضمير مفعولا به، وجعل " عوجا " حالاً أكمل في
المعنى، حيث إنهم يريدون أن تكون الطريقة
المستقيمة المشهود لها بالعدل العوج نفسه، كما
تقول: عمرعدل؛ فهو أبلغ من قولك: عمرعادل ؛
ففي المثال الأول كأن عمر صار العدل كله، وهكذا
شأن أهل الكتاب يريدون من الإسلام أن يكون
العوج كله، لا أن يكون معوجاً فقط . والله أعلم.

قوله تعالى : " كنتم خير أمة أخرجت للناس
تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله
ولوآمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون
وأكثرهم الفاسقون* " [آل عمران: ١١٠ [.
عد يعض المفسرين والنحاة (كان) ههنا زائدة (١)،
وجعل المعنى : أنتم خير أمة خرجت للناس،
وبعضهم جعله بمعنى (صار) ، أي : صرتم خير أمة
أخرجت للناس. وهذان القولان غير حسنين ؛
فادعاء زيادتها خطأ واضح؛ لأن
□□

(١) البحرالمحيط:٣/٣٠٠.

(كان) لا تزاد في أول الكلام (١)، وأما جعلها بمعنى (صار) فمعناها : أنهم لم يكونوا خير أمة للناس، ولكنهم صاروا فيما بعد، وهو صحيح لو أريد بهذه الأمة العرب، أما والمراد بها المسلمون فالمعنى غير مستقيم .

ولعل الصحيح- والله أعلم - أن " كان " على معناها الأصلي مع إفادة معنى الدوام، أي : كنتم في سابق علم الله، أو يوم أخذ الله المواثيق على الذرية، خير أمة أخرجت للناس، ولا تزالون كذلك، فتفيد (كان) هنا أن خيريتهم على الناس صفة أصيلة بهم، لا عارضة متجددة.

قوله تعالى : " فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين * " [آل عمران : ١٥٩]
قبل الإبحار بسفينة التأمل في هذه الآية الكريمة يجدر بي أن أتناول آراء العلماء في القول بوقوع الزيادة في القرآن الكريم، فأقول : اختلف العلماء في القول بوقوع الزيادة في القرآن الكريم، وفي تسميتها، سواء وقعت بالحرف، أم بالفعل؛
فالبصريون يجيزون وقوعها، ويسمونها (زيادة ، أو لغواً) ، والكوفيون يجيزون أيضاً وقوعها، ويسمونها (صلة، أوحشواً).
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك:٨٣.

والعلماء في القول بوقوع الزيادة في القرآن فريقان (١) :
فريق ينفيه كالمبرد و ثعلب وابن السراج، قال الشريف الرضي (٢) : (وأقول : إن لأبي العباس المبرد مذهباً في جملة الحروف المزيدة في القرآن ، أنا أذهب إليه، وأتبع نهجه فيه، وهواعتقاد أنه ليس شيء من الحروف جاء في القرآن إلا لمعنى مفيد، ولا يجوز أن يكون لقى مطرحاً، ولا خالياً من الفائدة صفراً، وذلك أن الزيادات والنقائص في الكلام إنما يضطر إليها، ويحمل عليها الشعرالذي هو مقيد بالأوزان والقوافي. . . فأما إذا كان

الكلام محلول العقال، مخلوع العذار، ممكناً من الجري في مضماره، غير محجوز بينه وبين غاياته، فإن شاء صاحبه أرسل عنانه، فخرج جامحاً، وإن شاء فدع لجامه [أي: كبحه] ، فوقف جائحاً، لا يحصره أمد دون أمد، ولا يقف به حد دون حد ، فلا تكون الزيادات الواقعة فيه ألا عياً واستراحة ولغوباً وإلاحة، وهذه منزلة ترفع عنها كلام الله سبحانه الذي هو المتعذر المعوز، والممتنع المعجز) .

والفريق الثاني : يثبت الزيادة في القرآن الكريم، وهم أكثر المفسرين والنحاة والفقهاء، وإن كره اسمها بعضهم، كابن هشام الذي يقول : (وينبغي أن يتجنب المغرب أن يقول في حرف في كتاب الله تعالى : إنه زائد؛ لأته يسبق إلى الأذهان أن الزائد هو الذي لا معنى له، وكلام

(١) انظر : البرهان في علوم القرآن للزركشي:٧٢/٣-٧٣ .

(٢) حقائق التأويل في متشابه لتنزيل: ١٦٥,١٦٦ .

الله سبحانه منزه عن ذلك) **(1)** .

وهذا الفريق صنفان : صنف يجعل وجود الزائد كالعدم ، ولاشك في أن هذ قول فاسد لا يصح ، وهو الذي جعل النافين يشنعون على المثبتين إثباتهم الزيادة في القرآن ، كما فعل الشريف الرضي آنفاً ؛ لأنهم يعتقدون أن الزائد ليس له فائدة في الإعراب ولا في المعنى، ولا شك في أن

الحكم بوجود زيادة في القرآن الكريم على هذا التعريف لها - وهو : ما لا تأثير للمزيد في الإعراب ولا في المعنى-غيرصحيح.
والصنف الثاني : يجعل الزائد غير مؤثر في الإعراب فقط، أما في المعنى فلا يكتفي بإثبات معنى له، بل يجعل له معنى زائداً في الجملة عليها لو خلت منه .
قال ابن يعيش : (وقد أنكر بعضهم وقوع هذه الأحرف زوائد لغير معنى؛ إذ ذلك يكون كالعبث، والتنزيل منزه عن مثل ذلك.
وليس يخلو إنكارهم لذلك من أنهم لم يجدوه في اللغة، أو لما ذكروه من المعنى، فإن كان الأول فقد جاء منه في التنزيل والشعر مالا يحصى ، وإن كان الثاني فليس كما ظنوا؛ لأن قولنا : (زائد) ليس المراد أنه قد دخل لغير معنى البتة، بل يزيد لضرب من التأكيد، والتأكيد معنى صحيح، قال سيبويه (٢) عقيب " فما نقضهم ميثاقهم" [المائدة؛

(١) الإعراب عن قواعد الإعراب: ١٠٨.
(٢) الكتاب:**1/92 2/305**

١٣] ونظائره : فهو لغو من حيث إنها لم تحدث شيئاً لم يكن قبل أن تجيء ، من المعنى سوى تأكيد الكلام) (١).
ومما سبق يتبين أن سبب الخلاف في إثبات وقوع الزيادة أو الصلة في كتاب الله تعالى راجع-

ككثيرمن الأشياءالمنفية عن القرآن الكريم كالمجاز مثلاً إلى الاختلاف في تعريف الزائد، فمن عرفه بأنه : (ما ليس له أثر في الاعراب ولا المعنى) - نفى وقوعه، وأماا من عرفه بأنه: (ما لا أثر له في الإعراب، وله أثر في المعنى) . أجاز وقوعه، وهو الصحيح، فمما لا شك فيه أن الحرف الزائد لا يؤثر في الإعراب، أما تأثيره في المعنى فيتضح في الآيات التي قيل فيها بالزيادة، كهذه الآية التي بين أيدينا: " فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين * " [آل عمران : ١٥٩] .

فإن " ما " في قوله : " فبما رحمة " زائدة ، ومعنى لآية : ما لنت لهم إلا برحمة عظيمة من الله (٢) ، ولو لم تزد " ما " لجاز أن يكون اللين حاصلاً بسبب الرحمة وغيرها، أما وقد زيدت فيه " ما " فقد نابت هنا عن نفي وإثبات، وأفادت الحصر، فقطعت بأن للين لم يكن ألا بسبب الرحمة، وهذا يدل على أن للزائد معنى زائداً، وأنه ليس مهمل المعنى، ولذلك رد أبوحيان - رحمه الله - على الرازي إنكاره

---

(١) شرح المفصل:٨/١٢٨-١٢٩.

(٢) البرهان في علوم القرآن : ٣/٧٢.

جعل "ما " ههنا زائدة، حيث كان الرازي يرى أن

دخول اللفظ المهمل الوضع في كلام أحكم الحاكمين غير جائز (١)، لكن المحققين يخالفونه في هذا، ومنهم أبوحيان الذي خالفه قائلا(2) : (وما قاله المحققون صحيح، لكن زيادة "ما" للتوكيد لا ينكره في أماكنه من له أدنى تعلق بالعربية فضلاً عن من يتعاطى تفسير كلام الله، وليس (ما) في هذا المكان مما يتوهمه أحد مهملاً) . انتهى كلامه.

والرأي المتناقض للفريقين في هذه الآية يوضح أن السبب في ذلك هو ما ذكرته آنفاً من أن سبب الاختلاف في الجواز وعدمه راجع إلى الاختلاف في المراد بالزيادة.

قوله تعالى: " لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (164) [آل عمران: ١٦٤].

" المن " صفة مدح وصفة ذم، فهي في حق الله تعالى مدح، فمن الله ابتداؤه وتفضله بالنعم العظيمة من غير ان يعتد سبحانه وتعالى بمقابلتها من خلقه بمثلها، فهو يحسن إلى من لا يستثيبه، ولا يطلب منه الجزاء عليه، وهذا النوع لا يكون إلا بالأفعال، فلا يصاحبه من قولي، وهذا النوع خاص بالله جل وعلا.

(١) تفسير الرازى :٥١/٩.

(٢) البحر المحيط:٤٠٧/٣-٤٠٨.

ويكون المن في حق غيرالله تعالى ذماً ؛ لأنه القول أوالفعل المشعر بتعالي صاحب الفضل على المفضل عليه تعظيم إحسانه إليه، وفخره به، وتذكيره إياه، وأن يبدى فيه، ويعيد حتى يفسده، ويبغضه إليه، ومن هذا النوع قوله تعالى : " الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون * " [البقرة : ٢٦٢]
وعوداً على بدء أقول: إن قوله تعالى في الآية لأولى: " رسولاً من أنفسهم " غاية في روعة التعبير، فقوله : " من أنفسهم " يدل على القرب والخصوص الحقيقيين؛ لأن قولك: محمد من أنفس المؤمنين، يدل على أنه من خاصتهم، وأنه قريب جدا منهم، لا أنه منتسب إليهم انتساباً قد يكون مجازياً مراداً به التشريف، كقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (سلمان من أهل البيت)(١) ، فالرسول صلى الله عليه وسلم من أقرب المقربين إلى المؤمنين، ولذلك لما كان الحديث غير خاص بالمؤمنين في قوله تعالى : " هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين * " [الجمعة : ٢]، لم يقل فيها : (من أنفسهم)، وإنما قال: " منهم "؛ لأن الكلام عن العرب عامة، لا عن المؤمنين خاصة، قال أحمد بن إبراهيم الغرناطي (٢) " إن قولك: فلان من أنفس القوم، أوقع في القرب

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٥٩/١/٤،
والحاكم في المستدرك ٥٩٨/٣ ، والذهبي في سير
أعلام النبلاء ٥٤٠/١، وقال عنه الذهبي : سنده
ضعيف .
(٢) ملاك التأويل :٣٢٢,٣٢١/١.

والخصوص من قولك : فلان منهم؛ فإن هذا قد
يراد للنوعية، فلا يتخلص لتقريب المنزلة والشرف
إلا بقرينة، أما (من أنفسهم) فأخص، فلا يفتقر إلى
قرينة، ولذلك وردت حيث فصد التعريف بعظيم
النعمة به صلى الله عليه وسلم على أمته، وجليل
إشفاقه، وحرصه على نجاتهم ، ورأفته ورحمته
بهم ، فقال تعالى : " لقذ جاءكم رسول من أنفسكم
[التوبة : ١٢٨]، وقال تعالى في من كان على
الضد من حال المؤمنين المستجيبين : " ولقد
جاءهم رسول منهم فكذبوه " [النحل: ١١٣]
فتأمل موقع قوله هنا : " منهم " لما قصد أنه
إنعام عليهم لم يوفقوا لعرفة قدره، ولا للاستجابة
المثمرة النجاة ...).

قوله تعالى : " وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا
الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه
كان حوبا كبيرا * " [النساء: ٣٢]
عدى الفعل " تأكلوا " إلى مفعول ثان هو" أموالكم
" ب " إلى " ؛ لأنه ضمنه معنى فعل أخر هو
(يضم) ، فالمراد به هنا (لا تضموا)(١) .

ويكون معنى الآية: ولا تأكلوا، ولا تضموا أموالهم إلى أموالكم(٢)، ولو لم يؤت ب (إلى) ما كان النهي ألا عن الأكل فقط، وما دخل في المنهي عنه الضم الذي قد يوقع في الإنفاق من أموال اليتامى لالتباس المنفق بأنها من أمواله، فهذا من النهي عن مقاربة
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) تفسير الرازي: ١٣٨/٩.
(٢) الكشاف: ٤٩٥/١ .

المحذورات خشية الوقوع فيها.
وههنا إشارة لطيفة إلى قوله : " ولا تأكلوا " ، فالنهي فيها إنما هو عن مس مال اليتيم بأي وجه من الوجوه غير الجائزة، سواء أكان بالأكل أم اللباس أم النكاح أم غيرها، لكن خص الأكل بالتنبيه عليه؛ لان العرب كانت تكره الإكثار من الأكل، وتذم به، قال الشاعر :
إذا ما الفتى لم يبغ إلا لباسه ومطعمه فالخير منه بعيد(١)
وتعد البطنة من البهيمية، وتعيب على من اتخذها ديدنه، فقالت : (فلان عبد بطنه) (٢) وقال بعض الحكماء عن صاحب له : (عظمه في عيني صغر الدنيا في عينيه؛ كان خارجاً من سلطان بطنه؛ فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يكثرإذ وجد) (٣) . وقال أمير المزمنين عمر ين الخطاب - رضي الله عنه - في بعض خطبه : (إياكم والبطنة؛ فإنها مكسلة عن العبادة، مفسدة للجسم، مؤدية للسقم، وعليكم

بالقصد في قوتكم؛ فإنه أبعد من السرف، وأصح للبدن، وأقوى للعبادة، وإن العبد لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه)(٤) ، وقال عبدالله بن الزبير الأسدي:

فلا تكونن كمن ألقتة بطنته   بين القريتين حتى ظل مقرونا(٥)

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) عيون الأخبار: ٢٣٨/١، محاضرات الأدباء: ١٦٩ .

(٢) التمثيل والمحاضرة:٣١٩.

(٣) محاضرات الأدباء: ١٣٤ .

(٤) المجتنى لابن دريد: ٣٨، التذكرة الحمدونية: ١٢٤/١ .

(٥) شعره: ١٣.

وكانت العرب تفخر بعدم الجشع في الأكل، قال الشنفرى :

وان مدت الأيدي إلى الزا دلم أكن   بأعجلهم إذأ جشع الناس أعجل(١)

ولذلك غضب الزبرقان بن بدر-رضي الله عنه-(٢) من قول الحطيئة :

دع المكارم لا ئرحل لبغيتها   وافعد فإنك أئت الطاعم الكاسي(٣)

وقال الأعشى:

يا بني المنذر بن عبدان والبطئه مما يسفه الأحلاما (٤)

وقال معاوية بن أبي سفيان-رضي الله عنهما - :

(البطنة تأفن الفطنة)(٥) ، وقال عمرو بن العاص لمعاوية - رضي الله عنهما يوم الحكمين : (أكثر لهم من الطعام؛ فوالله ما بطن قوم ألا فقدو بعض عقولهم)(6).

وقال حميد :

أتانا ولم يعدله سحبان وائل بيانا وعلماً بالذي هوقائل

فما زال عنه اللقم حتى كأئه من العي لما أن تكلم باقل (٧)

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) شرح لامية العرب : ٥٣ .

(٢) الشعروالشعراء :١/٣٢٨.

(٣) ديوانه : ٥٠.

(4) ديوانه: ٢٩٧، اللسان: (بطن)١٣/٥٣ .

(٥) الزاهر لابن الأنباري: ١/٥٦٣،مجمع الأمثال: ١/١٠٦، أمالي ابن الشجري: ٢/٤٩٩.

(٦) فصل المقال في شرح كتاب الأمثال: ٤٠٩ .

(٧) ديوان حميد بن ثور الهلالي : ٣٠٦،أمالي ان الشجري : ٢/٤٩٩ .

وقال الإمام الشافعي-رحمه الله-: (ما شبعت منذ ست عشرة سنة؛ لأن الشبع يثقل البدن، ويزيل الفطنة، ويجلب النوم، ويضعف صاحبه عن العبادة)(١).

وليس كذلك سائر الملاذ عند العرب؛ فإنهم ربما يتفاخرون بالإكثار من النكاح، ويعدونه من زينة الدنيا، فكانت إياد تفخر على العرب، وتقول : منا

أجود الناس كعب بن مامة، ومنا أشعر الناس أبو دواد، ومنا أنكح الناس ابن ألغز(٢).

وقال النابغة الجعدي رضي الله عنه :

فما وجدت فرقة عربية كفيلأ دنا منا أعز وأنصرا

وأكثر منــــــا ناكحاً أصيبت سباء أو أرادت تخيرا(٣)

فلما كان الأكل عندهم أقبح الملاذ خص بالنهي عنه في الآية؛ لتنفر النفس منه بمقتضى طبعها المألوف، فيجرها ذلك إلى النفور من صرف مال اليتيم في سائر الملاذ الأخرى(4).والله أعلم.

قوله تعالى : " الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا " [النساء: ٧٦] .

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) التذكرةالحمدونية: ١/٢٠٩.

(٢) الأغاني:16/48

(٣) شعره: ٦٧ .

(٤)انظر: الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال :١/٤٩٥.

توطئة :

إن المتأمل كتاب الله تعالى يجد فيه (كان) واردة على خمسة معان(١)،هي:

المعنى الأول (كان) التي تدل على حصول ما

دخلت عليه في الزمن الماضي ثم انقطاعه.
وهذا هو الأصل في معانيها، وهي (كان) الناقصة التي ترفع المبتدأ، وتنصب الخبر، مثل قولك؛ كان المطر نازلاً، فنزول المطر كان في زمن مضى، وانقضى، أما في وقت التكلم فالمطر منقطع، ومنه قوله تعالى : " وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون " [النمل: ٤٨]، وقوله : " أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون * "] البقرة: ٧٥ [
المعنى الثاني: (كان) التي تدل على الدوام، وعلى استمرر مضمون خبرها في جميع الأزمنة، فلا يجوز أن تجعل ما حصل مضمون خبرها في الزمن الماضي، ثم انقطع، ولوجاءت بلفظ الماضي فهي ترادف قولك: (لم يزل)، وأكثرما يكون هذا المعنى في(كان) الداخلة على صفات الله؛ لأن صفاته مستمرة غير منقطعة، ومن هذا
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) انظر: الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: ٢٦١,٢٦٢، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر: ٥١٧ - ٥١٩ .

النوع قول الله تبارك وتعالى : " وكان الله سميعاً بصيرا " [النساء : ١٣٤] وقوله: فووكان الله غفوراً رحيما [النساء: ٣٩٦، وقوله: " إن الله كان عليكم رقيباً " [النساء : ١] فالله كان سميعاً بصيراً، وغفوراً رحيماً، ورقيباً ، في الزمن الماضي،

ولم يزل كذلك، وسيدوم عليه.
وقد وردت (كان) الدالة على الدوام في غير صفات الله تعالى، كقوله تعالى : " ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلاً * " [النساء؛ ٢٢] وقوله : " إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً * " [الإنسان : ٢٢] ومنه قول الشاعر قيس بن الخطيم :
وكنت امرءاً لا أسمع الدهر سبة   أسب بها إلا كشفت غطاءها(١)
فقوله: (الدهر) يدل على إرادته ب(كنت) الدوام ٠
المعنى الثالث: (كان) بمعنى (صار)، أي: تحول من حال إلى حال، كقوله تعالى: "إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر"(القمر ٣١] أي: صاروا كهشيم الـمحتظر، وقوله؛ " وإذ قنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين "] البقرة؛ ٣٤ [أي: صار منهم؛ لأنه قبل الأمر بالسجود لم يكن منهم، ومنه قوله تعالى : " وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتيع الرسول ممن ينقلب على عقبيه" [البقرة: ١٤٣] ف " كنت

(1) ديوانه : 10

عليها " بمعنى : صرت عليها؛ لأن تحويل القبلة هو الذي حصل فيه الامتحان، ومنه قول الشاعر

عمروبن أحمر:

بتيهاء قفر والمطي كأنها   قطا الحزن قد كانت فراخاً بيوضها(١)

المعنى الرابع:(كان) الدالةعلى الزمن الحاضر، كقوله تعالى؛ " إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا " [النساء : ١٠٣]، وقوله : " ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر " [البقرة : ٢٣٢] ٠

المعنى الخامس: (كان) الدالة على الاستقبال، كقوله تعالى: " يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً *أً" [الإنسان: ٧] أي : سيكون شره مستطيراً، وقوله : " ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولنك كان عنه مسئولاً * " [الإسراء : ٣٦]، أي : سيسأل عنه .

تلك معاني (كان) الداخله على الجملة الإسمية المكونة مما أصله المبتدأ والخبر٠

وتستعمل(كان) تامة كغيرها من الأفعال المتصرفة ، فتكون بمعنى (وجد، وحصل) ، فترفع فاعلاً، ومنها في القرآن الكريم قوله تعالى : " وقاتلوهم حتى لا تكون فتة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان ألا على الظالمين * " [البقرة: ١٩٣]

وقوله: ووإن كان ذو عسرة فنظرة إلى

(١) ديوانه :١١٩ .

ميسرة ه [البقرة : ٢٨٠]، أي: إن وجد ذو عسرة: وعوداً إلى آية سورة النساء التي هي موضوع

النظرة نجد أن " كان " فيها تدل على الدوام؛ فكيد الشيطان ضعيف في كل زمن، ولا يصح أن تبقى (كان) على معناها الأصلي؛ لئلا يكون المعنى: كان كيد الشيطان ضعيفاً في الزمن الماضى، أما الآن فهو قوي.

وقيل : إن (كان) هنا بمعنى (صار)، فالتقدير: صار كيد الشيطان ضعيفاً بعد الإسلام (١). والله أعلم.

وقد وسوس الشيطان إلى أبي الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي، فزين له قوته؛ فادعى أن كيد الشيطان ليس ضعيفاً؛ وهو الذي قال الله تعالى عنه : واستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله " [المجادلة :١٩] وقال : " وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل " [النمل: ٢٤] فزعم ابن الراوندي أن من يستحوذ عليه وعلى قلبه، ويصده عن دينه، كيف يكون ضعيفاً ؟

.

ومن المعلوم أن ابن الراوندي زنديق خبيث(٢) عارض القرآن الكريم، وطعن فيه ، فردعليه كثيرمن العلماء.

وقد أجاب الفخر الرازي - رحمه الله - عن هذا الاعتراض : (أن

---

(١) البحرالمحيط :٧١٢/٣ .

(٢) ما أصدق هذا الخبيث حين قال عن نفسه :

وكنت فتى من جند إبليس فارتمى   بي الحال
حتى صار إبليس من جندي
فلو مات قبلي كنت أحســـن بعده   طرائق

فسق ليس يحسنها بعــــــدي
انظر :تفسير الرازي :١٨/٩٤.

المراد بأن كيد الشيطان ضعيف، أنه لا يقدر على أن يضر، وإنما يوسوس، ويدعو فقط، فإن اتبع لحقت المضرة، وإلا فحاله على ما كان، فهو بمنزلة فقير يوسوس لغني في دفع ماله إليه، وهو يقدر على الامتناع، فإن دفعه إليه فليس ذلك لقوة كيد لفقير، لكن لضعف رأي المالك"(١) .

قوله تعالى : وإن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً * إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً " [النساء : ١٤٥ **146**] .
تأمل هاتين الآيتين العظيمتين تدرك أن الله تعالى جعل المنافقين شراً من شر الكافرين كآل فرعون ؛ لأنه جعلهم في الدرك الأسفل من النار، وجعل أولئك في أشد العذاب حيث قال : " النار يعرضون عليها غدو وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب * " [غافر: ٤٦]
وذلك أنهم جمعوا إلى الكفر الاستهزاء بالإسلام وأهله، وبسبب أنهم لما كانوا يظهرون الإسلام يمكنهم الاطلاع على أسرار المسلمين، ثم يخبرون الكفار بذلك ، فكانت تتضاعف المحنة من هؤلاء المنافقين، فلهذا جعل الل‍ه عذابهم أزيد من عذاب الكفار(٢) ، وأغلظ في شروط

(١) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : ٣٨٥ .
(٢) تفسير الرازي: **70-11/69**

توبتهم: التوبة، والإصلاح، والاعتصام بالله، وهو أن يكون غرضه من التوبة وإصلاح العمل طلب مرضاة الله تعالى، لا طلب مصلحة الوقت ؛ لأنه لو كان مطلوبه جلب المنافع ودفع المضار لتغيرعن التوبة وإصلاح العمل سريعاً ، أما إذا كان مطلوبه مرضاة الله تعالى وسعادة الآخرة والاعتصام بدين الله بقي على هذه الطريقة، ولم يتغير عنها(١).
والشرط الرابع : إخلاص الدين لله، ولم يشترط ذلك على غيرهم؛ لأن المنافقين كانوا قد أفسدوا، وخانوا الله، ولم يخلصوا دينهم لله، بل نافقوا، والنفاق ذنب القلب، والإخلاص توبته، ثم قال الله تعالى: " فأولئك مع المؤمنين ولم يقل : (فأولئكهم المؤمنون)(٢)؛ لتكون محصلة أمرهم الشهادة الظاهرية لهم بالإيمان فقط . والله أعلم.

[image]

[image]

قوله تعالى : " يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيءعليم *" [النساء : ١٧٦]

قد سبق الحديث عن استعمال (إن) الشرطية مع بعيد الحصول(٣)، لكن قد يعترض معترض بهذه الآية، فيقوم : إن الله تعالى قال: " إن

(١) تفسيرالرازي: ٧٠/١١
(٢) تأويل مشكل القرآن :٠٧
(٣) ص: ٠١٠٤

امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ماً ترك " والهلاك محقق، فهل (إن) تستعمل أيضاً في المؤكد الوقوع ؟
أجاب ابن القيم- رحمه اطه- عن هذا الإشكال، فقال (١): (التعليق ليس على مطلق الهلاك، بل على هلاك مخصوص، وهو هلاك لا عن ولد "، فهو تعليق على شرط قد يكون بعيد الوقوع حيث يموت ميت ليس له ولد، وله أخت، وكذلك سائر

الشررط في الآية . والله أعلم.
وعن قوله تعالى في هذه الآية: " فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مماا ترك " قال أبو يعلى زكرياً بن يحيى بن خلاد : حدثني أبو عثمان المازني، قال : سأل مروان بن سعيد المهلبي أبا الحسن الأخفش عن قوله - جل وعز-:" فإن كانتا اثنتين" أليس خبر (كان) يفيد معنى ليس في اسمها؟، قال: نعم(٢) ، قال: فأخبرني عن: " كانتا اثنتين " أليس قد أفاد بقوله معنى ما أراد؟ ، فلم يحتج إلى الخبر؟ ، أي : أن الألف في " كانتا " تفيد التثنية، فلأي معنى فسر ضمير المثنى بالاثنين؟ ونحن نعلم أنه لا يجوز أن يقال : فإن كانتا ثلاثاً، ولا أن يقال : فإن كانتا خمساً.
فقال الأخفش : إنما أراد : فإن كان من ترك اثنتين، ثم أضمر (من) على معناها ، قال : فبإضماره (من) على معناها أفاد معنى ما أراد،

(١) بدائع الفوائد: ٤٨/١
(٢) قال الشيخ إبراهيم ن يوسف: (الصواب الإجابة ب(بلى) ؛ لأن الإجابة ب(نعم) إيجاب للنفي، وتقرير له، وليس ذلك هو المراد هنا) .

فأفاد العدد المجرد من الصفة،أي: قد كان يجوز أن يقال : فإن كانتا صغيرتين فلهما كذا، أو : صالحتين فلهما كذا، وإن كانتا كبيرتين فلهما كذا، فلما قال: " فإن كانتاا اثنتين فلهماً الثلثان " أفاد الخبر أن فرض الثلثين للأختين تعلق بمجرد

كونهما اثنتين فقط على أية صفة كانتا عليها من كبر أو صغر، أو صلاح أو طلاح، أو غنى أو فقر، فقد حصل من الخبر فائدة لم تحصل من ضمير المثنى(١) ٠

قال أبو محمد الحريري - رحمه الله - : (ولعمري لقد أبدع مروان في استنباط سؤاله، وأحسن أبو الحسن في كشف إشكاله)(٢) .

وقال ابن الحاجب -رحمه الله- : (وأولى من ذلك أن يقال : الضمير في " كانتا "عائد على الكلالة، والكلالة يكون واحداً واثنين وجماعة، فإذا أخبر باثنين حصلت به فائدة ، ثم لما كان الضمير الذي في (كانت) العائد على الكلالة، هو في المعنى اثنين، صح تثنيته، فإذن تثنيته فرع عن الإخبار باثنين؛ إذ لولاه لم يصح أنه لم تستفد التثنية إلا من قولك:اثنين....٠(٣).

وقد نقل الزركشي -رحمه الله- عن ابن الضائع أبي الحسن علي بن محمد الكتامي الإشبيلي النحوي أن المراد بالآية : (فإن كانتا اثنتين فصاعداً)، فعبر بالأدنى عنه وعما فوقه (٤).

---

(١) مجالس العلماء: ٧٦-٧٧ ، درة الغواص في أوهام الخواص: ٣٦-٣٧ ، نزهة الأنباء فى طبقات الأدباء: ١٣٤,١٣٥٠.

(٢) درة الغواص في أوهام الخواص: ٣٧.

(٣) الأمالي النحوية من القرآن الكريم: ٥٠/١ .

(٤) البرهان في علوم القرآن: ٤٣٩/٢ .

قوله تعالى : " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم * " [المائدة: ٣٣]

الإكمال يكون بإزالة النقص العارض، والإتمام يكون بإزالة بعض النقص في الأصل، وقد ورد في الآية إكمال الدين وإتمام النعمة؛ فالنقص في الدين كان عارضاً، فزال بعد الإكمال، وأما نقصان النعمة فشيء لا بد منه، ولا يمكن أن تكمل نعمة، فإذا ملك الإنسان المال فقد يحرم الصحة، وقديماً قيل : (ليس تكاد الدنيا تسقي صفواً إلا اعترض في صفائها أذى باطن)(١).

وقال ابن عبد ربه الأندلسي.

ألا إنما الدنيا نضارة أيكة   إذا اخضر منها جانب جف جانب(٢)

وقال قيس بن الخطيم:

ومن عادة الأيام أن خطوبها   إذا سرمنها جانب ساء جانب(٣)

ولذلك استعمل الإتمام مع النعمة في قوله تعالى : " ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون [البقرة: **150**]، وقوله تعالى: "لكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون " [المائدة : ٦] .

وقوله : " ويتم

(١) **1**لمجتبى لابن دريد: ٦٢

(٢) العقد الفريد:٣/١٧٠.

(٣) ديوانه :١٦٢.

نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم " [يوسف : ٣٦] وقوله: " كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون " [النحل: ٨١] وقوله : " ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما " [الفتح: ٣٢]

والشعراء لا تستعمل مع النعمة ألا الإتمام أيضاً، قال عدي بن الرقاع العاملي:

صلى الإله على امرئى ودعته   وأتم نعمته عليه وزادها(١)

وقال جرير:

أتم الله نعمته عليكم   وزاد الله ملككم تماما(٢)

وقال علي بن الجهم:

أتم الله نعمته عليه   فإن تمامها نعم علينا(٣)

وقال أبو قابوس العبادي يمدح يحيى بن خالد البرمكي:

رأيت يحيى أتـــم الله نعمتـــــه   عليـــه يأتي الذي لم يأته أحــد

ينسى الذي كان من معروفه أبداً   إلى الرجال ولا ينسى الذي يعد(٤)

وقال الأخطل:

بني أمية نعماكم مجللة   تمت فلا مئة فيها ولا كدر(٥)

---

(١) ديوان شعره : ٩١.

(٢) ديوانه : **505**

(٣) ديوانه: ١٨.
(٤) معجم الشعراء للمرزباني: ٢١٩، التذكرة الفخرية: ٤٦٦.
(٥) شعره: ٢٠٢/١.

فالإكمال في اللغة إذاً أعظم من الإتمام .
وقد وقف ابن القيم- رحمه الله تعالى -أمام هذه الآية العظيمة وقفة تأمل، فقال : (تأمل حسن اقتران التمام بالنعمة، وحسن اقتران الكمال بالدين، وإضافة الدين إليهم؛ إذ هم القائمون به المقيمون له، وأضاف النعمة إليه؛ إذ هو وليها ومسديها والمنعم بها عليهم، فهي نعمة حقاً، وهم قابلوها .
وأتى في الكمال باللام المؤذنة بالاختصاص، وأنه شيء خصوا به دون الأمم، وأتى في إتمام النعمة ب (على) المؤذنة بالاستعلاء والشمول والإحاطة، وجاء ب(أتممت)" في مقابلة (أكملت)" ، و" عليكم " في مقابلة (لكم)" ، و(عمتي) في مقابلة (دينكم)" ، وأكد ذلك، وزاده تقريراً وكمالاً وإتماماً للنعمة بقوله : و ورضيت لكم الإسلام دينا) (١).

قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحو برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين)
[المائدة: ٦] .
إن للنحو أثراً كبيراً في استنباط الأحكام الفقهية

من أدلة الكتاب والسنة؛ لأنهما بلسان عربي مبين، مبني على قواعد نحوية وصرفية، يجب على الفقيه حذقها، ومعرفة أسرارها ، قبل أن يباشر الإفتاء والاجتهاد، قال الرازي (٢): (اعلم أن معرفة اللغة والنحو والتصريف

(1) التفسير القيم:٢٢٩.
(٢) المحصول في علم الأصول: ٢٧٥/١.

فرض كفاية؛ لأن معرفة الأحكام الشرعية واجبة بالإجماع، ومعرفة الأحكام دون معرفة أدلتها مستحيل، فلا بد من معرفة أدلتها، والأدلة راجعة إلى الكتاب والسنة، وهم واردان بلغة العرب ونحوهم وتصريفهم، فإذاًيتوقف العلم بالأحكامعلى لأدلة، ومعرفة لأدلة تتوقف على معرفة اللغة والنحو والتصريف، وما يتوقف على الواجب المطلق -وهو مقدور للمكلف - فهو واجب، فإذاً معرفة اللغة والنحو والتصريف واجبة) انتهى كلامه.
ونظراً إلى اختلاف الآراء في بعض المسائل النحوية اختلفت بعض الأحكام الفقهية، وقد ألف بعض العلماء كتباً في هذا الشأن، ومن تلك الكتب كتاب (الكوكب الدري فيما يتخرج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية) لجمال الدين الإسنوي.
وفي هذه الآية التي بين أيدينا يرد سؤال هو : هل المرافق والكعبان داخلة في الغسل؟

في جوابه قولان (١):
المتأخرون من أصحاب مالك يرون أن المرفق
والكعب غير داخلين في وجوب الغسل؛ لأنهم
يرجحون أنما بعد(إلى) غيرداخل في حكم ما
قبلها ، كما سبق تفصيله .
وجمهور العلماء يرون وجوب إدخالهما في الغسل؛
لأنهم يرجحون أن ما يعد (إلى) داخل في حكم ما
قبلها إذ كان من جنسه،
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) أحكام القرآن لابن العربي: ٥٦٧/٢ .
(٢) ص: ١٠١ .

والمرفق من جنس اليد، والكعب من جنس الرجل.
ومن أدلة الجمهور أيضاً أن (إلى) قد تكون هنا
بمعنى (مع) ، وقد جاءت (إلى) بمعنى (مع) في
القرآن الكريم وغيره كثيراً، ومن ذلك قوله تعالى:
" قال من أنصاري إلى الله " [آلعمران: ٥٢] أي:
مع الله، وقوله: " ويزدكم قوة إلى قوتكم [هود:
٥٢] أي: معها، وقالوا في الأمثال: (الذود إلى
الذود إبل)(١) أي: معها . وفي قوله تعالى: "
وامسحوا برءوسكم اختلف العلماء في المقدار
المطلوب مسحه من الرأس، بسبب اختلافهم في
معنى الباء في الآية،على عدة أقوال (٢) منها:
القول الأول: قول الإمام مالك وأحمد في أرجح ما
روي عنه : مسح الرأس كله؛ لان الباء عندهما
صلة، أي : زائدة، حيث زيدت في المفعول به،
فالتقدير : امسحوا رؤوسكم، أو أن معنى الباء

الإلصاق، فالمسح لجميع الرأس، وهذا ما رجحه شيخ الإسلام بن تيمية-رحمه الله- حيث قال في الفتاوى : (لو قال: فامسحوا رؤوسكم أو وجوهكم، لم تدل على ما يلتصق بالمسح، فإنك تقول: مسحت رأس فلان، وإن لم يكن بيدك بلل، فإذا قيل : فامسحوا برؤوسكم وبوجوهكم، ضمن المسح معنى لإلصاق، فأفاد أنكم تلصقون
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) انظر : كتاب الأمثال للقاسم بن سلام :١٩٠، جمهرة الأمثال :٣٧٥/١، مجمع الأمثال: ٢٧٧/١.
(٢) أحكام القرآن لابن العربي: ٥٦٨/٢ .

برؤوسكم وبوجوهكم شيئاً بهذا المسح) (١) .
القول الثاني: قول أبي حنيفة والشافعي وهو أن المجزي هو مسح بعض الشعر؛ لأن الباء عندهما للتبعيض، فهي بمعنى (من)، كقوله تعالى؛ " عينا يشرب بها المقربون * " [المطففين؛ ٢٨ [أي: منها، بل فال الشافعي؛ إنه يجزئ مسح شعرة واحدة والله اعلم

قوله تعالى : " فبماً نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلناً قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين * " [المائدة: ١٣]٠
إن (ما) في قوله : " فبما نقضهم " زائدة، وجاءت زيادتها لإفادة الحصر، فكأنه قال : ما لعناهم إلا

بسبب نقضهم ميثاقهم.
وتأمل قوله : " يحرفون الكلم عن مواضعه " تجده بياناً لقسوة قلوبهم؛ لأنه لا قسوة أشد من الافتراء على الله وتغيير وحيه "(٢)، والتعبير بالفعل المضارع "يحرفون" يدل على استمرارهم في التحريف ، لكن جاء التعبير عن تصيير قلوبهم إلى القسوة قبله ، وعن النسيان بعده، جاء بالماضي : " وجعلنا " و " ونسوا " ؛ لأنهما قد حصلا، فلا يتجددان، فإذا حصلت القسوة والنسيان فلا يزولان إلا

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : ١٢٤/٢١.

(٢) الكشاف: ٦٠٠/١ .

بمرقق وبمذكر(١):
وتدبر قوله : " ولا تزال تطلع على خائنة منهم " فهو من البلاغة بمنزلة لا يمكن أن يبلغها فصيح بليغ مفوه؛ فهو عبر بالفعل المضارع لا تزال الذي يدل على التجدد والاستمرار، ثم أدخل عليه (لا) التي تدل علي أن الخيانة سجية فيهم وطبع، فصارت جزءاً من مقومات حياتهم، كالطعام والشراب لهم ولغيرهم، فالمعنى : إن الله ما لعن اليهود ألا بسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم منذ عهد رسول الله موسى صلى الله عليه وسلم، وصير قلوبهم قاسية لا تشعر بذنب، ولا يردعها زاجر، يبدلون كلام الله، ويمتهنون الرذائل، حتى

صار من طبعهم امتهان الخيانه دون خوف ولا وجل . والله أكبر، ما أبلغ كلامه!!!.

بعد أن نهى الله المؤمنين عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء قال تعالى : " فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين * ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين * " [المائدة :٥٢-٥٣]

(١) تفسير التحرير والتنوير :١٤٣/٦ .

تأملوا قوله تعالى : " يسارعون فيهم " حيث قال : " يسارعون " ، ولم يقل: " يسرعون وقال: " فيهم " ولم يقل: (إليهم)، ولهذا الأسلوب العظيم فوائد عظيمة :
منها : أن (يسارع) التي هي في أصل استعمالاتها تدل على المشاركة، استعملت ههنا بدلاً من (يسرع)؛ للدلالة على مبالغة مرضى القلوب من المسلمين في الإقبال على اليهود والنصارى وموالاتهم، وأنهم يتسابقون إلى ذلك، أما قوله .. " يسارعرن فيهم " يدلاً من (يسارعون إليهم) فلأن الفعل " يسارعون " ضمن معنى فعل آخر ، هو (يدخلون) ؛ ليكون المعنى : يسارعون بالدخول في الكفار والارتماء في أحضانهم، والمبالغة في

موالاتهم، والاتصال بهم على وجه أكثر مما سمح به الشرع.
ثم تأملوا كيف علل الله - سبحانه وتعالى - موالاتهم لهم بقوله : " يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة " فمرضى القلوب من المسلمين ليسو بحاجة إلى اليهود والنصارى في وقت الموالاة، لكن ضعف إيمانهم ومرض قلوبهم جعلهم يتهافتون عليهم؛ لعدم توكلهم على الله عز وجل، ورغبة في مساعدتهم إياهم، وإن تنكير" دائرة " يدل على هلع هؤلاء المرضى، فهم يحتسبون الكفار لأي دائرة، من حرب أو فقر أو مرض أو غيرها، وإن كان القريب من المراد هو الحرب إلا أن ما سواها داخل في المعنى؛ لإطلاق كلمة " دائرة " .
ولأجل ذلك كان رد المولى - عز وجل- عليهم حاسماً حيث قال : " فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر) ، وهذا وعد من الله تعالى لا يتخلف؛ لأن (عسى) في حق الله تعالى تدل على الوجوب، بعكس ما هي عليه في حق العباد ، فهي تدل عندهم على الرجاء ، قال أبوعبيدة: (عسى الله: هي إيجاب من الله، وهي في القرآن كلها واجبة، فجاءت على إحدى لغتي العرب؛ لأن (عسى) في كلامهم رجاء ويقين،،(١).
وقد أنكرذلك التفريق الراغب الأصفهاني حيث قال : (وكثيرمن المفسرين فسروا (لعل) و (عسى) في القرآن باللازم، وقالوا: إن الطمع والرجاء لا يصح من الله ، وفي هذا منهم قصورنظر؛ وذاك أن الله تعالى إذا ذكرذلك يذكره ليكون الإنسان منه راجياً

، لا لأن يكون هوتعالى يرجو)(٢). انتهى كلامه.
والصحيح قول أبي عبيدة؛ فإن الله تعالى ما وعد بشيء ب(عسى) إلا تحقق وعده، ولايعترض على ذلك يقوله تعالى : " عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن [التحريم: ٥] لأن إبدال الزوجات لرسول الله صلى الله عليه وسلم علق بشرط الطلاق لأمهات المؤمنين، وهذا الشرط قد جاء ب(إن) التي تدل على عدم اليقين من تحققه، ومن ثم لم يحصل ما علق عليه ، فتخلف.

(١) مجازالقرآن: ١٣٤/١. وانظر: العين: ٢٠٠/٢ ، واللسان(عسى): ٥٥/١٥
(٢) المفردات:335

وعوداً على بدء أقول : إن الله تعالى قد أتى في الآية التي بين أيدينا " بالفئح " معرفاً ، وب " أمر " منكراً، وقدم الفتح على ذلك الأمر، وهذا الأسلوب الرائع سببه - والله أعلم - أن أول ما يتبادر إلى أذهان المؤمنين من كسر لشوكة أعدائهم يكون بالفتح المعهود لديهم، فبدأ به، ثم ثنى بقوله : " أو أمر من عنده " ، وكلمة " أمر " عامة تشمل كل ما يخطرعلى البال، وما لا يخطر فيه، ثم إن الله تعالى وصف كلمة (أمر) بقوله: " من عنده "، وهذا في غاية الروعة والبيان، فالفتح يكون من الله تعالى، لكنه يأيدي المؤمنين، أما الآخر فمن عند الله وحده خالصاً ، كإرسال الريح

على الكفار، والخسف بهم، وإهلاكهم بالطوفان والزلازل والأمراض وغيرها .
وتأملوا قوله تعالى : " فأصبحوا خاسرين " تجدوا التعبير بالإصباح على الخسارة غاية في الروعة؛ فإن من به علة حين تزداد عليه بالليل يرجو الفرج عند الصباح، فإذا انبلج صباحه عن اشتداد لمرضه كانت خيبته أشد وأنكى، فاستعمل مع الإصباح الخسران ، وقرن ذلك بالفاء التي تدل على التعقيب : أ فأصبحوا خاسرين "؛ لأن الخسران جعل لهم في الوقت الذي كانوا يرجون فيه الفرج (١).

قوله تعالى عن عيسى — عليه السلام - : " تكلم الناس في المهد وكهلا [المائدة:١١٠] .

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ٧١/٣.

حيث نصب " كهلا " ، وهي بعد عاطف مسبوق بمجرور، والسبب أن (كهلاً ليست معطوفة على المجرور (المهدأ، بل هي معطوفة على متعلق الجار والمجرور " في المهد " ، وهو في محل نصب على الحال، فالتقدير : تكلم الناس كائناً في المهد وكهلاً.
أما فائدة ذكر التكلم في الكهولة - و هي ما بين الأربع والثلاثين سنة والخمسين(١) -مع انه ليس بمستغرب تكلم الكهل، وإنما المستغرب تكلم الطفل في المهد، فالسبب- والله أعلم - أنهم كانوا

يقولون: إن من يتكلم في المهد لا يعيش، ولا يمتد يه العمر، فكانت المعجزة أعظم حيث خولفت العادة ، فعاش عيسى - عليه السلام - وتكلم في حال كهولته(2).

ونقل الرازي(٣) عن الحسين بن الفضل البجلي: (أن المراد بقوله : " وكهلا " أن يكون كهلا بعد أن ينزل من السماء في آخر الزمان، ويكلم الناس، ويقتل الدجال، قال الحسين بن الفضل: وفي هذه الآية نص في أنه يمكن أن عيسى - عليه الصلاة والسلام - سينزل إلى الأرض) .

ومن المعلوم أن عيسى - عليه السلام - قد رفع إلى السماء حين كان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة وستة أشهر، وعلى هذا التقدير فهو ما بلغ الكهولة. والله أعلم.

(1) القاموس المحيط: (كهل)١٣٦٣ .

(٢) البرهان في علوم القرآن: ٦٧/٣.

(٣) التفسير الكبير :8/46

قوله تعالى: " قل سيروا في الأرض ثم انظروا
كيف كان عاقبة المكذبين * " [الأنعام : ٣١١]
قال في هذه الآية الكريمة : " ثم انظروا " ، وفي
غيرها قال : " فانظروا "(١)، ومعلوم أن (ثم) تدل
على الترتيب مع التراخي، والفاء تدل على
التعقيب، والسر في ذلك - والله أعلم - أن الأمر
بالسير في هذه الآية وقع في سياق الحديث عن
قرون غابرة؛ إذ قال الله تعالى قبلها : " ألم يروا
كم أهلكتاً من قبلهم بن قرن مكناهم في الأرض ما
لم نمكن لكم [الأنعام: ٦]، فلكثرة القرون ،
وإيغالها في أزمنة متطاولة، ناسب معه استعمال
(ثم) التي تدل على التراخي والبعد، اما في غيرها
من الآيات فلم تذكر فيه القرون، وإنما ذكرت العبر،
كقوله تعالى : " قد خلت من قبلكم سنن فسيروا
في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين "O
 [آل عمران:١٣٧]، ولهذا حسنت الفاء هنا دون
الأية الأولى”).
وقال الخطيب الإسكافي: (إن قوله : " سيروا
في الأرض فانظروا " يدل على أن السير يؤدي
إلى النظر، فيقع بوقوعه، وليس كذلك " ثم "، ألا
ترى أن الفاء وقعت في الجزاء ، ولم تقع فيه " ثم
"، فقوله في سورة الأنعام : " قل سيروا في
الأوض ثم انظروا" لم يجعل

(١) آل عمران: ١٣٧، النحل: ٣٦، النمل: ٦٩، العنكبوت: ٢٠، الروم: ٤٢. (٢) ملاك التأويل: ١/٤٢٣-٤٢٤، كشف المعاني: ١٥٦،فتح الرحمن: ١١٧.

النظرفيه واقعاً عقيب(١) السير، متعلقا وجوده
بوجوده ؛ لأنه بعث على سير بعد سير؛ لما تقدم
من الآية التي تدل على أنه تعالى حداهم على
استقراء البلاد ومنازل أهل الفساد، وأن يستكثروا
من ذلك؛ ليروا أثراً بعد أثر في ديار بعد ديار، قد
عم أهلها بدمار. ٠ * فدعا إلى العلم بذلك بالسير
في البلاد ومشاهدة هذه الآثار، وفي ذلك ذهاب
أزمنة كثيرة ومدد طويلة، تمنع النظرمن ملاصقة
السير، كما فال في المواضع الأخر التي دخلتها
الفاء ؛ لما قصد من معنى التعقيب، واتصال النظر
بالسير؛ إذ ليس في شيء من الأماكن التي
استعملت فيها الفاء ما في هذا المكان من البعث
على استقراء الديار وتأمل الآثار ، فجعل السير في
الأرض في هذا الموضع مأموراً به على حدة ،
والنظربعده مأموراً به على حدة، وسائر الأماكن
اني دخلتها الفاء علق فيها وقوع النظر بوقوع
السير؛ لأنه لم يتقدم الآية ما يحدو على السير
الذي حدا عليه فيما قبل هذه الآية، فلذلك خصت
ب " ثم " التي تفيد تراخي المهملة بين
الفعلين.والله أعلم)(٢).

قوله تعالى: " ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على
قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا
كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك

(١) قال الشيخ إبراهيم بن يوسف : (إثبات الياء

لغة ضعيفة، واللغة الفصحى : (عقب) ، بحذف الياء، وإذا أثبتت الياء احتيج إلى تأويل؛ لأن العقيب هو المعاقب، كالرقيب والأكيل والشريب والنديم) .
(٢) درة التنزيل وغرة التأويل:١١١,١١٢ .

يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين [الأنعام : 25] .
(من) اسم موصول يصلح للمفرد والمثنى والجمع، ولذلك قال الله تعالى في هذه الآية: " من يستمع إيك " فجعل صلة (من) فعل الواحد " يستمع " لكنه قال في سورة يونس: " ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولوكانوا لايعقلون * " [يونس: ٤٢] فجعل صلة (من) فعل الجماعة " يستمعن ".
وسبب الاختلاف في الأسلوب بين الآيتين اختلاف المراد ب(من)(١)؛ فآية الأنعام نزلت في نفر قليلين من قريش، هم أبو سفيان والنضربن الحارث وعتبة وشيبة وأمية وأبي بن خلف، حيث كانوا يستمعون إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وهو يقرأ القرآن ليلا، فيؤذونه، ويرجمونه، ويمنعونه من الصلاة خوفاً من أن يسمعه أحد يتأثر به وبدعوته، فيدخل في الإسلام ، فهم قليلو العدد، فنزلوا منزلة الواحد، فأعيد الضمير على لفظ "من" أي مفرداً .
أما قوله : " ومنهم من يستمعون إليك " فالمراد ب(من) جميع الكفار الذين يحدث منهم هذا،

فيستمعون إلى القرآن الكريم، ولا ينتفعون بسماعه، فيكون حجة عليهم، فكأنهم صم لايعقلون ما يستمعون إليه ، فروعيت كثرة المقصودين ، فخوطبوا بما يدل على الجماعة.

(١) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن :١١٩، كشف المعاني في المتشابه من المثاني **159:**

وههنا تنبيه تحسن الإشارة إليه وهو أن هناك فرقاً بين (سمع) و(استمع) ؛ ففي (استمع) زيادة في المبنى تدل على الزيادة في المعنى، حيث إن الاستماع فيه قصد وتكلف، فنقول : سمعت بكاء الطفل؛ لأنه قد يحصل دون قصد ولا إرادة، واستمعت إلى تلاوة القرآن الكريم؛ لقصد الإرادة فيه والإنصات .
واستعمال الاستماع ههنا بحق الكفار ليس للدلالة على قصدهم ذلك، بل لأن المسموع شاق عليهم، فهم يتكلفون سماعه . والله أعلم .

قوله تعالى : " وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون " [الأنعام : ٣٨] .
الدابة : هي كل ما يدب على الأرض(١)، فالدابة غير منفكة عن كونها في الأرض، والطائر : هو كل ما يطير بجناحين، فالطائرغير منفك عن كونه طائراً بجناحيه(٢)، فما فائدة قوله : " في الأرض

"، و قوله : " يطير بجناحيه "؟ .
قال الزمخشري: (معنى ذلك زيادة التعميم والإحاطة، كأنه قيل: وما من دابة قط في جميع الأرضين السبع، وما من طائر قط في جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه، إلا أمم أمثالكم، محفوظة أحوالها، غير مهمل أمرها .
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) تفسير التحرير والتنوير :٢١٥/٧ .
(٢) البرهان في علوم القرآن: ٤٢٥/٢ .

فإن قلت: فما الغرض في ذكر ذلك ؟ قلت: الدلالة على عظم قدرته، ولطف علمه، وسعة سلطانه، وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس المتكاثرة الأصناف، وهو حافظ لما لها وما عليها، مهيمن على أحوالها، لا يشغله شأن عن شأن، وأن المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان) (١).

قوله تعالى: " وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون * " [الأنعام: ٦٠] .
إن المتأمل هذه الآية يرى أن الله تعالى خص الوفاة بالليل مع أنها تحدث في الليل والنهار، وأنه خص العمل بالنهار مع أنه يحدث في النهار والليل، والسر في ذلك - والله أعلم - أن أكثر أعمال الناس تحدث في النهار، وأما الوفاة فخصت بالليل؛ لأن

كل نفس تنام بعد نومها موتاً، كما قال الله تعالى :
و الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت
في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل
الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم
يتفكرون * " [الزمر: 42] .

(١)الكشاف: ١٧/٢ .

قوله تعالى: "قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا
تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا
أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا
الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ
الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ (151)" الأنعام
جعل سبب قتل الأولاد ما يعيش فيه الآباء من
الفقر، ولذلك أخبر الله- سبحانه وتعالى - أنه
سيرزق الآباء، فقال : " نحن نرزقكم " ثم ذكر
بعدهم رزقه أولادهم، فقال: (وإياهم)، فكان
رزقهم أهم عندهم من رزق أولادهم، فقدم الوعد
برزقهم على الوعد برزق أولادهم؛ لأن الخطاب
للفقراء ، وكأن السياق يشعر بتشفيع الأولاد في
رفع فقر الآباء القاتلين، فكأن قد قيل لهم: إنما
ترزقون بهم، فلا تقتلوهم (١).
وجاءالترتيب بخلاف هذا في سورة الإسراء فقال
: " ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نخن نرزقهم
وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا [الإسراء : ٣١]،
فالخطاب في هذه الآية للأغنياء ؛ لأن الخشية

خوف من شيء لم يقع، فهم إن قتلوا أولادهم فذلك بسبب خوفهم من أن تؤدي كثرة الأولاد إلى الفقر، فكان رزق أولادهم هو المطلوب دون رزقهم هم، فهو حاصل قبلاً، ولذلك قدم الوعد برزق الأولاد على الوعد برزق الآباء، فقال: ونحن نرزقهم وإياكم".

ولله در القائل :

كلوا اليوم من رزق الإله وأبشروا فإن على الرحمن رزفكم غدا (2)

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) ملاك التأويل: ٤٦٩/١، كشف المعاني: ١٦٩ ، فتح الرحمن: ١٣١ .

(٢) لجميل بثينة في (ديوانه :٤٢)، ولحاتم الطائي في (ديوانه :٢١٨) قريب منه.

وانظر : التمثيل والمحاضرة : ١٠.

وروي أن أعرابياً من طيئ كثر عياله، وقل ماله ، ولسان حاله يقول كما قال خالد بن صفوان التميمي : (لثلاثون من العيال في مال أسرع من السوس في الصوف في الصيف)(١) فقال الأعرابي : سأنتجع خيبر؛ عسى أن يخفف عني ثقل هؤلاء ، وكأنه يرى أن (قلة العيال أحد اليسارين)(2)، وخيبر مشهورة بحماها التي يضرب بها المثل، فيقال : (به الورى، وحمى خيبرى) (٣) ، فلما شارفها الأعرابي قال:

قلت لحمى خيبر استعدي هاك عيالي فاجهدي وجدي

وباكــري بصالــب وورد   أعانك الله على ذا الجنـــد
فلما دخلها حم، وحمه حمامه، وعاش أيتامه (٤).
وقال منصور بن محمد الكريزي(٥) :
توكل على الرحمن في كل حاجة   أردت فإن الله يقضي ويقـــدر
متى مايرئ ذوالعرش أمراًبعبده   يصبـــه وما للعبــد ما يتخير
وقديهلك الإنسان من وجه أمنـه   وينجوبإذن الله من حيث يحذر
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) التمثيل والمحاضرة:٣٧٩ .
(٢) محاضرات الأدباء: ٢٠٠
(٣) مجمع الأمثال: ١٠٦/١
(٤) المحكم والمحيط الأعظم: ٢٣٧/٤.ربيع الأبرار وذصوص الأخبار: ١٢٠/٤.
(٥) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء : ١٥٣-١٥٤.

قوله تعالى : " وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسناً بياتاً أو هم قائلون * " [الأءراف:٤] .
في هذه الآية من البلاغة والبيان ما يعجز عن رسمه يراعة يمسكها بنان، ويقصر عن مداه لسان إنسان؛ فإن قوله: " أهلكناها " مراد به: أردنا إهلاكها؛ بدليل ورود (فاء) التعقيب بعده، حيث قال : " فجاءها يأسنا، وهذا مثل قوله تعالى : " يا يها الدين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق " [المائدة : ٦] .

والقرية - على القول الصحيح - تطلق على المنازل وعلى أهلها، فإذا أريد بها المنازل عادعليها الضميرمؤنثاً، كقوله تعالى : " أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها " [البقرة : ٢٥٩ [، وإذا أريد بها أهل المنازل عاد الضمير عليها مذكراً مجموعاً، وقد جمعت الآية الاثنين، فقال : " أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا "، فغلب المنازل على أهلها مع إرادتهما معاً؛ لأن طارق القرية ليلاً لا يحس إلا بالمنازل؛ لهجعة أهلها، وتبدو المنازل أيضاً كالهاجعة؛ ولذلك لا أرى تأويل " بياتا " ب(بائتين) كما فعل الزمخشري(١)، وإنما أرى تأويلها ب(بائتة)؛ لتغليب المنازل على السكان ، وأما في قوله : " و هم قائلون " فقد أعاد الضمير مذكراً مجموعاً ؛ لأن القيلولة - وهي نوم نصف النهار- ليست شاملة أكثر أهل القرية، ولا هي جالبة سكوناً على القرية، عكس البيات الذي يلف الديار بالسكون حتى تبدو المنازل

____

(1) الكشاف:٦٦/**2.**

كالهاجعة أيضاً، أما في القيلولة فلا تبدو المنازل كالقائلة، فسبحان من هذا بيانه **! !!.**
وقريب من هذه الآية قول الله تعالى : " وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون " [الأنبياء: ٩٥] ، فانظر كيف عبر بالإهلاك، وأعاد الضمير مؤنثاً؛ لأنه واقع على المنازل وأهلها، لكن الإرجاع

جعله خاصاً بأهل القرية؛ لأن المنازل يمكن إعادة إعمارها وسكناها، أما أهلها المهلكون فلا سبيل إلى إرجاعهم إليها. والله أعلم.

قوله تعالى : " قالوا يا موسى إماا أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين " [الأعراف : **115**] . أكد السحرة جملة الكلام المعبرة عنهم، فقالوا : " نكون نحن الملقين)" ، فأتوا بضمير الفصل (نحن) ، وجعلوا خبر " نكون " اسماً معرفاً ب(أل): " الملقين " ولم يؤكدوا الضميرالراجع إلى موسى عليه السلام، فقالوا: " إما أن تلقي " ولم يقولوا: (إما أن تلقي أنت)، والسر في ذلك -والله أعلم-أن السحرة أحبوا التقدم عليه بإلقاء سحرهم؛ لظنهم أنهم سيأتون بشيء عظيم يسيطرون به على أذهان الحاضرين، ويملكون به عقولهم، ما يتعذر به على موسى - عليه السلام - أن يرفع أثره عنهم، قال الزمخشري: (وقد سوغ لهم موسى عليه السلام ما تراغبوا فيه ازدراء لشأنهم وقلة مبالاة بهم، وثقة بما كانوا بصدده من التأييد السماوي، وأن المعجزة لن يغلبها سحر أبداً. " سحرو أعين الناس " [الأعراف: ١١٦] ، أروها بالحيل والشعوذة، وخيلوا إليها ما الحقيقة بخلافه، كقوله تعالى :" يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى*" [طه: ٦٦]) (١). والله أعلم.

قوله تعالى : " وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممتاها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال

موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين * [الأعراف: ١٤٢].
معلوم بداهة أن العشر مع الثلاثين تكون أربعين ، فما فائدة قوله : "أربعين ليلة"؟
قيل: إنه لما قال: " ثلاثين " ميزها بقوله: " ليلة "، لكنه لما قال : "وأتممناها بعشر " تركها دون تمييز، فاحتمل أن تكون عشر ساعات، فيكون المعنى: واعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر ساعات، فأزال الإبهام المتوقع يقوله: " أربعين ليلة " (2) .
وقيل: إن فائدة قوله: " أربعين ليلة " هو نفي الإلباس؛ لأن (العشر) لما أتت بعد (الثلاثين) التي هي نص في المواعدة دخلها الاحتمال أن تكون من غير المواعدة، فأعاد ذكر (الأربعين) نفياً لهذا الاحتمال، وليعلم ألجميع العدد للمواعدة(٣).
أما سبب تفريق العدد (الأربعين) بين (الثلاثين) و (العشر) ، مع

(١) الكشاف ١٠٣/2.
(٢) انظر: البحر المحيط: ١٦١/٥
(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن: ٤٧٨/٢ .

إمكان أن يقول ابتداء : (أربعين ليلة) ، وكان قد قالها في سورة البقرة : " إذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون * " ، فنقل الزركشي(١) أن محمد بن علي الخضر الغساني، المعروف بان عساكر، أجاب في كتابه

(التكميل والإفهام) ، عن سبب ذلك (بأن (العشر) إنما فصل من أولئك ليتحدد فرب انقضاء المواعدة ، ويكون فيه متأهباً مجتمع الرأي، حاضر الذهن ؛ لأته لو ذكر (الأربعين) أولاً لكانت متساوية؛ فإذا جعل (العشر) فيها إتماماً لها استشعرت النفس فرب التمام، وتجدد بذلك عزم لم يتقدم .
قال : وهذا شبيه بالتلوم الذي جعله الفقهاء في الآجال المضروبة في الأحكام ، ويفصلونه من أيام الأجل، ولا يجعلونها شيئاً واحداً ، و لعلهم استنبطوه من هذا) .
وقيل(٢) : إن الله سبحانه وتعالى أمر موسى عليه السلام ابتداء بالصوم ثلاثين يوماً، وهو شهر ذي القعدة، فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فيه، فتسوك، فأوحى الله إليه : (أما علمت أن خلوف فم الصائم عند الله اطيب من ريح المسك) ، فأمره ان يزيد عليه عشرة ايام من ذي الحجة لذلك.

قوله تعالى : " الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم

(١) البرهان في علوم القرآن:٤٧٩/٢ .
(2) تفسيرالرازي: ١٨٤/١٤ .

الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه

أولئك هم المفلحون * " " [الأعراف :١٥٧] .
كيف عرف المعروف والمكر ب(أل)؟ فهل كل
معروف وكل منكر معروفان لدى المتلقين حتى
يعرفا بأداة التعريف؟ أم أن المعروف يكون معروفاً
حين يأمر به الشارع، والمنكر يكون منكراً حين
ينهى عنه ؟
الجواب عن ذلك(١) : أن المعروف والمنكر
واضحان لكل ذي عقل سليم من المؤمنبن
والكافرين، فالمعررف هو ما تقبله العقول الراجحة،
والنفوس السليمة إذا عرض عليها، والمنكرما
ترفضه، وتأباه، وتنفر منه حين يعرض عليها، وكل
ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم تقبله
الفطرة النقية، وترضاه، وكلما نهى عنه -عليه
الصلاة والسلام -تنفر منه، وتأباه.
سئل أعرابي : بم عرفت أن محمداً صلى الله عليه
وسلم رسول ؟ فقال : (ما أمر بشيء فقال العقل؛
ليته ثنى عنه، ولا نهى عن شيء فقالً العقل: ليته
أمر به) .
وقال المقوقس ملك مصر : (إني قد نظرت في
أمر هذا النبي، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا
ينهى عن مرغوب فيه)(٢) .
ومثل هذا يقال فى تعريف الطيبات والخبائث ،
فالطيب كان طيباً

(١) انظر: تفسير التحريروالتنوير: ١٣٥/٩ .
(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد :٦٩١/٣.

قبل أن يحكم بحله ، والخبيث كان خبيثاً قبل أن يحرم، وكما ذكر الأعرابى كان تحليل الطيبات وتحريم الخبائث من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم، ولو لم يكن طيب الطيبات وخبث الخبائث معروفين لدى المخاطبين قبل لما كان ذلك علماً من أعلام النبوء التي يحتج يها على أهل الكتاب.
وحين نتأمل كتاب الله تعالى نجد أن الطيبات لم ترد فيه إلا معرفة، إما ب(أل) أو بالإضافة؛ لكونها معروفة قبل الحكم عليها، ويستثنى من ذلك الحكم آية واحدة، هي قوله تعالى : " فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل لله كثيراً * [النساء ١٦٠ [فتنكيرها- والله أعلم- كان بسبب قلتها، وهي المذكورة في قوله تعالى : "وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهماً إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم يبغيهم وإنا لصادقون * " [الأنعام :٠ ١٤٦ [

[image]

[image]

قوله تعالى : " وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذابً أليم " [التوبة : ٣] .
إن قلت : لم رفعت كلمة " رسوله " الثانية ؟
فأقول : قيل(١) : إن الواو استئنافية، و(رسول) : مبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه الضمة، وخبره محذوف تقديره ورسوله بريء، وحذف الخبر لدلالة ما قبله

(١) البحرالمحيط :٣٦٧/٥ .

عليه.
وقيل(1) : إن الواو عاطفة، و(رسول) : معطوف على الضمير المستتر في " بريء " ؛ لأنه اسم مشتق يحتمل الضمير ، والتقدير ٠ أن الله بريء هو من المشركين ورسوله، وقيل (٢) : إنه معطوف على محل اسم " أن " لأن محله قبل دخول " أن " الرفع على الابتداء ٠
وقرأ يعقوب بن إسحاق الحضرمي، وعبدالله بن أبي إسحاق الحضرمي، وعيسى بن عمر، وزيد بن علي، والحسن البصري، وروح ابن عبدالمؤمن الهذلي : ف ورسوله " بالنصب(٣) ، فتكون الكلمة

معطوفة على اسم الجلالة " الله " الواقع اسماً ل " أنَ " وفي القراءتين تكون يراءة الله ورسوله من المشركين .
وما يحسن أن أذكره بهذه المناسبة أنه يروى أن أعرابياً قدم في خلافة أمير المؤمنين عمربن الخطاب - رضي الله عنه - المدينة المنورة ، فقال : من يقرئني شيئاً مما أنزل الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فأقرأه رجل سورة براءة، فقال فيها : " أن الله بريء من المشركين ورسولِه " بالجر، فقال الأعرابى: أو قد يرئ الله من رسوله ؟ إن يكن الله تعالى برىء من رسوله فأنا أبرأ منه، فبلغت عمر-رضي الله عنه – مقالة الأعرابي، فدعاه ، فقال: يا أعرابى أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ١

ـــت

(1) الكشاف٢/١٧٣.
(٢) إعراب القرآن للنحاس: ٢/ ٤.
(٣) انظر إعراب القرآن للنحاس: ٢/٥، الكشاف: ١٧٣/٢، تفسيرالرازي: ٢٢٣/١٥، التبيان للعكبري: ٦٣٥/٢، تفسيرالقرطبي: ٨/ ٧٠ ، البحرالمحيط : ٣٦٧/٥ ، الإتحاف: ٢٤٠ .

فقال: ياأميرلمؤمنين إني قدمت المدينة، ولاعلم لي بالقرآن، فسألت: من يقرئني؟ ، فأقرأني هذا سورة براءة، فقال: " أن الله بريء من المشركين ورسولِه فقلت: أو قد برئ الله تعالى من رسوله؟ إن يكن الله تعالى برئ من رسوله فأنا أبراً منه .

فقال عمر : ليس هكذا يا أعرابي، فقال الأعرابي: كيف هي يا أمير المؤمنين ؟ فقال عمر: " أن الله بريء من المشركين ورسوله " ، فقال لأعرابي: وأنا والله ابرأ ممن برئ الله ورسوله منهم، فأمر عمر حينئذ ألا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة **(1).**
فتأمل كيف انقلب المعنى بسبب حركة إعراب يسيرة لا يلقي كثير من الناس اليوم لها بالأ، بل تجدهم يحركون ما يشاءون بما يشاءون.

قوله تعالى : " رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون * " [التوبة: ٨٧].
الكلام في هذه الآية عن أولي الطول الذين استأذنوا الرسول صلى الله عليه وسلم في القعود، وقالوا كما أخبر الله تعالى عنهم : " وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آَمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ **(86)**" [التوبة : ٨٦] ، فهم أصحاب قدرة على الجهاد، ولديهم وفرة في المال، وقوة في النفس، لكنهم مالوا إلى الراحة، وأخلدوا إلى

(١) نزهة الألباء في طبقات الأدباء : ٨ ، الصعقة الغضبية في الرد على منكري العربية للطوفي : ٢٢٨,٢٢٩.

الدعة، وأشفقوا من الحر، وجهلوا أن الراحة الحقة هي في متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم

وتحمل تعبها، وأن الدعة الحقة تكون في المسير
معه صلى الله عليه وسلم وتحمل مشقته، ولكن
هذا النظر البعيد لا يفقهه كثيرمن الناس، ومنهم
هؤلاء المتخلفون ، فاستحقوا أن يوصفوا بأنهم لا
يفقهون؛ لأن عقولهم لم ترق بهم إلى التمييز بين
الأمرين؛ ولذلك قال الله تعالى قبلها : (فرح
المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن
يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا
تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا
يفقهون " [التوبة: ٨١]٠
وتأملوا رحمني الله وإياكم - قوله تعالى : "إنماً
السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا
بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم
فهم لا يعلمون * "] التوبة: ٩٣]٠
ففي هذه الآية قال: " فهم لا يعلمون " ، وفي
الآية السابقة قال : " فهم لا يفقهون "، والسبب
في ذلك - والله أعلم- أن هذه الآية نزلت في قوم
لايعلمون ما أعد الله تعالى لكل ذي عمل خالص
لوجهه من الأجر والمثوبة، ذلك الذي عقله الذين
أتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحملهم
معه إلى الجهاد ، فقال لهم : و لا أجد ما أحملكم
عليه " ، وحينئذ " تولوا وأعينهم تفيض من الدمع
حزنا ألا يجدوا ما ينفقون * " [التوبة: ٩٢[، أما
هؤلاء المتخلفون فحالهم تشعربجهلهم بما أعده
الله تعالى للمجاهدين في سبيله من أجر ومثوبة،
ولذلك ختم هذه الآية بقوله : " فهم لا يعلمون
"(١)٠

وههنا تنبيه تجدر الإشارة إليه، وهو أنه في آية التوبة التي ذكرتها أولاً قال : " وطبع على قلوبهم " ، وفي الثانية قال : " وطبع الله علئ قلوبهم، فالأولى مبنية للمجهول، والثانية مبنية للمعلوم، والسر في ذلك- والله أعلم - أن الآية الأولى سبقت بقوله: " إذا أنزلت سورة " ببناء الفعل " أنزل " للمجهول، فناسب أن يبنى " طبع " للمجهول أيضاً(٢).

قوله تعالى : وإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا يبيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم * " [التوبة:١١١].
قدم في هذه الآية الكريمة الأنفس على الأموال، وإن كان في غيرها من الآيت قدم الأموال على الأنفس كثيراً، والسر في ذلك - والله أعلم- كما قال ابن القيم- رحمه الله-: (لأنها هي المشتراة في الحقيقة، وهي مورد العقد، وهي السلعة التي استامها ربها، وطلب شراءها لنفسه، وجعل ثمن هذا العقد رضاه وجنته، فكانت هي المقصودة بعقد الشراء، والأموال تبع لها، فإذا ملكها مشتريها ملك

---

(١) انظر: كشف المعاني: ١٩٨ .
(٢) انظر :ملاك التأويل: ٥٩٧/١.

مالها؛ فإن العبد وما يملكه لسيده ، ليس له فيه شيء ، فالمالك الحق إذا ملك النفس ملك أموالها ومتعلقاتها، فحسن تقديم النفس على المال في هذم الآية حسناً لا مزيد عليه (1)"

قوله تعالى : " وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (43) "] يونس: ٤٣[.

جعل صلة " من " فعل الواحد " ينظر" مع ن الجملة معطوفة على قوله : " ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون * " [يونس: ٤٢ [وكان السياق اللفظي يقضي بأن يقال: (ينظرون)؛ لأنهم كثيرون كالمستمعين، لكن يجاب عن ذلك بأن يقال : إن المستمعين لما كانوا محجوجين بما يسمعونه من كتاب الله تعالى كانوا هم الأكثرين في الحجاج ، وليس كذلك المنظور إليه ؛ لأن الآيات المرئية بالعين التي أيد بها رسولنا صلى الله عليه وسلم لم تكن بكثرة آيات القرآن الكريم التي سمعها المشركون، ولذا عاد الضمير مفرداً على " من " مع النظر، ومجموعاً مع الاستماع.

وتأمل الآيتين تدرك دلالتهما على تفضيل السمع على البصر حين جعل مع الصمم فقدان العقل، فقال : " أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون " ، ولم يجعل مع العمى إلا فقدان النظر ، فقال : " أفأنت تهدي

(١) بدائع الفوائد :١/٧٨-٧٩.

العمي ولو كانوا لا يصرون "(١)٠

قوله تعالى : " ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل لأ أملك لنفسي ضراً ولانفعا إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يسئخرون ساعة ولا يستقدمون * " [يونس : ٤٨،٤٩] .

هذه الآية شاهد آخر على الفرق بين استعمال " إن " واستعمال " إذا " ، فالكفار يستبعدون صدق الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بقيام الساعة، والفصل بين الخلائق ، ولذلك استعملوا (إن) الدالة على استبعاد حصول الشيء ، فقالوا : " ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين " ، ولم يقولوا : (إذا كنتم صادقين)، فكأنهم يقولون لهم : أنتم غير صادقين ، أما عند الله تعالى وعند رسوله صلى الله عليه وسلم وعند المؤمنين فالأمر متحقق الوقوع، ولذلك استعملوا إذا، فقال : " إذا جاء أجلهم فلا يستئخرون ساعة ولا يستقدمون *" .

وقال الله في الآية الأولى : " ضراً ولا نفعاً "، ولكنه قال في سورة الأعراف : " قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاسكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون * "، فقدم في سورة (يونس) الضرعلى النفع، وعكس ذلك في سورة

(الأعراف)، والسرفي ذلك -والله أعلم - أن ما في سورة
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) تأويل مشكل القرآن: ٧.

الأعراف من تقديم النفع على الضر جاء في سياق الكلام عن قيام الساعة، وهذا موقف يرجو فيه كل إنسان النفع، ويخشى الضر، ويتمنى فيه تعجيل الثواب، والسلامة من العقاب؛ لذلك قدم النفع، أما في سورة (يونس) فإنه جاء في سياق الرد على استعجال الكفار عذاب الله تعالى وما يتوعدهم به الرسول صلى الله عليه وسلم من الضر، استهانة منهم وتكذيباً ، فتقديم الضر على النفع لأنه هو المطلوب لمجازاة الكفار، وهو ما يحقق رغبتهم المبنية على الاستهزاء والسخرية(1) . والله أعلم .

قوله تعالى : " حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلناً احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك ألا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قيل 0" [هود: ٤٠] .
قال عن السفينة : " احمل فيها " فعدى الفعل ب(في) ، لكنه عداه ب (على) في سورة (المؤمنون) وفي سورة (غافر)، حيث قال: " وعليها وعلى الفلك تحملون " ، والأصل في الفعل (حمل) أن يعدى ب(على) ، أما قوله: " احمل فيها " فلأن المقصود سفينة نوح عليه السلام، وقد كانت

مطبقة مغطاة، فناسبت التعدية ب(في) الدالة على الظرفية، أما في آية (المؤمنون) فالمقصود كل سفينة، والمحمولون هم الناس الذين يكونون عادة في أعلاها، فناسبت التعدية ب(على)

---

(١) انظر: ملاك التأويل: ١/٥٧٧-٥٧٨ ، كشف المعاني: ١٨٨، فتح الرحمن :١٥٣,١٥٤ .

وقيل : إنه قد غلب غير الآدميين في الحديث عن سفينة نوح عليه السلام؛ لأنهم أكثرمن الآدميين، وكانت السفينة ثلاث طبقات، فكانت الحيوانات والحشرات والطيور في الطبقة السفلى من السفينة، أي في داخلها، وكانت الوسطى للطعام، أما الآدميون ففي أعلاها، كذا ذكر أبوحيان رحمه لله(١)، فغلبت (في) الدالة على الظرفية على (على) الدالة على الاستعلاء. والله أعلم.

قوله تعالى : " اذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين* " [يوسف: ٤].
إن المتدبر لسورة (يوسف) يبكي قلبه قبل عينه على ما فيها من ابتلاء وامتحان ليوسف وأبيه يعقوب - عليهما السلام - تجvعاهما من اقرب الناس إليهما، ويبهره أسلوب عرض القصة؛ فهو أسلوب أذهل أهل مكة الذين كانت تعجبهم أقاصيص الروم والفرس حين كان النضر بن الحارث يفاخر بها رسولنا محمداً صلى الله عليه

وسلم ، ويقول لقومه : (أنا- والله - أحسن حديثاً من محمد، فهلم أحدثكم أحسن من حديثه)، فأنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم هذه السورة التي حوت أرقى الأساليب، فتأخذ بسويداء القلب؛ لأنها كما قال سيد قطب- رحمه الله- : (تمثل النموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني للقصة، ذلك الأداء الصادق الرائع بصدقه العميق، وواقعيته السليمة، المنهج الذي لا يهمل
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) البحرالمحيط :١٥٢/٦ .

خلجة بشرية واقعية واحدة، وفي الوقت ذاته لا ينشئ مستنقعاً من الوحل، يسميه (الواقعية)، كالمستنقع الذي أنشأته الواقعية الغربية الجاهلية) (١) . انتهى كلامه رحمه الله.
وما قرأت هذه السورة يوماً إلا أحسست بقلبي يكاد يخرق صدري مما أطلع عليه، وأتفكر فيه من جمال لغوي في آياتها، والسورة جديرة بدراسة الإعجاز القرآني فيها.
وبين أيدينا وقفة تأمل للآية الرابعة من السورة، إذ نعلم أن الكواكب والشمس والقمرغير عاقلة ، وكان الأنسب في الكلام البشري أن يقال : (رأيتها لي ساجدة) ، ولكنه عدل عن ذلك، وأعاد عليها ضمير العاقلين ، وجمع الحال جمع مذكر سالماً، فقال : " رأيتهم لي ساجدين " ؛ لأنه لما وصف النجوم بالطاعة والسجود - وهي من أفعال العقلاء نزلها منزلتهم(2).

نم تأملوا تكرار الرؤيا حيث قال : " رأيتهم " ، وذلك ليدل على حقيقة رؤياه وتيقنه منها، وأنها ليست أضغاث أحلام، كما أن تقديم الجار والمجرور"لي" على عامله " ساجدين إنما هو لإظهارالعناية والاهتمام بالدلالة على التخصيص، فكأنه قال: رأيتهم ساجدين لي ليس لغيري(٣)، ولذلك بادره أبوه قائلاً: " يا بني لا تقصص رءياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين " [يوسف :٣٥] لعلمه بصدق رؤيا ابنه، وأنه سوف يحسد على فضل الله عليه من أقرب

(١) في ظلال القرآن: ١٩٥٢/٤.
(٢) تفسيرالطبرى: ١٤٩/٧.
(٣) روح المعاني: ١٨٩/١٢ .

الناس إليه؛ لعظم ما اختصه الله به.
وبما هو جدير بالإشارة إليه أن اللغة العربية تطلق (الرؤيا) على الأحلام،و(الرؤية) على ما يراه المرء ببصره أو بعلمه.

قوله تعالى : " وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون * " [يوسف:٢٣]
(راود) على وزن (فاعل)، والأصل في هذه الصيغة أن تدل على المشاركة ، والمراودة هي المطالبة برفق مرة تلو مرة ، وهي في هذه الآية

إما على معناها الأصلي إذا نظر إلى تكرار امرأة المحاولة معه، وممانعته من ذلك ، (كأن المعنى : خادعته عن نفسه، أي : فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده، يحتال أن يغلبه عليه، ويأخذه منه، وهوعبارة عن التحمل لمواقعته إياها)(١) ، فصارت المراودة كأنها صادرة من الطرفين ، أو أن المشاركة غير واردة ولا مرادة هنا ، فتكون (راود) مثل: سافر، وعاين، وعافى، وداين، وباعد، وجاوز، وغيرها بما لا يدل على المشاركة، قال أبو السعود -رحمه الله- (٢): (وهي مفاعلة من واحد، نحو: مطالبة الدائن، ومماطلة المديون، ومداواة الطبيب، ونظائرها، ما يكون من أحد الجانبين الفعل، ومن الآخر سببه، فإن هذه الأفعال، وإن كانت صادرة

(1) لكشاف ٣١٠/2.
(٢تفسيره: ٢٦٤/4.

عن أحد الجانبين، لكن لما كانت أسبابها صادرة عن الجانب الآخر جعلته كأنها صادرة عنهما، وهذا باب لطيف لمسلك، مبني على اعتبار دقيق، تحقيقه أن سبب الشيء يقام مقامه، ويطلق عليه اسمه، كما في قولهم: (كما تدين تدان(١)، أي: كما تجزي تجزى ؛ فإن فعل البادئ، وإن لم يكن جزاء لكنه لكونه سبباً للجزاء ، أطلق عليه اسمه،. .. وكذلك مراودتها فيما نحن فيه لجمال يوسف عليه السلام، نزل صدورها عن محالها بمنزلة صدور مسبباتها

التي هي تلك الأفعال، فبنى الصيغة على ذلك، وروعي جانب الحقيقة، بأن أسند الفعل إلى الفاعل، وأوقع على صاحب السبب) .
وتأملوا - رحمني الله وإياكم- قوله :" التي هو في بيتها " فلم يسم المرأة، وإنما أتى باسم الموصول، وجعل صلته قوله :" هو في بيتها " ، وهذا له فوائد كثيرة : منها إظهار عفة يوسف - عليه السلام - وكمال نزاهته؛ فإن عدم ميله إليها، وعدم استجابته لطلبها، مع كونهما في بيت واحد بعيدين عن الشبهة، ومع دوام مشاهدته لمحاسنها، وكونه تحت ملكها، كل أولئك يدل على بلوغه - عليه السلام - أعلى معارج العفة والنزاهة، قال صاحب كتاب (الفوائد المشوق) (٢) : (وقدذكر الله سبحانه وتعالى عن يوسف الصديق عليه السلام من العفاف أعظم ما يكون؛ فإن الداعي الذي اجتمع في حقه لم يجتمع في حق غيره؛ فإنه · كان شاباً ، والشباب مركب الشهوة، وكان عزباً، ليس عنده ما يعوضه،

(١) انظر : جمهرة الأمثال١٣٩/٢ ، مجمع الأمثال ١٥٥/٢ ، تمثال الأمثال ٥٢٨/٢ .
(٢) ص٧٨-٧٩.

وكان غريباً عن أهله ووطنه، والمقيم بين أهله وأصحابه يستحي منهم أن يعلموا به، فيسقط من عيونهم، فإذا تغرب زال هذا المانع، وكان في صورة المملوك، والعبد لا يأنف مما يأنف منه الحر،

وكات المرأة ذات منصب وجمال، والداعي مع ذلك أقوى من داعي من ليس كذلك، وكانت هي المطالبة، فيزول يذلك كلفة تعرض الرجل وطلبه وخوفه من عدم الإجابة، وزادت مع الطلب الرغبة التامة والمراودة التي يزول معها ظن الامتحان والاختبار لتعلم عفافه من فجوره، و كانت في محل سلطانها وبيتها، بحيث تعرف وقت الإمكان ومكانه الذي لا تناله العيون، وزادت مع ذلك تغليق الأبواب لتأمن هجوم الداخل على بغتة، وأتته بالرغبة والرهبة، ومع هذا كله عف لله، ولم يطعها، وقدم حق الله وحق سيدها على ذلك كله، وهذا أمر لو ابتلي به سواه لم يعلم كيف تكون حاله)
كما أن من فوائد هذا التعبير الدلالةعلى جرأتها وقوة شكيمتها، بأن سعت إلى فتى ربا في بيتها، وعاش في كنفها ، تطلب منه حراماً.
أما قوله تعالى: " عن نفسه " فلم يسبق للعرب استعمال هذه الكناية الرائعة عن طلب المواقعة والجماع، فهو من أساليب التعبير الجديدة في القرآن العظيم، وتعدية الفعل ب " عن " للدلالة على أن معنى المراودة هنا: محاولة أن يجاوز الفتى عفافه، وتمكينه إياها من نفسه، فكأنها تراوده عن أن يسلم إليها إرادته وحكمه في نفسه (١)

(١) تفسير التحرير والتنوير:١٢/٢٥٠.

وأخيرا تأملوا قوله تعالى : " وغلقت الأبواب "،

فالصرفيون يقولون(١) : التضعيف في هذا الفعل للدلالة على تكثير المفعول، أي للدلالة على كثرة الأبواب، ولكني لا أرى ذلك، بل أرى أن المراد أغلقت الأبواب إغلاقاً محكماً بشدة وقوة تدعوان إلى الطمأنينة، أما تكثير المفعول به - وهو الأبواب - فليس ناشئاً عن الفعل، بل هو غير وارد ؛ لأن جمع الباب على الأبواب يدل على القلة؛ ويؤيده أنه قد روي أن أبواب البيت لم تكن تجاوزالعشرة - وهوماتدل عليه جموع الكثرة-، بل كانت سبعة فقط(٢)، ولو كانت أكثر من ذلك لربما قال : (بيبان)، وهذا يدل على أن تضعيف الفعل دال على إحكام الفعل، لا على كثرة المفعول. والله أعلم.

قوله تعالى : " واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدا الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا ألا أن يسجن أو عذاب أليم * "] يوسف: ٢٥] .
في هذه الآية وقفتان:
الوقفة الأولى: قوله: " ماً جزاء من أراد بأهلك سوءاً " حيث لم تنسب إرادة السوء صراحة إلى يوسف عليه السلام ، بل أتت بلفظ دال على العموم، وهو اسم الموصول : (من)، وهو ما يدخل فيه يوسف

(١) الأصول في النحو: ١٢٣/١،المفصل: ٢٨١.
(2) الكشاف: 2/٣١٠.

وغيره؛ لأنها (لما شاهدت من يوسف - عليه السلام - أنه استعصم منها مع أنه كان في عنفوان العمر، وكمال القوة ، ونهاية الشهوة، عظم اعتقادها في طهارته ونزاهته، فاستحيت أن تقول : إن يوسف - عليه السلام - قصدني بالسوء ، وما وجدت من نفسها أن ترميه بهذا الكذب)(١).
ثم إن المرأة لم تصمه بطلب الفاحشه على سبيل التصريح، بل ذكرت كلاماً مجملاً، وقد يظن أنه تعريض منها بأنه أراد أن يضربها، ويدفعها عن نفسه، وكان ذلك بالنسبة إليها جارياً مجرى السوء ، فلعلها بقلبها كانت تريد إقدامه على دفعها ومنعها، وفي ظاهر الأمر كات توهم أنه قصدها بما لا ينبغي(2).
الوقفة الأخرى: في قوله تعالى : " الا أن يسجن أو عذاب ألبم " ملمحان لطيفان :
أحدهما : تقديم طلب سجنه على إيقاع العذاب عليه.
والآخر : التعبير عن طلب السجن بالمصدر المؤول : " أن يسجن " بخلاف إيقاع العذاب الذي عبر عنه بالمصدر الصريح : " عذاب أليم" .
وقد بين الإمام الفخر الرازي - رحمه الله - وجهي هذين الملمحين، فذكر (أن حبها الشديد ليوسف حملها على رعاية دقيقتين في هذا الموضع، وذلك أنها بدأت بذكر السجن، وأخرت ذكر العذاب؛ لأن

(١) مفاتيح الغيب : ٩٨/١٨

(٢) المصدرالسابق: ١٨/٩٨‑٩٩.

المحب لا يسعى في إيلام المحبوب، وأيضاً أنها لم تذكر أن يوسف يجب أن يعامل بأحد هذين الأمرين، بل ذكرت ذلك ذكراً كلياً صوناً للمحبوب عن الذكر بالسوء .
وأيضاً قالت: " إلا أن يسجن "، والمراد أن يسجن يوماً أو أقل، على سبيل التخفيف، فأما الحبس الدائم فإنه لا يعبر عنه بهذه العبارة، بل يقال : يجب أن يجعل من المسجونين، ألا ترى أن فرعون هكذا قال حين تهدد موسى عليه السلام في قوله : " قال لإن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين " [الشعراء : ٢٩](١).

قوله تعالى : " وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها في ضلال مبين * " [يوسف : ٣٠] .
حوت هذه الآية من معالم الجمال اللغوي ما يعجز اليراع عن وصفه، وما يحار العقل ببراعته (٢) ؛ فإن قوله تعالى : " نسوة في المدينة " يدل على مدى انتشار هذا الخبر بين النساء ، فوصف النسوة بكونهن متفرقات في المدينة، مع ما تدل عليه كلمة " المدينة " من سعة وكبر، كل أولئك يشعر يكثرة ما تتحدث يه النساء عن ذلك الخبر العجيب.
ثم إن قوله : " امرأة العزيز " دون تسميتها، أو الكناية عنها كما
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) مفاتيح الغيب :٩٨/١٨ .
(٢)انظر : التفسيرالقيم: ٣١٤-٣١٥ .

حصل في الآية السابقة حيث قال : " التي هو في بيتها " يشعر باستهجان هؤلاء النسوة هذا العمل؛ لوقوعه من إمرأة ذات زوج، فصدور المراودة من مثلها أقبح من صدورها ممن لا زوج لها، مع اشتراكهما في القبح، ثم إن إضافة المرأة إلى العزيز زيادة بالتشنيع عليها؛ لأن زوجها عزيز مصر وكبيرها، فكيف تجرؤ على تدنيس كرامته ومكانته؟ .
ومن معالم الجمال اللغوي في هذه الآية قوله : وتراود فتاها" ، فإضافة (فتى) إلى ضمير المرأة

مبالغة في التقبيح لها؛ إذ المراود مملوك لها، لا رجل حر، والحرائر تستنكف عن النظر إلى العبيد فكيف بمراودتهم؟.
ثم إن استعمال الفعل المضارع " تراود" بدل الماضي كما في الآية السابقة " (وراودته) يدل على علم هؤلاء النسوة بأن المرأة مستمرة في مراودة الفتى في الماضي والحاضر، ويدل على ذلك أنها أجابتهن فيما بعد بقولها : " قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم وإن لم يفعل ما آمره ليسجنن ويكونا من الصاغرين * " [يوسف : ٣٢]
أما قوله تعالى: " قد شغفها حبا " فهو في غاية الروعة التعبيرية الجمالية؛ فإن شغاف القلب حجابه، فكأن حب هذا الفتى قد مزق حجاب قلبها، ووصل إلى فؤادها، أو أن حبه أحاط بقلبها مثل إحاطة الشغاف بالقلب، فاشتغل بحبه، وصار حجاباً بينه وبين كل ما سوى هذه المحبة، فلا تعقل صاحبة هذا القلب سواه، ولايخطر ببالها غيره.
قال ابن القيم رحمه الله - (١) : (إنهن جمعن لها في هذا الكلام واللوم بين العشق المفرط والطلب المفرط ، فلم تقتصد في حبها، ولا في طلبها، أما العشق فقولهن: " قد شغفها حبا "، أي : وصل حبها إلى شغاف قلبها ، وأما الطلب المفرط فقولهن : وتراود فتاها " ، والمراودة: الطلب مرة بعد مرة ، فنسبوها إلى شدة العشق وشدة الحرص على الفاحشة) . والله أعلم.

وبهذه المناسبة أقول : يروى أن رجلا قال لنبي الله يوسف - عليه السلام - : إني أحبك يا صفي الله، فقال : هل أتيت ألا من محبة الناس لي؛ أحبني أبي، فحسدني إخوتي، حتى ألقوني في الجب، وأحبتني امرأة العزيز، فلبثت بضع سنين في السجن، فلست أحب أن يحبني إلا ربي**(2)** والله أعلم .

ومن النوادر اللطيفة أنه حين مات الشاعر كثير بن عبدالرحمن، غلب النساء على جنازته، يبكينه، ويذكرن محبوبته عزة في ندبتهن له، فقال أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب : افرجوا لي عن جنازة كثير؛ لأرفعها، فجعل يضرب النساء بكمه، ويقول : تنحين يا صواحبات يوسف. فانتدبت له امرأة منهن، فقالت : يابن رسول الله لقد صدقت؛ إنا لصواحبات يوسف، وقد كنا له خيراً منكم له، فقال أبو جعفر لبعض مواليه : احتفظ بها حتى تجيئني بها إذا

(١) التفسيرالقيم:٣١٥.
(٢) التمثيل والمحاضرة: ١٤.

انصرفنا .

فلما انصرف أتي بتلك المرأة كأنها شرارة النار، فقال لها محمد بن علي : أنت القائلة إنكن ليوسف خير منا؟ قالت : نعم! تؤمنني غضبك يا بن رسول الله؟ قال : أنت آمنة من غضبي، فأبيني . قالت : نحن يابن رسول الله دعوناه إلى اللذات من

المطعم والمشرب، والتمتع والتنعم، وأنتم معاشر الرجال ألقيتموه في الجب، وبعتموه بأبخس الأثمان، وحبستموه في السجن، فأينا كان عليه أحنى، وبه أرأف؟ فقال محمد ابن علي : لله درك**!** ولن تغالب امرأة ألا غلبت**.**
ثم قال لها**:** ألك بعل؟ قالت **:** لي من الرجال من أنا بعله فقال أبوجعفر**:** صدقت؛ مثلكمن تملك بعلها، ولا يملكها
فلما انصرفت قال رجل من القوم **:** هذه زينب بنت معيقب(١)**.**

قوله تعالى **:** " قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون * ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون * ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون * " **[**يوسف **:** ٤٧ **-** ٤٩ **]**
قال بن الجواليقي**:** **(**ولا تفرق عوام الناس بين **(**العام**)** و**(**السنة**)**، ويجعلونهما بمعنى واحد، فيقولون **:** سافر في وقت من السنة، أي **:**

---

(1) الأغاني**:** ٣٩,٣٨/٩

وقت كان إلى مثله ذلك، وهو غلط، والصواب ما أخبرت به عن أحمد بن يحيى أنه قال **:** **(**السنه**)** من أي يوم عددته إلى مثله **.** و**(**العام**)** لا يكون إلا شتاء وصيفاً، وليس السنة والعام مشتقين من

شيء ، فإذا عددت من اليوم إلى مثله فهو سنة، يدخل فيه نصف الشتاء و نصف الصيف، والعام لا يكون إلا صيفاً وشتاء ٠ . . فالعام أخص من السنة، فعلى هذا تقول : كل(عام) سنة، وليس كل(سنة) عاماً)(١) .
وقال الراغب الأصفهاني في كتابه (المفردات)(٢): (وأكثرما تستعمل السنة في الحول الذي فيه الجدب، يقال : أسنت القوم، أصابتهم السنة) ، وقال في موضع آخر (٣) : (العام كالسنة، لكن كثيراً ما تستعمل السنة في الحول الذي يكون فيه الشدة أو الجدب، ولهذا يعبر عن الجدب بالسنة، والعام بما فيه الرخاء والخصب) .
وقد سار أكثر المفسرين على التفريق بينهما من حيث القحط والخصب، واستشهدوا على ذلك بأحاديث، منها ما رواه مسلم - رحمه الله- عن ثوبان - رضي الله عنه - أن رسول الله قال : (,.. وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة) (٥) .
وأقول : أوضح منه في الاستشهاد ما رواه مسلم- رحمه الله – عن

(١) تاج العروس للزبيدي: ٤١٣/٨ .
(٢) ص: ٢٤٥,
(٣) المفردات:٣٥٤.
(٤) تفسيرأبي السعود:٢٨/٤.
(٥) صحيح مسلم:٢٢١٥/٣.

أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ليست السنة بأن لا تمطروا، ولكن السنة أن تمطروا، وتمطروا، ولا تنبت الأرض شيئاً)(١)؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سار في تعريفه للسنة على ما يعرفه اصحابه رضي الله عنهم، ثم بين لهم التعريف الصحيح لها .

ولكن فرق بينهما أبو هلال العسكري من جوانب أخرى، فقال(٢) (الفرق بين (العام) و(السنة) أن العام جمع أيام، والسنة جمع شهور، ألا ترى أنه لما كان يقال : أيام الرنج، قيل : عام الرنج، ولما لم يقل: شهور الرنج، لم يقل: سنة الرنج .

ويجوز أن يقال : (العام) يفيد كونه وقتاً لشيء، و(السنة) لا تفيد ذلك، ولهذا يقال: عام الفيل، ولا يقال : سنة الفيل، ويقال في التاريخ : سنة مئة، وسنة خمسين، ولا يقال : عام مئة، وعام خمسين؛ إذ ليس وقتاً لشيء مما ذكر من هذا العدد، ومع هذا فإن العام هو السنه، والسنة هي العام ، وإن اقتضى كل واحد منهما ما لا يقتضيه الآخر ما ذكرناه، كما أن الكل هو الجمع، والجمع هو الكل، وإن كان الكل إحاطة بالأبعاض، والجمع إحاطة بالأجزاء).

ويرى السهيلي- رحمه الله-أن الفرق بينهما أن (العام) يطلق على ذي الشهور القمرية، وأما (السنة) فتطلق على ذات الشهور الشمسية(٣) .

---

(١) صحيح مسلم: ٣/ ٢٢٢٨.

(٢) الفروق اللغوية:٢٢٤.

(٣) الروض الأنف:٢/٥٧-٥.

وعوداً إلى الآيات التي هي محل هذه النظرة نجد المولى - عز وجل- قال : " سبع سنين"، ثم قال : " عام فيه يغاث الناس " ، ففي الأولى استعمل السنين ، ثم استعمل العام، فما السرفي ذلك ؟ .
قال السهيلي-رحمه الله-(١) : (قال: " سنين "، ولم يقل: (أعوام)، والسنة والعام – وإن اتسعتا العرب فيهما، واستعملت كل واحد منهما مكان الآخر اتساعاً- ولكن بينهما في حكم البلاغة والعلم بتنزيل الكلام فرقاً ، فخذه :
أولا: من الاشتقاق؛ فإن السنة من : سنا ، يسنو، إذا دار حول البئر، والدابة: هي السانية، فكذلك السنة: دورة من دورات الشمس، وقد تسمى السنة (دارا) ؛ ففي الخبر: (إن بين آدم ونوح ألف دارا)، اي: الف سنة، هذا أصل الاسم، ومن ثم قالوا : اكلتهم السنة، فسمواشدة القحط سنة، قال الله سبحانه : " ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين " [الأعراف: 130]، ومن ثم قيل: أسنت القوم، إذا أقحطوا: . ؛ لأن الجدوبة والخصب معتبر بالشتاء والصيف، وحساب العجم إنما هو بالسنين الشمسية ، بها يؤرخون .. . .. .
وانظر بعد هذا إلى قوله: " تزرعون سبع سنين دأبا، ولم يقل: (أعواماً) ، ففيه شاهد لما تقدم، غير أنه قال : " ثم يأتي من بعد ذلك عام، ولم يقل : سنة، عدولاً عن اللفظ المشترك؛ فإن السنة قد يعبر

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١)الروض الأنف: ٢/٥٧-٥٨ .

بها عن الشدة والأزمة، كما تقدم، فلو قال : (سنة) لذهب الوهم إليها؛ لأن العام أقل أياماً من السنة، وإتما دلت الرؤيا على سبع سنين شداد، وإذا انقضى العدد فليس بعد الشدة إلا رخاء ، وليس في الرؤيا ما يدل على مدة ذلك الرخاء ، ولا يمكن أن يكون أقل من عام، والزيادة على العام مشكوك فيها، ولا تقتضيها الرؤيا ، فحكم بالأقل، وترك ما يقع فيه الشك من الزيادة على العام، فهاتان فائدتان في اللفظ بالعام في هذا الموطن) .
ثم وجه السهيلي-رحمه الله-بعض الآيات، فقال(١): (وأما قوله : " وبلغ أربعين سنة " [الأحقاف :١٥]، فإنما ذكر السنين، وهي أطول من الأعوام ؛ لأنه مخبرعن اكتهال لإنسان، وتمام قوته، واستوائه، فلفظ السنين أولى بهذا الموطن؛ لأنها أكمل من الأعوام .
وفائدة أخرى. أنه خبرعن السن، والسن معتبر بالسنين؛ لأن أصل السن في الحيوان لا يعتبر إلا بالسنة الشمسية؛ لأن النتاج والحمل يكون بالربيع والصيف، حتى قيل: (ربعي) للبكير، و(صيفي) للمؤخر....، فلما قيل في الفصيل ونحوه: ابن سنة، وابن سنتين، قيل ذلك في الآدميين، وإن كان أصله في الماشية.
وأما قوله : " وفصاله في عامين " [لقمان : ١٤] (٢) ، فلأنه قال

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) الروض الأنف:2/58-59
(٢) في المطبوع من كتاب الروض الأنف : (وحمله وفصاله في عامين) ، ولا آية في القرآن بهذا النص ، بل هناك قوله : " وحمله وفصاله ثلاثون شهرا " [الأحقاف :١٥]

سبحانه: " يسألونك عن الأهلة " [البقرة: ٣١٨٩، فالرضاع من الأحكام الشرعية، وقد قصرنا فيها على الحساب بالأهلة.
وكذلك قوله :" يحلونه عاماً ويحرمونه عاما " [التوبة : ٢٣٧ ، ولم يقل: سنة؛ لأنه يعني شهر المحرم وربيع إلى آخر العام، ولم يكونوا يحسبون بأيلول ، ولا تشرين ، ولا بيناير، وهي الشهور الشمسية ٠
وقوله سبحانه: " فأماته الله مائة عام " [البقرة: 259] إخبار منه لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته، وحسابهم بالأعوام والأهلة كما وقت لهم سبحانه .
و قوله سبحانه في قصة نوح : " فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما " [العنكبوت: ١٤]، قيل : إئما ذكر أولا السنين؛ لأنه كان في شدائد مدته كلها إلا خمسين عاماً منذ جاءه الفرج ، وأتاه الغوث، ويجوز أن يكون الله سبحانه علم أن عمره كان الفاً إلا أن الخمسين منها كانت أعواماً، فيكون عمره ألف سنة، ينقص منها ما بين السنين الشمسية والقمرية في الخمسين خاصة ؛ لأن خمسين عاماً

بحساب الأهلة أقل من خمسين سنة شمسية بنحو عام ونصف، فإن كان الله سبحاله قد علم هذا من عمره، فاللفظ موافق لهذا المعنى، وإلا ففي القول الأول مقنع ، والله أعلم بما أراد،
فتأمل هذا ؛ فإن العلم بتنزيل الكلام ووضع الألفاظ في مواضعها اللائقة بها يفتح لك باباً من العلم بإعجاز القرآن .
وابن هذا الأصل تعرف المعنى في قوله تعالى :" في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة * " [المعارج؛ ٤]، وقوله تعالى: " وإن يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون * " [الحج ٤٧] ، وأنه كلام ورد في معرض التكثير والتفخيم لطول ذلك اليوم، والسنة أطول من العام، كما تقدم، فلفظها أليق بهذا المقام) .

قوله تعالى : " فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ياخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم * " [يوسف: ٧٦] .
كرر كلمتي " وعاء أخيه " وذلك لأسباب :
أما تكرار كلمة " وعاء " فإنه لو قال : (ثم استخرجها منه) لأوهم الكلام أنه استخرجها من أخيه؛ لأنه أقرب مذكور، قال ابن الحاجب في أماليه(١): (فيصير كأن الأخ كان مباشراً بطلب خروج الوعاء، ولم يكن الأمر كذلك؛ لما في المباشرة من الأذى الذي تأباه النفوس الأبية، فأعيد

بلفظ الظاهر؛ لنفي هذا التوهم) .
وأما تكراركلمة " أخيه " فإنه لو قال : (ثم استخرجها من وعاءِ ه) لأوهم الكلام أن يوسف - عليه السلام - استخرجها من وعائه هو-أي من وعاء يوسف - ؛ لأن الأصل في الضمير أن يعود على أقرب مذكور، وهو يوسف(2).
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) الأمالي النحوية: ١/١٠٢-١٠٣.
(٢) البرهان في علوم القرآن :٢/٤٩٠.

ثم إن تكرار هذه الكلمة فيه تأكيد على منزلة الأخ في قلب يوسف عليه السلام. والله أعلم.

قوله تعالى: " فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين * [يوسف : 80] .
يروى أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ هذه الآية، فقال: (أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام) (١)؛ فالاستفعال هنا " استيأسوا " يدل على شدة قنوط إخوة يوسف — عليه السلام - بعد تكرار محاولاتهم بأن يأخذ يوسف أحدهم مكان أخيهم الذي عاهدوا أباهم على الحفاظ عليه، قال أبو السعود -رحمه الله — : (" فلما استيأسوا منه " أي: يئسوا من يوسف وإجابته لهم أشد يأس بدلالة صيغة الاستفعال، وإنما حصلت لهم هذه

المرتبة من اليأس؛ لم شاهدوه من عوذه بالله مما طلبوه، الدال على كون ذلك عنده في أقصى مراتب الكراهة، وأنه مما يجب أن يحترز عنه، ويعاذ منه بالله عز وجل، ومن تسميته ظلماً بقوله: " إنا إذا لظالمون ". " خلصوا " اعتزلوا، وانفردواعن الناس، و نجياً أي: ذوي

(١) البداية والنهاية لابن كثير: ٦٤/١.

نجوى، على أن يكون بمعنى النجوى والتناجي، أو : فوجا نجياً ، على أن يكون بمعنى المناجي، كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والمسامر) .
وأظن أن سبب سجود الأعرابي هو ما يدل عليه قوله : " خلصوا نجيا " من مبالغتهم في الاعتزال والانفراد عن الناس، وتحاشيهم أن يسمع أحد كلامهم، ومع ذلك أطلع الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم على محاوراتهم، حيث قال : " قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين * ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين * واسأل القرية التى كنا فيها والعير الى اقبلنا فيها وإئا لصادقون * " .

قوله تعالى : " قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم * [الحجر: ٣٧ ٣٨] . . فقد

أضيف اليوم إلى " الوقت "، والظاهر أنهما بمعنى واحد، فكأنه قال : (إلى وقت الوقت المعلوم) ، فأضيف الشيء إلى نفسه، وقد صح ذلك؛ لأن " الوقت المعلوم " الذي أضيف إليه " يوم " يراد به النفخ في الصور، أو القيامة، فكأنه قال: يوم النفخ في الصور، أو: يوم القيامة، فالوقت المعلوم أصبح علماً على النفخ أو القيامة، فلم تكن الإضافة ههنا من إضافة الشيء إلى نفسه الممنوعة في اللغة (١).

(١) الأمالي النحوية:٦٩/١.

قوله تعالى :" فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين " [الحجر: ٩٤]

حكي أن بعض الأعراب لما سمع هذه الآية سجد، فلما سئل عن سبب سجوده قال : (سجدت لفصاحة هذا الكلام)(١). ونقل أبو حيان عن أبي عبيدة عن رؤبة قوله: (مافي القرآن أغرب من قوله: " فاصدع بما تؤمر)(2).

وقال أبو منصور الثعالبي: (ثلاث كلمات اشتملت على شرائط الرسالة، وشرائعها، وأحكامها، وحلالها، وحرامها)(٣).

فقوله: " فاصدع بمعنى : امض فيه، وأظهره، واجهر به، قال ابن أبي الإصبع في كتابه (بديع القرآن) (٤): (المعنى: صرح بجميع ما أوحي إليك، وبلغ كل ما أمر تبيانه، وإنشق بعض ذلك على بعض القلوب، فانصدعت، والمشابهة بينهما فيما

يؤثره التصديع في القلوب، فيظهر أثرذلك على ظاهر الوجوه من التقبض والانبساط، ويلوح عليها من علامات الإنكار أو الاستبشار، كما يظهر على ظاهر الزجاجة المصدوعة من المطروقة في باطنها، فانظر إلى جليل هذه الاستعارة، وإلى عظيم إيجازها، وما انطوت عليه من المعاني الكثيرة). انتهى كلامه,

فالصدع على هذا القول يكون من الرسول صلى الله عليه وسلم لقلوب الكفار بما

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٦٤/١ .

(٢) البحرالمحيط: ٤٩٨/٦.

(٣) الإعجازوالإيجاز: ١٧ .

(٤) ص:**22**

أوحى الله تعالى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم. ثم تأملوا -رحمني الله واياكم- في تخصيص الآية للمصدوع به بالأوامر فقط، حيث قال الله تعالى: " بما تؤمر "، ولم يقل: (وبما تنهى)؛ لأنه لما حذف الجار والمجرور بعد قوله : (تومر)، حيث أصل الكلام (بما تؤمر به)، صار اللفظ دالاً على الأوامر والنواهي؛ لأن أوامرالله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم كانت تقضي بأن يأمرالكافرين ياتباع الدين لجديد ، وينهاهم عن عبادة الأصنام، والطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم بتبليغ الكفار أوامر الله تعالى ونواهيه كلها أوامرللرسول - عليه أفضل الصلاة والسلام- ، ولأجل ذلك حسن حذف الجار

والمجرور، فلم يقل : (بما تؤمر به) ؛ إذ لو قيل ذلك لوجب أن يقال : (وبما تنهى عنه) ، وما ينهى الإنسان عنه لا يليق به الجهر . والله أعلم ٠

قوله تعالى : " والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون * [النحل : ٨] .
عادة العرب في كلامها أن تؤخر الأهم للامتنان به إذ كان المقام مقام تعداد للفضائل والمكارم، لكن ظاهر هذه لآية يوحي تقديم الأهم، حيث قدم الخيل على البغال، والبغال على الحمير، فلم جاء الكلام في هذه الآية على خلاف النسق المعروف عند العرب؟
الجواب عن ذلك: أن الآية سارت على القاعدة، ولم تشذ عنها، فالحمير أهم من الخيل والبغال، والبغال أهم من الخيل نظرا إلى أن معظم الناس يستفيدون من الحميرحيث يقدرون عليها، ولايقدرون على الخيل، ويستطيع كثيرمن الناس الحصول على البغال أكثر من استطاعتهم الحصول على الخيل، ومن هنا يتضح أن الآية لم تخالف سنن العرب في كلامها. والله أعلم.
والمتأمل لقوله تعالى : " لتركبوها وزينة " يجد تنويعاً بالأسلوب؛ فالركوب والزينة علتان لخلق هذه الدواب، لكنه عبر عن الركوب بالفعل، وعبرعن الزينة بالاسم المنصوب، ويعلل النحاة ذلك بقولهم : إن الزينة مفعول لأجله، من الفعل في الآية السابقة على هذه الآية : " والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تاكلون * [النحل؛ ٥] حيث

اتحد المصدرمع العامل بالفاعل، ففاعل الخلق والتزيين هو الله تعالى، ولذلك استوفى المصدر شروط النصب على المفعول لأجله، فنصبت " زينة " أما الركوب ففاعله المخاطبون، فانتفى شرط من شروط نصب المفعول لأجله بعدم اتحاده مع عامله بالفاعل، فجر باللام(١) ، وهذا هو التعليل اللفظي لسياق الكلام .
وللزمخشري تعليل آخر حيث قال: (فإن قلت: فهلا ورد المعطوف والمعطوف عليه من سنن واحد، قلت: لأن الركوب فعل المخاطبين، وأما الزينة ففعل الزائن، وهو الخالق)(٢)

---

(١) الكشاف:٤٠٢/٢.
(٢) المصدرالسابق.

أما التعليل المنظور فيه إلى المعنى فهو أن يقال : إن المقصد الأساس من خلق هذه الدواب هو الركوب، وهو يتجدد مرة بعد أخرى، وغير ثابت، ولذلك عبر عنه يالفعل، وجره باللام المفيدة للتعليل، أما الزينة فهي تابعة لأهم الغرضين، وهو الركوب، فجعلها تبعاً، وعبر عنها يالاسم الذي يدل على الثبوت والدوام؛ لان الزينة غير متجددة .
وأخيراًتأمل قوله : " ويخلق ما لا تعلمون ٠ تجد الإعجازعينه؛ فالعرب حين نزول القرآن الكريم لم تعرف غير وسائل النقل المذكورة في الآيات، أما وسائل النقل الأخرى فأشارالله تعالى إليها إشارة بقوله: " ويخلق ما لا تعلمون " ،ولذلك لاتعجب

حين تقرأ بعض التفاسير القديمة فتجدها لا تقطع بمراد الله تعالى بهذه الآية؛ لأن هؤلاء المفسرين لم يروا غيرتلك الوسائل المعهودة لديهم . والله أعلم .

[image]

[image]

قوله تعالى : " قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون " [النحل : ٦ ٢] .
إذا تأمل القارئ قوله تعالى : وفخر عليهم السقف من فوقهم فقد يبدو له أن قوله : " فخرعليهم السقف ٠ مغن عن قوله : " من فوقهم ٠ ؛ لأن " خر " و " عليهم " و "السقف " كلها تدل على حصول الخر من فوقهم؛ فالخر لا يكون إلا فيما سقط من العلو لى لأسفل، و (على) في أصل استعمالها تدل على وقوع الشيء من أعلى إلى أسفل، والسقف أصله أن يكون في العلو .
لكن المتدبر لهذه الآية يدرك أن لقوله : " من فوقهم " فائدة جليلة؛ إذ دلت على الفوقية الحقيقية، فالسقف قد وقع عليهم، وكانوا تحته، فهلكوا، وما أفلتوا(١) ، ولولا ذكر " من فوقهم " لتوهم غير ذلك؛ لأن (على) ليست قطعية في الدلالة على العلو، بل قد تكون هنا بمعنى (عن)، أي: خرعن كفرهم بالله، كما تقول : اشتكى فلان عن دواء شربه، اي: من أجل كفرهم، او بعنى (اللام)، أي: فخر لهم)(٢)، وذكر بن جني أن(على) قد تخرج عن الاستعمال في العلو إلى الاستعمال

في الأفعال الشاقة المستثقلة (على [حد] قول
من يقول : قد سرنا عشراً، وبقيت علينا ليلتان،
وقد حفظنا القرآن ، وبقيت علي منه سورتان، وقد
صمنا عشرين، وبقي علينا عشر، وكذلك يقال في
الاعتداد على الإنسان بذنوبه وقبيح أفعاله : قد
أخرب علي ضيعتي، وموت علي عواملي، وأبطل
علي انتفاعي، فعلى هذا لو قيل: " فخر عليهم
السقف " ، ولم يقل: " من فوقهم " لجاز أن يظن
يه أنه كقولك : قد خربت عليهم دارهم، وقد
أهلكت عليهم مواشيهم وغلاتهم، وقد تلفتعليهم
تجارتهم، فإذا قال: " من فوقهم " زال ذلك المعتى
المحتمل، وصار معناه أنه سقط وهم من تحته)
(٣)، ويؤيد ذلك أنه

(١) البرهان في علوم القرآن:٢ ا ٤٤٣ ٣ ا ٦٧ .
(٢) المصدرالسابق: ٢/٤٤٢.
(٣) الخصائص: ٢/٢٧٠,٢٧١.

يقال : سقط عليه موضع كذا، إذا كان يملكه، وإن
لم يكن من فوقه، بل تحته(١).
كما أنه ليس كل سقف يكون من فوق؛ (فإن كثيراً
من السقوف يكون أرضاً لقوم، وسقفاً لآخرين (٢)،
فرفع احتمال ان يكون السقف تحتهم بقوله : "
من فوقهم " . والله أعلم.

قوله تعالى : " وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين
إنما هو إله واحد فإياي فارهبون * " [النحل:

٥١]٠
حيث قال الله سبحانه وتعالى : " إلهين اثنين " مع أن قوله: " إلهين " دال على التثنية، فما فائدة الوصف بقوله:" اثنين " ؟
للعلماء في ذلك أقوال متعددة، من أحسنها قول أحمدبن الحسين ابن الخباز الإربلي-رحمه الله-:
(إن فائدتها توكيد النهي عن الإشراك بالله سبحانه؛ وذلك لأن العبرة في النهي عن اتخاذ الإلهين إنما هو لمحض كونهما اثنين فقط، ولو وصف " إلهين " بغير ذلك من الصفات كقوله: (لاتتخذو إلهين عاجزين) لاشعر بأن القادرين يجوز أن يتخذا، فمعنى التثنية شامل لجميع الصفات، فسبحان من دقت حكمته في كل شيء!!!)(٣).

---

(١) البرهان في علوم القرآن:٢/٤٤٣ .
(٢) المصدرسابق:٣/٦٧.
(٣) المصدرالسابق: ٢/٤٣٣-٤٣٤.

وقيل :إنه لو قال:" لا تنخذوا إلهين " فقط، دون الصفة، لاحتمل النهي عن الجمع بينهما، فلا مانع من اتخاذ كل واحل منهما منفرداً .
واحتمل النهي عن الاقتصار عليهما، فلا مانع من اتخاذ آلهة ثلاثة فأكثر، ولنفي هذين الاحتمالين أتى بقوله: "اثنين" ليتوجه النفي إلى التعدد نفسه والعدد.

قوله تعالى: " والله جعل لكم مما خلق ظلالاً

وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحروسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون * [النحل: ٨١] .
يستشهد أهل اللغة بهذه الآية على حذف العاطف والمعطوف، ويجعلون التقدير (وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر والبرد) (١)، فإذا سئلوا عن سر حذف (البرد) قالوا : إن الخطاب للعرب، وبلاد العرب حارة ، والوقاية عندهم من الحر أولى وأهم؛ لأنه في حرارته أشد من البرد في برودته (2).
والصحيح أن الوقاية من البرد ذكرها الله تعالى في الآية التي قبل هذه الآية (٣) حيث قال : " والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها

(١) البسيط في شرح جمل الزجاجي :٤١٣/١، مغني اللبيب :٣٥ .
(٢) الكشتف: 2/٤٢٣.
(٣) البرهان في علوم القرآن : ١١٨/٣ .

وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين * " [النحل: ٨٠]؛ فالصوف والوبر والشعر لا تلبس في الصيف، فأغنى ذكرها سابقاً عن إعادتها.
وذكر ابن هشام- رحمه الله- (١) أن عدم ذكره كان اكتفاء بقوله في أول السورة عن الأنعام : ل" والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومتافع ومنها تأكلون * " . والله أعلم .

قوله تعالى : " وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (35)" [الإسراء : ٣٥] .

قيد إيفاء الكيل يقوله : " إذا كلتم " ، ولم يفعل ذلك مع الوزن، ولذلك فائدة جليلة (٢)، فالكيل إما أن يكيله الإنسان، أو يكتاله، فالأول بيع، وهو الذي يقع فيه البخس والتطفيف، قال تعالى: " وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون " [المطففين: ٣] ، والثاني، وهو الاكتيال، شراء لا حاجة إلى الأمر بإيفائه؛ لأن المشتري سيكون حريصاً على ذلك دون أن يوصى به، قال تعالى: "الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون" [المطففين : ٢] ، بل إن المشتري مأمور بأن يتسامح عند الكيل له ٠

ولو لم يقيد ذلك بقوله: " إذا كلتم " لأوهم أن الإيفاء مطلوب في الكيل والاكتيال، لكنه لما فيد بالشرط آفهم أن المقصود وقت الكيل، لا وقت الاكتيال، وقال أبوحيان:(إن المراد ألا يتأخر الإيفاء، بأن يكيل

(١) مغني اللبيب:٨٢ .

(٢) تفسير أبي السعود :١٧١/٥.

به بنقصان ما، ثم يوفيه بعد ، فلا يتأخ رالإيفاءعن وقت الكيل) . ه *،

أما عدم تقييد الوزن ب(إذا وزنتم) ، فلعل الاكتفاء بتقييد كون الوزن بالقسطاس المستقيم يغني عن

ذكر الشرط ؛ لأنه إذا وزن بالميزان المستقيم لا يتصرر الجور غالباً ، يخلاف الكيل فإنه كنيراً ما يقع التطفيف مع استقامة الآلة، كذا قال ًأبوالسعود(١). والله أعلم.

قوله تعالى : " وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً " [الكهف : ١٧] .
في هذه الآية من البدائع ما لا يحيط به بيان، فتأمل كيف أراد الله عز وجل (أن يعرفنا لطفه للفتية، وحفظه إياهم في المهجع، واختياره لهم أصلح المواضع للرقود، فأعلمنا أنه بوأهم في مقنأة الجبل(٢)، مستقبلاً بنات نعش، فالشمس تزورعنه، وتستدبره طالعة وجارية وغاربة، ولا تدخل عليهم، فتؤذيهم بحرها، وتلفحهم بسمومها، وتغيرألوانهم، وتبلي ثيابهم، وأنهم في فجوة من الكهف - أي متسع منه -، ينالهم فيه نسيم الريح وبردها، وينفي عنهم

(١) تفسير أبي السعود :١٧١/٥ .
(٢) المقنأة : هو المكان الذي لا تقع عليه الشمس، بأن يكون بابه جهة الشمال . انظر : الصحاح : ١/ ٦٦ ، الروض الأنف : ٥٥/٢.

غمة الغار وكربه)(١) .

قوله تعالى : " وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعباً * " [الكهف ح١٨].
ظن الناظرإلى أصحاب الكهف أنهم أيقاظ يتجدد عندما يعيد النظرإليهم مرة بعد أخرى، ويرى من هيئتهم وحالهم ما يدل على ذلك، ولتجدد الظن والحسبان عنده عبر عنه يالجملة الفعلية : " تحسبهم " ، ولثبوت رقودهم ودوامه وعدم استيقاظهم منه عبر يالجملة الاسمية، وهي قوله: " وهم رقود ".
وفي هذه الآية أيضاً جملة فعلية، وأخرى اسمية، حيث عبر عن تقليب أصحاب الكهف يميناً وشمالا بالجملة الفعلية: " ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال"(٢)؛ لتكرار حصوله مرة بعد مرة منعاً من تأكل
____

(١) تأويل مشكل القرآن: ٩ .
(٢) قال الشيخ إبراهيم بن يوسف: (لاحظت نكتتين في قوله: "ونقلبهم":
الأولى: أن التقليب من الله تعالى لهؤلاء الفتية الرقود، والعهد بالنائم أن يتقلب في الفراش دون أن يقلبه أحد، لكن لما كان نوم هؤلاء على غير السنن المألوف؛ إذ كان خارقاً للعادة في كل مظاهره، ناسب إسناده إلى الله تعالى، لا إليهم.
ومثل هذه الصيغة في القرآن يحتمل أحيانا أن يكون المباشر للفعل هم الملائكة، وإسناده إلى الله

تعالى باعتبار أمره به وتقديره له جل وعلا.
الثانية:يستفاد من صيغة الفعل: ونقلبهم الكثرة والتكرار؛ وذلك ناشىء عن طول المدة التي لبثوها في الكهف المستديمة؛ لدوام تقليبهم يميناً وشمالاً. والله أعلم).

أجسادهم، وعبر عن بسط الكلب ذراعيه؛ لثبوته ودوامه، بقوله : (وكلبهم باسط ذراعيه يالؤصيد " أي يالجملة الاسمية التي تدل على ذلك.
أما قوله : " ذات اليمين وذات الشمال " فالمراد : الجهة ذات اليمين، والجهة ذات الشمال، والإتيان ب " ذات " التي هي بمعنى (صاحبة)، دون أن يقول: (ونقلب هم يميناً وشمالأ) ؛ لأن المقصود أيمانهم وشمائلهم، ولوجاءت منكرة لما تحددت. والله أعلم.
أما تكراركلمة " ذات " حيث قال:" ذات اليمين وذات الشمال " مع إمكان أن يقال في غير القرآن الكريم : (قلبته ذات اليمين والشمال) ؛ فلأن المدة بين التقليبين طويلة حتى قال بعض المفسرين : إنها سنة (1)، وقال مجاهد: تسع سنوات(٢) والله أعلم
وأخيراً تأملو تكرار كلمة " منهم " في قوله تعالى : " لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا "٠ فتكرارالجار والمجرور "منهم" للدلالة على هول منظرهم، وللتأكيد على أن الرعب يكون بسبب رؤيتهم على تلك الحالة لابسبب وحشة المكان الذي هم فيه . والله أعلم.

قوله تعالى : " فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهماً فاتخذ سبيله في

(١) الكشاف: ٤٧٥/٢ .
(٢) تفسيرالرازي: ٨٦/٢١

البحرسربا * [الكهف: ٦١] .
نسب النسيان إلى موسى - عليه السلام - وفتاه ، مع أن الناسي هو الفتى، فأشرك موسى -عليه السلام - فيه؛ لسكوته وعدم سؤاله عنه (١).

قوله تعالى : " فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لأتخذت عليه أجرا. [الكهف: ٧٧] .
حيث كرركلمة " أهل " ، فقال : " استطعما أهلها " بعد قوله : " أهل قرية " ؛ لأنه لو قال: (استطعماهم) —بالإضمار دون الإظهار— لعاد الضمير على " أهل " الأولى، فيكون مدلوله مدلول الأول، وهذا غير ممكن؛ لأن " أهل " الأولى يراد بها جميع أهل القرية، فالمقصود بالإتيان الوصول إليهم، كما يقول القائل: أتيت أهل مصر، وهو يقصد أنه وصل إليهم، أما " أهل " الثانية فقد وقعت معمولاً للفعل " استطعما "، وهو فعل خاص، فلو قال: (استطعماهم) لتوهم السامع أو القارئ أنهما طافا على جميع بيوت القرية،

يسألانهم طعاماً، فلم يطعموهم، وهذا بعيد،
فالاستطعام إنما يكون لمن ينزل الضيف
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) البرهان في علوم القرآن:٣/٤.

قريباً من ديارهم، ولأجل ذلك أعاد كلمة " أهل " مرة أخرى(1) .
نم إنها من الناحية الإعرابية لا تستقيم إلا كما وردت في القرآن الكريم؛ فجملة " استطعماً أهلها جواب للشرط: (إذا)، وحينئذ إما أن يقول : (أهل قرية استطعماهم) فتخلو الجملة من ضمير يعود على القرية، ولو أتى بضمير يعود إلى القرية، فقال : (أهل قرية استطعماه) ، لنسب الاستطعام إلى القرية، وهذا غير جائز , والله أعلم.

قوله تعالى : " ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً " [الكهف : ٨٢] .
بعد قوله : وقال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك يتأويل ما لم تستطع
عليه صبراً "* [الكهف:٧٨] .
(تسطيع) اخف من (تستطيع) قال العباس بن الأحنف:
أشكوإليك الذي بي يا معذبتي   وما أقاسي وما أسطيع أن أصفا(٢)
وقال عبيد بن الأبرص:
كأن صباً جاءت بريح لطيمة   من المسك لا تسطاع بالثمن الغالي(٣)

فالزيادة في المبنى تدل على الزيادة في المعنى، وفي هاتين الآيتين (قابل الثقل بالأثقل، والأخف بالأخف، كما قال : " إفما اسطاعوا أن

(١) الأمالي النحوية: ١٠٨/١.
(٢) ديوانه:٢٠٦.
(٣) ديوانه:١١٢.

يظهروه " ، وهوالصعود إلى أعلاه، " وما استطاعوا له نقباً * " [الكهف:٩٧] ، وهو أشق، فقابل كلا بما يناسبه لفظاً ومعنى. والله أعلم)**(1).**
وقد يقول قائل: إن هذا واضح في الآية الأخيرة ، فكيف هو في الآيتين الأوليين؟
فأقول : لما كان موسى - عليه السلام - غير عارف بأسباب أعمال العبد الصالح الغريبة : خرق السفينة، وقتل الغلام، وبناء الجدار دون أجرة، كان يرى تلك الأعمال بالغة الفظاعة والغرابة، ناسب أن يخاطبها العبد الصالح بما يلائم حاله، فقال: " سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا" ، فلما أبدى له أسبابها قال له : " ذلك تاويل مالم تسطع عليه صبراً " ، أي: إن الأمر أيسر مما كنت تظن والله أعلم(٢).

قوله تعالى: " فكلي واشربي وقري عينا فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسياً] " مريم: ٢٦] ٠
لم ترد في القرآن الكريم كلمة (الصوم) مراداً بها

الصيام الشرعي المعروف، وهو الإمساك عن الطعام والشراب والجماع، وإنما وردت فيه مراداً بها الصمت، كما في هذه الآية.

(١) تفسير ابن كثير:٣/ ١٠٠ .
(٢) قال الشيخ إبراهيم بن يوسف: (وأضيف عليه: أن العبد الصالح لما كان مع موسى -عليه السلام -في نهاية المطاف على حال فراق ومفاصلة، كان التعبير بالأخف بعدالشرح المفصل أكثر مناسبة للمقام. والله أعلم).

وأماً الصوم الشرعي فقد عبر عنه في القرآن الكريم بالصيام ، كقوله تعالى :" يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون* [البقرة: ١٨٣] . والله أعلم.

قوله تعالى: " فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً * " [مريم: ٢٩] .
لايصح أن تكون وكان) ههنا ناقصة بعنى: حصل ذلك في الزمن الماضي، وانقطع، فتكون مثل قولنا : كان القمر طالعاً؛ لأن و كان " في الآية لو كانت على معناها الأصلي لما كانت لعيسى ابن مريم -عليه السلام- فيه معجزة؛ لأن قول قومه يكون بعد أن كبر، وصار رجلاً، وليس هذا هو المراد، بل إن سؤال قومه حصل وعيسى -عليه السلام - في المهد، حيث من هو في سنه لا يتكلم، ومع ذلك تكلم عيسى عليه السلام، ولذلك " وكان " في

الآية تامة بمعنى (وجد) ، ويكون (صبيا) حالأ.
وقيل: إن " كان " في الآية زائدة (١)، والتقدير: كيف نكلم من في المهد صبياً، وزيدت " كان " ههنا للتوكيد، فيكون المعنى: كيف نكلم من تأكد استقراره في المهد صبياً ؟ ، ولو لم تقدر " كان " زائدة

(١) مجاز القرآن: ٧/٢ ، معاني القرآن وإعرابه: ٣٢٨/٣ .

ولا تامة لانتفت المعجزة عن عيسى عليه السلام؛ لأن كل رجل يمكن أن يقال عنه : كان فلان في المهد صبياً، أي : كان، ثم صار رجلاً. والله أعلم.
قوله تعالى عن يحيى- عليه السلام - : " و سلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً * " [مريم: ١٥]، وقوله تعالى على لسان عيسى - عليه السلام - : " والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا * " [مريم: ٣٣]
فإن تحية يحيى - عليه السلام - بدئت بالسلام نكرة، حيث قال : " وسلام عليه " ، أما تحية عيسى - عليه السلام - فقد بدئت بالسلام معرفة، حيث قال : " والسلام علي، والسرفي ذلك – والله أعلم- أن السلام دعاء وطلب، والعرب في ألفاظ الدعاء والطلب تأتي بها نكرة، فتقول: ويل له، وسقياً لك ورعياً؛ لأن ألفاظ الدعاء تجري مجرى النطق بالفعل، والفعل بمعنى النكرة، ف(سلام عليكم) بمعنى : سلمكم الله، و(سقياً لك) بمعنى:

سقاك الله، وهكذا، فالأصل في التحية أن تكون بلفظ النكرة،إلا أننا نجد أن تحية عيسى - عليه السلام - بدئت بالمعرفة، ولذلك فوائد منها : أن السلام اسم من أسماء الله، فذكره يشعر بذكر الله سبحانه وتعالى، ويشعر أيضاً بطلب معنى السلامة منه؛ لأنك متى ذكرت اسماً من أسماء الله فقد تعرضت لطلب المعنى الذي اشتق ذلك الاسم منه، ويشعرأيضاً بعموم التحية، وأنها غير مقصورة ، فأنت ترى أنه ليس قولك : (سلام عليك)- أي : سلام مني - بمنزلة قولك؛ (السلام) في العموم، كذا قال أبوالقاسم السهيلي في كتابه (نتائج الفكر في النحو) (١).

وهذا إذا كانت التحية من الإنسان، أما إذا كانت من الله تعالى كتحيته ليحيى - عليه السلام - فليست بحاجة إلى التعريف؛ لعدم قصد التبرك، ولا التعرض ، ولا الطلب، ولا العموم في التحية منه ومن غيره، كما يقصد العبد، فسلام من الله تعالى كاف من كل سلام، ومغن عن كل تحية، ومرب على كل أمنية(٢)

وأحب هنا أن أشيرإلى أن على الكاتب والمتحدث أن يبدءا كلامهما بقول : (سلام من الله عليكم) ، فيبدءا بالنكرة ، ويختماه بقول : (والسلام عليكم)؛ بالمعرفة، والسر في ذلك أن هناك إجماعاً من العلماء على ابتداء الكتابة والحديث بالسلام نكرة، واختتامهما به معرفه (٣)، ذكرذلك السهيلي أيضاً، وذكر في تعليله): أنها مشعرة بالعموم ، والكاتب مؤكد لخصوص نفسه بالتسليم ، مشعر بسلامة

وده للمكتوب إليه، لا سيما عند افتتاح الكلام؛
ليستشعر المكتوب إليه الأنس والسلامة من الكاتب
على الخصوص، من غير التفات إلى طلب

(١) ص **415**
(٢) نتائج الفكر في النحو: ٤١٦.
(٣) صناعة الكتاب: ١٧٥ .
(٤) نتائج الفكرفي النحو: ٤١٧-٤١٨ .

العموم، وهذا المعنى كله إنما يحصل بإسقاط
(الألف واللام) .
فإذا ختم الرساله قال : (والسلام عليك) معرفاً؛
وذلك لثلاث فوائد :
إحداها: أن الخصوص بسلام الكاتب قد حصل في
أول الكتاب، ووقع الأنس به، فكان العموم هنا أبلغ
في الدعاء ؛ فإنه لا يخص نفسه، بل يجمع له
سلامه و سلام غيره .
والفائدة الثانية: أن يختم باسم من أسماء الله
تعالى، كما فعل في الصلاة ؛ طلباً للأجر، وتبركاً
بالذكر، واكتفى في أول الرسالة ب(بسم الله
الرحمن الرحيم) ، وحسبك به ذكراً .
والفائدة الثالثة: بديعة جداً، وهي : أن (الواو)
العاطفة توجب بناء الكلام على ما تقدم . . .
فأشعرت الواوبعطف فصل على فصل من الكتاب،
فلما فرغ منها قال : (والسلام) ، يريد : وبعد هذا
كله (السلام عليك).
وفي الآيتين السابقتين قيد السلام على يحيى

وعيسى-عليهما السلام- بيومي ولادتهما ويومي موتهما ويوم بعثهما، فما السرفي ذلك؟
قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - : (إن طلب السلامة يتأكد في المواضع التي هي مظان العطب ومواطن الوحشة، وكلما كان الموضع مظنة ذلك تأكد طلب السلامة، وتعلقت بها الهمة، فذكرت هذه المواطن الثلاثة؛ لأن السلامة فيها آكد، وطلبها أهم، والنفس عليها أحرص؛ لأن العبد فيها قد انتقل من دار كان مستقرا فيها ، موطن النفس على صحبتها وسكناها إلى دار هو فيها معرض للآفات والمحن والبلاء) (١)

قوله تعالى : " ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً * " [مريم:٦٩] .
الشيعة: الفرقة التي شايع بعضها بعضاً ، وتابعه ، ومنهم الأشياع، وهم التبع، قال ابن القيم -رحمه لله تعالى - عن لفظ الشيعة: (وغال بما يستعمل في الذم، ولعله لم يرد إلا كذلك، كهذه الآية، وكقوله: "إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنماً أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون * " [الأنعام :١٥٩] ، وقوله : " وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب * " [سبأ: ٥٤] ؛ وذلك – والله أعلم- لما في لفظ الشيعة من الشياع والإشاعة التي هي ضد الانتلاف والاجتماع، ولهذ لا يطلق لفظ الشيع إلا على فرق الضلال؛ لتقرفهم واختلافهم). انتهى كلام بن القيم رحمه الله(٢).

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(1) بدائع الفوائد: ٢/١٦٨ .
(٢) المصدرالسابق: ١/١٥٥ ،بدائع التفسير: ٣/١٤٤,١٤٥ .

وأقول : إن لفظ الشيعة ليس مخصوصاً بالذم ، بل هو غالب فيه؛ لقوله تعالى : " وإن من شيعته لإبراهيم " [الصافات : ٨٣] .
والله أعلم.

قوله تعالى: " وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني " [طه:٣٩].
إن كلام الله لا يماثله كلام؛ فهو أبلغ من أن يبارى، وأسمى من أن يجاري، هل أنعمنا النظر في هذه الآية العظيمة؟ : " وألقيت عليك محبة مني " أيكون المراد : أحببتك؟ أم : جعلت الناس يحبونك؟ ام : انزلت القبول لك في الأرض؟
وأقول : ما تفكرت في القرآن الكريم، وتدبرت آياته، ألا رثيت لحال مترجمي معانيه إلى اللغات الأخرى؛ لأنهم لا يملكون ألا أن ينقلو إليها معنى واحداً فقط، وآيات الله في كثير من الأحايين تدل على أكثر من معنى، ألم يختلف المفسرون في المراد بهذه الآية؟
قال ابن عطية- رحمه الله-: (... ثم أخبر تعالى موسى أنه ألقى عليه محبة منه، فقال بعض الناس : أراد محبة آسية؛ لأنها كانت من الله، وكانت سبب حياته، وقالت فرقة : أراد القبول الذي يضعه

الله في الأرض لخيار عباده، وكان حظ موسى منه في غاية الوفر، وقالت فرقة : أعطاه جمالاً يحبه به كل من رآه، وقالت فرقة: أعطاه ملاحة العينين.
(. ,.)(١)

وأقول : تدبروا قوله : " وألقيت عليك محبة مني " ، تجدوا أنه استعمل الإلقاء ، وذكر المحبة، وخصصها بكونها منه عز وجل، فلم يقل:
(وأحببتك)، ولا: (جعلت الناس يحبونك)، ولا:
(ألقيت عليك المحبة) ؛ وذلك - والله أعلم - ليشمل كل الصور المتوقعة، وهذا من إعجاز كلام الله جل جلاله، قال أبو حيان التوحيدي - تجاوز الله عنه-: (وسمعت ابن سمعون الصوفي يقول : ما يقف البشر على بعد غور قول الله تعالى لكليمه : " وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عييه " فإن في هاتين الكلمتين ما لا يبلغ كنهه، ولاينال آخره، ولو أن أرق الناس لساناً، وألطفهم بياناً، أراد أن يتوسط حقيقة هذا القول، لم يستطع، وعاد حسيراً، ونكص بهيراً، وبقي عاجزاً, ثم قال : اللهم حبب بعضنا إلى بعض، واجمع شملنا إلى رضاك عنا، مع إحسانك إلينا؛ إنك أهل ذلك، والجواد به)
.(٢)

ونقل أبو حيان أنه قيل : (إذا أحب الله عبداً ألقى مودته على الماء ، فلم يشرب منه أحد ألا أحبه، وإذا أبغض الله عبداً ألقى بغضه على الماء ، فلم يشرب منه أحد ألا أبغضه)(٢) .

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز :

.٧٥/١١
(٢)الصداقة والصديق:٢١٢.

وجماع الأمر كله ما رواه الإمام البخاري - رحمه الله- عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلاناً فأحببه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض)(١).

قوله تعالى : " قَالَ آَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آَذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى **(71)** " **[**طه: ٧١**]** .
الصلب يكون على جذوع النخل، لا فيها ،
ف(صلب) يتعدى بحرف الجر: (على)، لا ب(في)؛ لأن (في) تفيد الظرفية، أما (على) فتفيد الاستعلاء الذي لا يريده فرعون لهم، بل هدفه إذلالهم، ومجيء (في) ههنا لأن الجذع للمصلوب بمنزلة القبر للمقبور ، فكما يقال : قبر لميت في قبره، يقال : صلب المصلوب في الجذع .
وقيل : إنما آثراستعمال (في) للإشعاربسهولة صلبهم، وأنه لا يكلفه عناء ولا مشقة، بخلاف ما لو استعمل (على) التي تدل على ارتفاع يحتاج فيه إلى تحرك وصعود إلى فوق.
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) صحيح البخاري : كتاب بدء الخلق : ٧٩/٤.

وذكر أبوحيان رأياً آخر، قال (١) : (وقيل: نقر فرعون الخشب، وصلبهم في داخله ، فصار ظرفاً لهم حقيقة حتى يموتوا فيه جوعاً وعطشا).

قوله تعالى: " يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزننا عليكم المن والسلوى * [طه: ٨٠]
قوله : "الأيمن " بالنصب صفة " جانب "، فالطور واحد، وله أكثرمن جانب ، ولو جر قارئ : " الأيمن " لصار صفة للطور، وهذا خطأ؛ فالطور واحد، وليس هناك طور أيمن ، وآخر أيسر ، ولا إشكال في قوله تعالى : " وناديناه من جانب الطورالأيمن وقربناه نجياً" [مرم؛ ٥٢] ؛ لأالموصوف مجرور، لكنه يظلصفة لجانب، ووصف لجانب بالأين تشريف لموسى - عليه السلام - لاشتقاقه من اليمن .
وتأملوا قول الله تعالى في آية أخرى : و وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين [القصص؛ ٤٤]، وهذا خطاب لرسولنا صلى الله عليه وسلم ، فلم يقل ههنا : (بالجانب الأيمن) تشريفاً لرسول الله - في أن يصفه بما قد يوهم أنه ينفي عنه كونه بالجانب الأيمن، المشتق من اليمن، أويسلب عنه لفظاً مشتقاً من اليمن، أومشاركاً لمادته، فأبدل بها " الغربي " (٢) . فالله أكبر! ما أعظم هذ البيان!!

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) البحرالمحيط: ٣٥٨/٧

(٢) البرهان في علوم القرآن : ٦٦/٣ .

قوله تعالى : " ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين * " [الأنبياء: ٤٦] .
تأمل سياق هذه الآية العظيمة الواردة للتهديد والوعيد والتهويل تجده جاء بأسلوب بديع، حيث ورد الضد فيها من عكسه؛ فالكافرون يدعون بالويل والثبور، ويبادرون بالاعتراف بظلمهم أنفسهم؛ بسبب احتمال غير مؤكد لأقل القليل من عذاب؛ عبر عنه ب :

١- (إن) التي تدل على الشك والاحتمال، لا على اليقين والقطع والثبوت.
٢- (المس) وهو الإصابة الخفيفة.
٣- (النفحة) وهي القليل من الشيء.
٤- (من) الدالة على التبعيض.
٥- (العذاب) الذي هو أخف من النكال.
٦- (ربك) الذي يدل على الشفقة (١).

إن من سيكون هذا واقعه عند أول نفحة تمسه من بعض عذاب رب رحيم كيف سيصبر على أنكال لدى الجبار، وجحيم يقيم أبداً في الدرك الأسفل منها ؟ ، إنه لحري به أن يبادر إلى ما ينجيه منه.

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز للنورسي :٣٦ .

قوله تعالى : عن إبراهيم - عليه السلام - وقومه :
" وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين " [الأنبياء: ٣٧.]
وقوله تعالى : " فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين " [الصافات : ٩٨] .
ففي سورة الأنبياء) قال : وفجعلناهم لأخسرين، وفي (الصافات) قال: " فجعلناهم الأسفلين "، والعلة في ذلك – والله أعلم- أن الله تعالى أخبر في سورة (الأنبياء) عن إبراهيم -عليه السلام-أنه تحدى قومه بالكيد لأصنامهم، وأن قومه قابلوا التحدي بمثله، فأرادوا كيده بإحراقه، فألقوه في النار، فنجاه الله تعالى منها، فربح إبراهيم - عليه السلام - تكسيرأصنامهم ونجاته من النار ، وخسر قومه أصنامهم وعدم بلوغهم مرادهم من رميه بالنار، فناسب التعبيرب " الأخسرين " ؛ لأن (الخاسر عندنا من فقد ما بيده من مال أو سبب كان يعتمده لدنياه ومعاشه، أومحاولة فسدت عليه، فساءت حاله لذلك، ومهما استحكمت حاله في ذلك كان أخسر) (١) .
أما في سورة (الصافات) فأخبر الله تعالى عن قيامهم بتشييد بناء عال، ورفعهم إبراهيم - عليه السلام - فوقه ليرموا به من هناك إلى النار التي أججوها، فلما علوا ذلك البناء ، ورموه منه إلى أسفل عادوا هم الأسفلين؛ لهلاكهم في الدنيا وسفول أمرهم في الآخرة،

---

(١) ملاك التأويل: ٨٤١/٢ .

حيث أعلى الله تعالى إبراهيم - عليه السلام - عليهم ، فناسب التعبير عنهم ب" الأسفلين "(١) .

قوله تعالى عن زلزلة الساعة :" يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد* [الحج: ٢] .
الأصل في تاء التأنيث أن يؤتى بها للفرق بين المذكر والمؤنث(٢)، فيقال : مسلم ومسلمة، فإذا كان الوصف خاصاً بالمؤنث لا يشترك معه المذكر فيه لم تدخل عليه التاء(٣)، مثل: حائض، وطالق ، وعانس، ومرضع، وحامل، فلا يقال: حائضة، ولا طالقة، ولاعانسة، ولا مرضعة؛ لأن المقصود: ذات حيض، وذات طلاق، وذات عنوسة، وذات إرضاع، وذات حمل(٤).
ولكن في هذه الآية الكريمة قال : (تذهل كل مرضعة) ، والسبب في ذلك أن المقصود بالمرضعة هنا التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها صبيها، والمرأة في هذه الحال تكون أشد شفقة وعطفاً ومحبة لولدها الذي ترضعه، فذهولها عنه يكون لهول ما فوجئت به، وشدة فزعها من زلزلة الساعة، ويؤيده قوله : " عماً أرضعت " ، فهي لم تفعل ذلك إلا لأمر هوأعظم عندها من الاشتغال بالإرضاع.

(١) فتح الرحمن:٢٧٠-٢٧١.

(2) البديع في علم العربية: ٤٩/٢
(٣) المذكر والمؤنث لابن الأنباري: ١٥/١.
(4) الكتاب: ٩١/٢

أماً كلمة (مرضع) فلا تغني عن و مرضعة في حصول المراد؛ لأن المرضع هي المهيئة للإرضاع، ولو لم تكن مباشرة للإرضاع في ذلك الوقت، وهذه قد تذهل عن رضيعها إذا كانت غير مباشرة للرضاعة في حينه، ومثله لفظ (الحائض) ، فقد روت عائشة٠رضي الله عنها وعن والدها - قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لايقبل الله صلاة حائض إلا بخمار)(١)، فليس المراد بالحائض هنا التي في حالة حيض؛ لأن هذه لا يقبل الله صلاتها لا بخمار ولا دونه؛ إذ لا صلاة عليها، وإنما المراد بالحائض هنا البالغة سن الحيض.
وأماً قوله تعالى : " وتضع كل ذات حمل حملها " فقد قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - (٢): (تأمل - رحمك الله - السر البديع في عدوله سبحانه عن (كل حامل) ، [أي عن أن يقول: (وتضع كل حامل)]، إلى قوله : " ذات حمل "؛ فإن الحامل قد تطلق على المهيأة للحمل، وعلى من هي في أول حملها ومباديه، فإذا قيل: " ذات حمل لم يكن إلا لمن قد ظهرحملها، وصلح للوضع كاملاً، أو سقطاً، كما يقال : ذات ولد . . . فأتى في الحامل بالسبب الذي يحقق وجود الحمل وقبوله للوضع) .
ولا شك في أن الحامل إذا كان حملها في أواخره ففقده أشق عليها وأعظم في الخسارة، بخلاف ما

إذا كان في مباديه؛ فإنه أيسر عليها وأقل أثراً في نفسها، فالتعبير ب(ذات حمل) لبيان كبره، ومن ثم فإن ما يشغلها ويذهلها عن مشقة فقده وأثره في

---

(١) مسند أحمد :٦/ ١٥٠ □ ٢١٨ □ ٢٥٩، سنن الترمذي : ٢/٢١٥، سنن ابن ماجه : **1/215**
(٢) بدائع الفوائد :٢١/٤ .

نفسها، لهو أعظم منه ولا ريب، فقيام الساعة أنساها قيمة حملها وألم إسقاطه. والله أعلم .
وهكذا يتضح مدى شدة زلزلة الساعة؛ فإن (شفقة الأم على الإبن أشد من شفقة الأب، فشفقتها على الرضيع أشد من شفقتها على غيره، وكل ذلك يدل بدلالة الأولى على ذهول غيرها من النساء والرجال، وقد حصل من هذه الكناية دلالة على جميع لوازم شدة الهول، وليس يلزم في الكناية أن يصرح بجميع اللوازم؛ لأن دلالة الكناية عقلية، وليست لفظية) (١)

قوله تعالى: " إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم * " [الحج؛ ٢٥] .
فعدى فعل الإرادة بالباء ، وحقه أن يتعدى بنفسه، ولكنه عدي بها لتضمنه معنى (يهم)، فصار المعنى- والله أعلم-: ومن يرد، أو يهم فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم . وهو أبلغ من إرادة الإرادة

فقط؛ لأن استحقاق العذاب صار عند الإرادة أو الهم بها.

قوله تعالى : " ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم * [النور: ٣٣].

(١) تفسير التحرير والتنوير : ١٧/ ١٨٠ .

يرى بعض العلماء أن الشرط في قوله : " إن أردن تحصناً " شرط لغو (١)، زاعمين أنه لا يصح إكراه الإماء على الزنى إن أردن التحصن أو لم يردنه، وهذه العلة صحيحة لو كانت هي وحدها سبب الشرط، لكن الصحيح أن للشرط فائدة عظيمة، وأن استعمال (إن) دون (إذا) له فائدة أخرى.
ولكن قبل بيان ذلك أذكر سبب نزول الآية ، فقد روى مسلم في صحيحه(٢) عن جابر-رضي الله عنه - (أن جارية لعبدالله بن أبي ابن سلول يقال لها : مسيكة، وأخرى يقال لها : أميمة، فكان يكرههما على الزنى، فشكت ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله: " ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء " إلى قوله: " غفور رحيم ".
وقال مقاتل : نزلت في ست جوار لعبدالله بن أبي كان يكرههن على الزنى، ويأخذ أجورهن، وهن: معاذة، ومسيكة، وأمبمة، وعمرة، وأروى، وقتيلة، فجاءت إحداهن ذات يوم بدينار، وجاءت أخرى

ببرد ، فقال لهما : ارجعا، فازنيا، فقالتا : والله لا نفعل؛ قد جاءنا الله بالإسلام، وحرم الزنى، فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشكتا إليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية (٣) .
أما فائدة الشرط ابتداء ففيه زيادة تقبيح لحالهم، وتشنيع عليهم؛

---

(١) البحر المحيط :٤١/٨
(٢) صحيح مسلم: ٢٣١٠/٣، رقم الحديث (٣٠٢٩
(٣) أسباب النزول للواحدي: ٣٢٦-٣٢٧ .

بسبب ما كانوا عليه من القبائح لما لا يخفى على ذي بصيرة، حيث كانوا يكرهون فتياتهم على البغاء ، وهن يردن التعفف عنه مع وفور شهوتهن الآمرة الفجور؛ فهن فتيات، ومع قصورهن في معرفة الأمور الداعية إلى المحاسن الزاجرة عن تعاطي مثل هذه الرذائل؛ فهن إماء رقيقات، وإن من له أدنى مروءة لا يكاد يرضى بفجور من يحويه حرمه من إمائه، فضلاً عن أن يأمرهن به، أو يكرههن عليه، لا سيما عند إرادتهن التعفف (١).
قال أبو السعود-رحمه لله -(١) : (فتأمل، ودع عنك ما قيل من أن ذلك لأن الإكراه لايتأتى إلا مع إرادة التحصن، وما قيل من أنه إن جعل شرطاً للنهي، لا يلزم من عدمه جواز الإكراه؛ لجواز أن يكون ارتفاع النهي لامتناع المنهي عنه، فإنهما بمعزل من التحقيق؟ .
وأما فائدة استعمال " إن " الشرطية دون (إذا)

فهي الدلالة على التشنيع في النهي عن إكراه الإماء على البغاء عند مجرد احتمال إرادتهن التحصن، ولواستعمل (إذا) ، وقال : " إذا أردن تحصن "، لأشعر ذلك بأنه لا يتعين إلا عند التحقق من إرادتهن ذلك ، قال أبو السعود - رحمه الله - (١) : (وإيثار كلمة " إن " على (إذا) مع تحقق الإرادة في مورد النص حتماً للإيذان بوجوب الانتهاء عن الإكراه عند كون إرادة التحصن في حيز التردد والشك، فكيف إذا كانت محققة الوقوع، كما

(١) تفسيرأبي السعود: ٦/١٧٣ .

هو الواقع، وتعليله بأن الإرادة المذكورة منهن في حيز الشاذ النادر مع خلوه عن الجدوى بالكلية، يأباه اعتبار تحققها إباء ظاهراً) .

قوله تعالى : " فكبكبوا فيها هم والغاوون * " [الشعراء: ٩٤] .
لم يقل:(فكبوا) ، وإنما كرر الكلمة دليلاً على التكرير في المعنى، كأن الواحد منهم إذ ألقي في جهنم ينكب مرة يعد أخرى حتى يستقر في قعرها(١).
قال عبيد بن الأبرص:
ولوا وهن يجلن في آثارهم   شللاً وبالطناهم فتكبكبوا(٢)

قوله تعالى : " فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين * " [النمل: 19]
حين يتحدث المفسرون عن قوله عز وجل: " فتبسم ضاحكاً " يقولون: إنه (يعني: تبسم شارعاً في الضحك، يعني: أنه قد تجاوز حد التبسم إلى الضحك)(٣).

---

(١) الكشاف :١١٩/٣، البرهان في علوم القرآن : ٣٤/٣-٣٥ .
(٢) ديوانه:٧.
(٣) تفسير الفخر الرازي: ١٦١/٢٤ .

ثم يتحدثون عن ضحك الأنبياء، وأنه لايجاوزالتبسم(١)، ولكني أرى ان سبب الجمع في الآية ين التبسم والضحك إنما هو لأن التبسم وحده لا يدل على أنه ناشئ عن الرضا والسرور، وهما المرادان بالآية الكرية، فنبي الله سليمان - عليه السلام - مسرور بما سمعه من قول النملة، وبما أنعم الله عليه من فهم لغة النمل، ولو عبر عن ذلك بالتبسم وحده لم يف بالغرض؛ لأن التبسم قد يكون تعبيراً عن الغضب، وليس عن السرور، قال عنترة بن شداد .
لما رآني قد قصدت أريده   أبدى نواجذه لغير تبسم(٢)
وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله

عنه :
ولربما ابتسم اللبيب من الأذى وفؤاده من حره يتأوه(٣)
وكذا الضحك وحده لا يفي بالغرض؛ لأنه ربما لا يدل على سرور، قال الشاعر:
وربما ضحك المكروب من عجب السن تضحك والأحشاء تضطرم(4)
ولذلك كان لزاماً الجمع بينهما للدلالة على المراد، قال زياد الأعجم:
مراراً ما دونوت إليه ألا تبسم ضاحكاً وثنى الوسادا(٥)
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) الكناف :١٤٢/٣,
(٢) ديوانه: ٢١.
(٣) ديوانه: ٩٠، وانظر: مقالات الأدباء ومناظرات النجباء : ١٢٩.
(٤) محاضرات الأدباء: ١٢٣ .
(٥) شعره:66

وقال أوس بن حجر:
نواعم ما يضحكن ألا تبسماً إلى اللهو قد مالت بهن السوالف(١)
وقد نبه على ذلك السراج الوراق حين قال :
قد تشبه الحالة الأخرى وبينهما إذا تاملت فرق عن سواك خفي
فربما صفق المسرورمن طرب وربما صفق المحزون من أسف(٢)

قوله تعالى : " إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين* "] النمل: ٨٠] .
التولية غير الإدبار؛ فالتولية في الأصل: الإقبال، ومنه قوله تعالى : " قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره " [البقرة :١٤٤]، لكنها إذا أطلقت دون ذكر لمفعولها أريد بها أن يولي الشيء ظهره.
وأما الإدبار فهوأن يهرب منه، فليس كل مول مدبراً، ولا كل مدبر مولياً، وفي هذه الآية العظيمة أكد المولى – عزوجل - عدم انتفاع الكفار بدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات :
فشبههم بالصم، والأصم لو كان مقبلاً لم يسمع، وأكد سوء حالهم بأن جعلهم مولين، والأصم إذا
____

(١) ديوانه: **63**
(٢) ديوانه :٤٧، وانظر : الغيث المسجم في شرح لامية العجم : ٣٤٢/٢.

ولى كان أبعد له من السماع ، ثم زاده تأكيداً بأن جعلهم مدبرين، والأصم المولي إذا أدبر كان أشد ؛ لبعده عن السماع . والله أعلم (١).

قوله تعالى : " وجاء رجل من أفصا المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين " [القصص : ٢٠]

ففي هذه لآية الكريمة قدم كلمة "رجل" على
الجار والمجرور " من أفصا المدينة " فقال :"
وجاء رجل من أقصاً المدينة "، وفي سورة (يس)
قال تعالى : " وجاء من أفصاً المدينة رجل يسعى
قال يا قوم اتبعوا المرسلين " [يس 20] فقدم
الجاروالمجرور " من أقصا المدينة "على الفاعل "
رجل " ، ولكل من الحالتين فائدة بليغة (٢) :
وسبب ذلك أنه في آية (القصص) جاء الفاعل،
وهو " رجل " مقدماً على الجار والمجرور " من
أفصاً المدينة " حسب الأصل ، ولكون " رجل "
نكرة وصفه بانه قادم من أقصى المدينة، فموسى
لا يعرف عنه شيئاً إلا أنه قادم من مكان بعيد
ليعلمه ما كان فيه الكفار من ائتمار به .
أما في آية (يس) فالمراد تقريع أصحاب القرية
الذين كفروا بالمرسلين، وكذبوهم، وتبكيتهم على
استمرارهم في الكفر مع ما شاهدوه من الآيات
المعجزة، ومن مظاهر توبيخهم وتقريعهم أن يأتي

(1) البرهان في علوم القرآن:٤٠٣/٢.
(٢) ملاك التأويل:2/٠٩٠٧,٩٠٤

من أقصى لمدينة، من ذلك المكان البعيد الذي لم
يشهد المعجزات، ولم تتل فيه الآيات، أن يأتي هذا
الرجل الذي لم يحضر جميع ما حضره الكفار، ولم
يسمع مثل ما استمعوه، ولم ير من المعجزات ما
رأوه، ومع ذلك يؤمن هو، وهم يكفرون، ويدعوهو
إلى الإيمان، ويتنادون هم بالكفر، فنظراً إلى أهمية

بعده عن مواطن الدعوة قدم بيان مكانه على ذكره هو ٠ والله أعلم.
وبهذه المناسبة انبه على أن قول كثير من الناس عن الأمر الذي يشم من ورائه مكيدة وائتمار بشر : (هذا الأمر فيه (إن) أنه مأخوذ من آية القصص : " إن الملأ يأتمرون يك " ، وما يروى في ذلك أن محمود ين صالح بن مرداس صاحب حلب أمر كاتبه أبا نصر محمدبن الحسين بن علي النحاس الحلبي أن يكتب كتاباً إلى سديد الملك أي الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني، يتشوقه فيه، ويستعطفه، ويستدعيه إليه، وكان سديد الملك صديقاً للنحاس الحلبي، وكان الحلبي يعرف أن سيده يريد بصديقه شرا، فكتب كما أمره سيده، إلى أن بلغ آخر الكتاب، وكان قوله: (إن شاء الله تعالى) ، فشدد الكاتب نون (إن) ، وفتحها، فصارت (إن) .
فلما وصل الكتاب إلى سديد الملك عرضه على ابن عمار صاحب طرابلس ومن بمجلسه من خواصه، فاستحسنوا عبارة الكاتب، واستعظموا ما فيه من رغبة محمود فيه، وإيثاره لقربه، فقال سديد الملك : إني أرى في الكتاب ما لا ترون.
ثم أجابه عن الكتاب بما اقتضاه الحال، و كتب في جملة الكتاب : (أنا الخادم المقر بالإنعام) ، وكسر همزة (أنا) وشدد النون، فصارت : (إنا الخادم المقربالإنعام) .
فلما وصل الكتاب إلى محمود، ووقف عليه الكاتب النحاس الحلبي، سر بما فيه، وقال لأصدقائه :

قدعلمت أن الذي كتبته لا يخفى على سديد الملك، وقد أجاب بما طيب نفسي.
وكان الكاتب النحاس الحلبي قد قصد قول الله تعالى : " إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك " ، فأجاب سديدالملك بقوله تعالى :" إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها " [المائدة: ٢٤](١).

قوله تعالى : " قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون* قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون."
[القصص: ٧١ ٧٢] .
تأمل ختام الآية الأولى تجده : " أفلا تسمعون " ، وختام الآخرة تجده: " أفلا تبصرون)" ، فما سر ختم كل آية بهذا الختام ؟ .
إنك إذا تدبرت الآيتين وجدت أنه مع الليل يتعذر الإبصار؛ بسبب ادلهمام الظلمة، وتقوى حاسة السمع؛ بسبب السكون، ولذلك

(١) وفيات الأعيان: ٣/٤١٠

وصف أعرابي ليلة ظلماء تستوي فيها صحيحات العيون وعورها، فقال: (خرجنا في ليلة حندس، فقد ألقت على الأرض أكارعها، فمحت صورة الأبدان، فما كنا نتعارف إلا بالآذان (١) وهؤلاء إذا لم يعتبروا فهل فقدوا حاسة السمع أيضاً تبعاً

لفقدهم حاسة الإبصار ابتداء؟
وأما مع النهار فتقوى حاسة الإبصار، فإذا لم يعتبروا فهل قد فقدوا تلك الحاسة التي هذا أوان نفعها؟ . والله أعلم .
وقال الزركشي-رحمه لله-(٢): (لما كان سبحانه هو الجاعل الأشياء على الحقيقة، وأضاف إلى نفسه جعل الليل سرمداً إلى يوم القيامة ، صار الليل كأنه سرمد بهذا التقدير، وظرف الليل ظرف مظلم لا ينفذ فيه البصر، لا سيما وقد أضاف الإتيان بالضياء الذي تنفذ فيه الأبصار إلى غيره، وغيره ليس بفاعل على الحقيقة، فصار النهار كأنه معدوم ؛ إذ نسب وجوده إلى غير موجد، والليل كأنه لا موجود سواه؛ إذ جعل [وجوده] سرمداً منسوباً إليه سبحانه، فاقتضت البلاغة أن يقول : " أفلا تسمعون "؛ لمناسبة مابين السماع والظرف الليلي الذي يصلح للاستماع ، ولا يصلح للإبصار.
وكذلك قال في الآية التي تليها : " أفلا تبصرون؛ لأنه لما أضاف جعل النهار سرمداً إليه ، صار النهاركأنه سرمد، وهوظرف مضيء تنور فيه الأبصار، وأضاف الإتيان بالليل إلى غيره، وغيره ليس

(1) ديوان المعاني١/٣٤٣.
(٢) البرهان في علوم القرآن: ٨٢/١

يفاعل على الحقيقة، فصار الليل كأنه معدوم ؛ إذ نسب وجوده إلى غير موجد، والنهار كأنه لا

موجود سواه؛ إذ جعل وجوده سرمداً منسوباً إليه، فاقتضت البلاغة أن يقول : " أفلا تبصرون " ؛ إذ الظرف مضيء صالح للإبصار، وهذا من دقيق المناسبة المعنوية) .

قوله تعالى : " وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلماً أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون [السجدة: ٢٠] .
حيث أعاد ذكر النار مرة أخرى ، فقال : " وقيل لهم ذوقوا عذاب النار" بعد قوله: " فمأواهم النار، قال ابن الحاجب -رحمه الله -(١): (إن سياق الآية التهديد والتخويف وتعظيم الأمر، وفي ظاهر لفظ (النار) من ذلك ما ليس في الضمير، ألا ترى إلى قوله :
لا أرى الموت يسبق الموت شيء نغص الموت ذا الغنى والفقيرا(٢))
انتهى كلامه.
فكرر الموت ثلاث مرات مع إمكان إضماره يدلأ من إظهاره .
وهذا القول لابن الحاجب غير دقيق؛ لأن الله — سبحانه وتعالى – قد أتى بضميرها مرتين قبل ذلك حين قال: " أن يخرجوا منها " وقال " إأعيدوا فيها "، ولو كان الإظهار لمراعاة التهديد والتخويف

(1) الأمالى النحوية:٥٨/١.

(٢) البيت لعدي بن زيد العبادي في (ديوانه : ٦٥)، ونسب لسوادة بن عدي في (الكتاب : ٣٠/١).

لأظهر فيهما بدل الإضمار ، لكن الصحيح أنه أظهرالاسم بدل إضماره لأته وقع في جملة محكية لما يقال لهم يوم القيامة عند إرادتهم الخروج من النار ، فلا يناسب ذلك وضع الضمير موضع الظاهر، فذكر النار أولاً آت بخبر الله تعالى عن مأوى الكافرين، ولذلك لما اعاد الحديث عنها مرة ثانية في سياق خبره أعاده مضمراً، أما ذكرالنار مرة أخرى دون إضمار فهو في قول الملائكة الذي لم يبن على حديث سابق عن النار . والله أعلم

قوله تعالى: " يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داوود شكراً وقليل من عبادي الشكور" [سبأ:١٣] .
الشكر: الامتلاء من ذكر المنعم عليه، والشكرثلاثة أنواع :
شكرالقلب: وهو تصور النعمة، وشكر اللسان: وهو الثناء على المنعم، وشكرسائرالجوارح : وهومكافأة النعمة بقدراستحقاقه(١)، وبناءعلى هذا يكون في هذه لآية وقفتان :
أولاهما: أن الله تعالى قال : " اعملوا آل داوود شكراً" ، ولم يقل: (اشكروا)، قال الراغب الأصفهاني(٢): (لينبه على التزام

(١) المفردات في غريب القرآن: ٢٦٥ .
(٢) المصدر السابق .

الأنواع الثلاثة من الشكر بالقلب، واللسان، وسائر الجوانح)، فيكون إعراب " شكراً " في الآية على هذا القول مفعولاً مطلقاً . وقيل : إنها مفعولاً لأجله (١).
ثانيتهما: أنه قال: " وقليل من عبادي الشكور"
قال الزركشي(٢): (الحمد لله الذي ما قال: (الشاكر)) ؛ لأن الشاكر هو المثني بالقليل والكثير، اما (شكور) فصيغة مبالغة بمعنى : الموفي نعم الله حقها من الشكر، ولذلك وصف الشكورين بالقلة؛ لأن توفية نعم الله بالشكر صعبة الحصول، فهي كثيرة، و مهما حاول العبد شكرها فسيظل مقصراً .
قال عبدالله بن المقفع : (قد بلغ فضل الله على الناس من السعة، وبلغت نعمته عليهم من السبوغ، ما لو أن أخسهم حظاً، وأقلهم منه نصيباً، وأضعفهم علماً، وأعجزهم عملاً، وأعياهم لساناً، بلغ من الشكر له، والثناء عليه بما خلص إليه من فضله، ووصل إليه من نعمته، ما بلغ له منه أعظمهم حظاً، وأوفرهم نصيباً، وأفضلهم علماً، وأقواهم عملاً، وأبسطهم لساناً، لكان عما استوجب الله عليه مقصراً، وعن بلوغ غاية الشكر بعيداً ، ومن أخذ بحظه من شكر الله، وحمده، ومعرفة نعمه، والثناءعليه، والتحميد له، فقد استوجب بذلك من أدائه إلى الله القربة عنده، والوسيلة إليه،

والمزيد فيما شكره

(١) البحر المحيط :٥٢٩/٨ .
(٢)البرهان في علوم لقرآن: ٥١٤/٢ .

عليه من خير الدنيا، وحسن ثواب الآخرة)(١) .
وقال الراغب الأصفهاني(٢): (ولذلك لم يثن- أي الله- بالشكر من أوليائه إلا على اثنين: قال في إبراهيم -عليه السلام - : " شاكرا لأنعمه " [النحل: ١٢١ [وقال في نوح: " إنه كان عبداً شكورا" [الإسراء: ٣]).
قمدح إبراهيم بأنه مثن على نعم الله، ومدح نوحاً بأنه مبالغ في الثناءعليها.
ويحسن في هذا المقام أن أشير إلى فائدة المغايرة بين الصفتين في قوله تعالى: " إئا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا " [الإنسان: ٣ [سأل الصاحب بن عباد القاضي عبد الجبار بن أحمد المعتزلي : لم جعل الله الـمبالغة في الكفر، ولم يجعلها في الشكر ؟
(فأجاب القاضي بأن نعم الله على عباده كثيرة، وكل شكر يأتي في مقابلتها قليل، وكل كفر يأتي في مقابلها عظيم، فجاء الشكر يلفظ (فاعل) ، وجاء (كفور) بلفظ (فعول) على وجه المبالغة) . (3)
وكتب صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي إلى العلامة جمال الدن السبكي قائلا(4):

(١) الأدب الصغير :٣٧.
(2) المفردات: ٢٦٥.
(٣) البرهان في علوم القرآن: ٢/ ٥١٤ .
(٤) أعيان العصر وأعوان النصر للصفدي : ٢/ ٢٧٦،
وانظر : المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى:
١١-١٢.

قوله تعالى : " قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى، هدى او في ضلال مبين * " [سبأ: ٢٤]
ختم الله الآية الكريءمة بما يسميه البلاغيون (تجاهل العارف)، ومزج الشك باليقين بإخراج ما تعرف صحته مخرج ما يشك فيه؛ ليزيد بذلك تأكيداً ومبالغة في المعنى، فلم يبين من من القبيلين على الهدى، ومن منهما في الضلال، وهذا من إنصاف الخصم ، وإقامة الحجة عليه، بترك الحكم فيه للعاقل، قال الزمخشري(١): (وهذامن الكلام المنصف الذي كل من سمعه من موال أو مناف قال لمن خوطب به : قد أنصفك صاحبك، وفي درجه بعد تقدمة ما قدم من التقرير البليغ دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى، ومن هو في الضلال المبين، ولكن التعريض والتورية أنضل بالمجادل إلى الغرض، وأهجم به على الغلبة مع قلة شغب الخصم، وفل شوكته بالهوينا، ونحوه قول الرجل لصاحبه : (علم الله الصادق مني ومنك، وأن أحدنا لكاذب(٢)) .
وههنا نظرة أخرى في استعمال حرف الجر (على) مع الهدى، حيث قال : " لعلى هدى " واستعمال (في) مع الضلال، فقال : " أو في ضلال مبين * "(على) التي تدل على الاستعلاء، ومن استقام على الطريق المستقيم، وثبت على الحق، فإنطريق

الحق تصعد بصاحبها إلى العلي الكبير، فلعلوه وثبوته واستقامته ناسب مجيء (على) معه، فكأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء ، يخلاف الضال
□□

(١) الكشاف ٢٨٩/٣.

(٢) تفسيرالطبري: ٩٥/٢٢، زاد المسير: ٤٥٥/٦.

صاحب الباطل؛ فإن انغماسه فيه وسلوكه طريق الضلال التي تأخذه سفلاً هاوية به في أسفل سافلين ، فكأنه منغمس في ظلام، مرتبك فيه، لا يدري أين يتوجه به. كذا قال الزمخشري(١). والله أعلم.

قوله تعالى : " ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود" [فاطر: 27]

أشكل على العلماء قبل العامة قول الله تعالى : و وغرابيب سود " ؛ فإن من عادة العرب في كلامهم عند اجتماع اتابع والمتبوع أنهم يقدمون الـمتبوع ، كقوله تعالى : " قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين [البقرة؛ ٦٩] فالأصفر يوصف بأنه فاقع، ويقولون : أسود غربيب، لكنه في هذه الآية عكس، فأتى بالتابع (غرابيب) قبل المتبوع (سود)، وقد وصف الإمام الزركشي -رحمه الله- هذه الآية ، فقال (٢) : (هي من الآيات التي صدئت فيها الأذهان الصقيلة، وعادت بها أسنة الألسنة مفلولة،

ومن جملة العجائب أن شيخا أراد أن يحتج على مدرس لماً ذكر له هذا السؤال، فقال : إنما ذكر السواد لأنه قد يكون في الغربان ما فيه بياض، وقد رأيته ببلاد المشرق!!! ، فلم يفهم من الآية إلا أن الغرابيب هو الغراب، ولا قوة إلا بالله) .
____

(١)الكشاف: ٢٨٩/٢
(٢) البرهان فيءعلوم القرآن: ٤٤٤/٢.
وقد جعل بعض المفسرين سبب ذلك مراعاة الفواصل وختام الآيات(١)، وقال الزركشي-رحمه الله-(٢):(والذي يظهرفي أن الموجب لتقديم (الغرابيب) هو تناسب الكلم، وجريانها على نمط متساوي التركيب؛ وذلك أنه لما تقدم البيض والحمر دون إتباع كان الأليق بحسن النسق وترتيب النظام أن يكون (السود) كذلك ، ولكنه لما كان في (السود) هنا زيادة الوصف كان الأليق في المعنى أن يتبع بما يقتضي ذلك، وهو الغرابيب ، فيقابل حظ اللفظ وحظ المعنى، فوفي الخطاب، وكمل الغرضان جميعاً، ولم يطرح أحدهما الآخر، فيقع النقص من جهة الطرح، وذلك بتقديم (الغرايب) على (السود)، فوقع في لفظ (الغرابيب) حظ المعنى في زيادة الوصف، وفي ذكر (السود) مفرداً من الإتباع حظ اللفظ؛ إذ جاء مجرداً عن صورة البيض والحمر، فاتسقت الألفاظ كما ينبغي، وتم المعنى كما يجب، ولم يخل بواحدة من الوجهين ، ولم يقتصر على (الغرابيب) ، وإن كانت متضمنة لعنى (السود)لئلا

تتنافرالألفاظ، فإنضم(الغرابيب)إلى(البيض)
و(الحمر)، ولزها في قرن واحد :
كابن اللبون إذا ما لز في قرن"٣"
غير مناسب لتلاؤم الألفاظ وتشاكلها، وبذكر السود
وقع الالتئام، واتسق نسق النظام ، وجاء اللفظ
والمعنى في درجة التمام، وهذا لعمر
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) تفسير التحريروالتنوير: ٣٠٣/٢٢ .
(٢) البرهان في علوم القرآن: ٤٥/٢ .
(٣) صدر بيت من البحر البسيط لجرير بن عطية الخطفى ، عجزه :
لم يستطع صولة البزل القناعيس انظر :ديوانه: ١٢٨/١ .
الله من العجائب التي تكل دونها العقول، وتعيا بها
الألسن، لا تدري ما تقول ، والحمد لله) .

قوله تعالى : " إنا سخرنا الجبال معه يسبحن
بالعشي والإشراق * والطير محشورة كل له أواب
" [ص :١٨،١٩]
حيث عبر عن تسبيح الجبال بالفعل " يسبحن " ،
وعن حشر الطير بالاسم " محشورة "، والتعبير
بالفعل عن تسبيح الجبال للدلالة على حدوث ذلك
منها شيئاً بعد شيء، وحالاً بعد حال؛ ليتصور
السامع للآية أنه يسمع تسبيحها، وأما
التعبيربالاسم عن حشر الطير فلأنه أراد كون
الطيور محشورة جملة واحدة، لا أنها تحشر مرة
بعد أخرى، فهي كانت محشورة لداود -عليه
السلام-في كل وقت يأمرها حيث شاء .

قوله تعالى : " وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين * "الزمر:٧٣.
حيث حذف جواب الشرط " إذا " الذي يمكن أن يقدر ب (حتى إذا جاءوها وجدوا ما يقصر عنه البيان) ؛ لأن وصف ما يجدونه، ويلقونه عند ذلك في الجنة لا يتناهى، فلا يحيط به لفظ، فجعل الحذف دليلاً على ضيق الكلام عن وصف ما يشاهدونه، وتركت انفوس تقدر ما شأنه، ولا تبلغ مع ذلك كنه ما هنالك؛ لقول الله عز وجل في الحديث القدسي فيما رواه الشيخان (١ - رحمهما الله - عن أبي هريرة رضي الله عنه : (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت، ولا خطرعلى قلب بشر) .
وههنا سؤال جدير بالإجابة هو : لماذا أدخل الواو مع الجنة في قوله : " وفتحت أبوابها "، ولم يدخلها مع النار في قوله : " وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذاً جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين4
[الزمر؛ ٧١]
وقبل الإجابة على هذا السؤال أذكرأنه قد اجتمع في مجلس سيف الدولة الحمداني أبو علي الفارسي وأبو عبدالله الحسين بن خالويه، فسئل ابنخالويه ذاك لسؤال، فقال: هذه الواو تسمى واو

لثمانية؛ لأن العرب لا تعطف الثمانية ألا بالواو.
فنظر سيف الدولة إلى أبي علي، وقال له : أحق هذا ؟ فقال أبو علي: لاأقول كما قال، إنما تركت الواوفي النار لأنها مغلقة، وكان مجيئهم شرطاً في فتحه، فقوله : " فتحت " فيه معنى الشرط، وأما قوله: " وفتحت " في الجتة فهذه واو الحال، كأنه قال: جاءوها وهي مفتحة الأبواب، أو: هذه حالها **(2)**
وهذا هو القول الصحيح؛ لأن النار تكون مغلقة حتى يردوها، وفي ذلك اشتداد لحرارتها، ولأن من العادة أن يهان المعذبون
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) صحيح البخاري:٢١/٦،وصحيح مسلم:٢١٧٤/٣.
(٢) البرهان في علوم القرآن ١٨٩/٣ .

بالسجون، فتغلق حتى يأتوها، ومن العادة أيضاً أن يكرم المنعمون بفتح الأبواب قبل وصولهم إليها، ويؤيده قوله تعالى في سورة أخرى: " هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب * جنات عدن مفتحة لهم الأبواب *0 [ص:٤٩،٥٠] .
وأما واو الثمانية(١) التي أشار إليها ابن خالويه فهي التي تلحق الثامن من الأعداد وغيرها (٢)، فالعرب تقول: واحد، اثنان، ثلاثه، أربعه، خمسه، سته، سبعة، وثمانيه (٣)، وجعل الحريري (٤) منها قوله تعالى : " التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين *] التوبة:١١٢ [

وابن خالويه يرى أن أبواب الجنة ثمانية، لذلك دخلت الواو، وتابعه في ذلك أبو القاسم الحريري، وقيل (٥) : إن هذه الواو زائدة، والصحيح أنها حالية كما سبق.

(١) قال الشيخ إبراهيم بن يوسف: (تكلم المؤلف على واو الثمانية نقلا عن ابن خالويه والحريري، ولم يتعقب كلامهما بشيء. والمعروف أن جماعة من محققي النحاة أنكروا هذه الواو، ونسبوها إلى ضعاف النحويين.

وذكر القائلون بها -إضافة إلى ما ذكره المؤلف- أن منها قوله تعالى : " عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات "أبكارا " [التحريم: ٥]، ولفظ: (أبكارا) هو الثامن، قالوا: ومما يستأنس به قوله تعالى: " وثامنهم كلبهم " [الكهف: ٢٢] فزيدت الواو قبل الثمانية دون الأعداد السابقة. وليس في شيء من هذا دليل لهم. والله أعلم)أ.هـ.

أقول: انظر: بدائع الفوائد :٥/٣، الفصول المفيدة في الواو المزيدة: ١٤٢.

(٢) مغني اللبيب: ٤٧٤ .

(٣) انظر : المفصل :٢١٦، شرحه لابن يعيش :٢٨/٦، الواضح في علم العربية:٨٧ .

(٤) درة الغواص في أوهام الخواص: ٣١.

(٥) الأزهبة في علم الحروف: ٢٣٤ .

قوله تعالى : " فإن أعرضوا فما أرسناك عليهم

حفيظا إن عليك إلا البلاغ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور [الشورى: ٤٨ [
سبق أن وضحت الفرق بين (إذا) و (إن) الشرطيتين، وإذا تأملت هذه الآية وجدت "إذا" جاءت مع الرحمة، ووجدت "إن" جاءت مع السيئة؛ وذلك - والله أعلم - لتغليب رحمة الله على عذابه، ولأن ما يعفو عنه الله أكثر، ثم إن هذا الاستعمال يدل على مدى كفران الإنسان لنعم الله ؛ فالله قد غمره بالنعمة والرحمة في أكثر أحواله، وحين يقدر المولى - عزوجل- على المرء أن تصيبه سيئة عابرة يسبب ما قدمته يداه، يظهرمعدنه الأصلي، فيكفر، ويجزع، وصدق الله تعالى: " ولن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور" [هود: ٩]، " إن الإنسان لظلوم كفار " [إبراهيم: ٣٤ [" وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يئوسا " [الإسراء : ٨٣ ["إن الإنسان لكفور [الحج: ٦٦ ["إن الإنسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين * [المعارج :١٩ - ٢٢]
وقد أشار ابن القيم - رحمه الله - إلى شيء من صور الجمال الأسلوبي في هذه الآية، فقال (١): (وأتى في الرحمة بالفعل الماضي

(١) بدائع الفوائد: ٤٧/١-٤٨.

الدال على تحقيق الوقوع : " أذقنا "،" فرح بها"،

وفي حصول السيئة يالمستقبل الدال على أنه غير محقق " تصبهم " ٠
وكيف أتى في وصول الرحمة بفعل الإذاقة " أذقنا " الدال على مباشرة الرحمة لهم، وأنها مذوقة لهم، والذوق هو أخص أنواع الملابسة، وأشدها .
وكيف أتى في الرحمة بحرف ابتداء الغاية مضافة إليه، فقال : " منا رحمة " ، وأتى في السيئة يباء السببية مضافة إلى كسب أيديهم : " بما قدمت أيديهم " .
وكيف أكد الجملة الأولى التي تضمنت إذاقة الرحمة بحرف " إن " دون الجملة الثانية. وأسرار القرآن أكثر وأعظم من أن تحيط بها عقول الشر .
وتأمل قوله تعالى : " وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه " [الإسراء : ٦٧] كيف أتى ب" إذا " ههنا لما كان مس الضر لهم في البحرمحققاً ، بخلاف قوله : " لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط " [فصلت: ٤٩] ، فإنه لم يقيد من الشر هنا، بل أطلقه، ولما قيده بالبحر الذي هو متحقق فيه ذلك أتي بأداة " إذا ".
وتأمل قوله تعالى : " وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يئوسا " [الإسراء: ٨٣] كيف أتى هنا ب " إذا " المشعرة بتحقيق الوقوع المستلزم لليأس؛ فإن اليأس إنما حصل عند تحقق مس الشر له، فكان الإتيان ب" إذا " ههنا أدل على المعنى المقصود من (إن) ، بخلاف قوله : " وإذا مسه ب(1) الشر فذو دعاء

عريض *)" [فصلت : ٥١] فإنه بقلة صبره وضعف احتماله متى توقع الشر أعرض، وأطال في الدعاء ، فإذا تحقق وقوعه كان يؤوساً.
ومثل هذه الأسرار لا يرقى إليها إلا بموهبة من الله، وفهم يؤتيه عبداً في كتابه) .
قوله تعالى : " إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين * وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فآحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون * [الجاثية: ٣-٥]
يظن بعض العلماء(٢) أن فواصل الآيات ، وهي خواتيمها ، ذات فوائد لفظية فقط ، فتقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها .
لكن هذا غير سديد ،بل إن لها فوائد مزدوجة في آن واحد : لفظية ومعنوية ، نقل عن الزمخشري : أنه لا تحسن المحافظة على الفواصل
____

(١) في المطبوع من (بدائع الفوائد) : (وإن مسه ، ولا قراءة بها هكذا .
(٢) البرهان في علوم القرآن: ٥٤/١,
لمجردها إلا مع بقاء المعاني على سدادها على النهج الذي يقتضيه حسن النظم والتئامه، كما لا يحسن تخير الألفاظ المونقة في السمع السلسة على اللسان إلا مع مجيئها منقادة للمعاني الصحيحة المنتظمة ، فأما أن تهمل المعاني، ويهتم بتحسين اللفظ وحده غير منظور فيه إلى مؤداه

على بال ، فليس من البلاغة في فتيل أو نقير، ومع ذلك يكون قوله : " وبالآخرة هم يوقنون " [البقرة ٤] ، وقوله: " ومما رزقناهم ينفقون " [البقرة : ٣] لا يتأتى فيه ترك عاية التناسب في العطف بين الجمل الفعلية إيثارا للفاصلة؛ لأن ذلك أمرلفظي لاطائل تحته، وإنما عدل إلى هذا لقصد الاختصاص)(١).

وتأمل هذه الآيات الثلاث من سورة الجاثية والتي هي موضع النظرة، تجد أن ختام كل واحدة منها تتناسب مع مبتداها، لكن إدراك المناسبة يحتاج إلى إعمال ذهن، وقد فصلها الزركشي رحمه الله، فقال(٢):'ن البلاغة تقتضي أن تكون فاصلة الآية الأولى: " للمؤمنين "؛ لأنه- سبحانه - ذكر العلم بجملته، حيث قال: " السموات والأرض "، ومعرفة الصانع من الآيات الدالة على أن المخترع له قادر عليم حكيم، وإن دل على وجود صانع مختار لدلالتها على صفاته مرتبة على دلالتها على ذاته، فلا بد أولا من التصديق بذاته حتى تكون هذه الآيات دالة على صفاته؛ لتقدم الموصوف وجوداً

(١) البرهان في علوم القرآن: ٧٢/١، معترك الأقران للسيوطي: ٥٢/١-٥٣ .

(٢) البرهان في علوم القرآن: ٨٢/١-٨٣ .

واعتقاداً على الصفات.

وكذلك قوله في الآية الثانية : " لقوم يوقنون "، فإن سرالإنسان، وتدبر خلقة الحيوان، اقرب إليه من الأول، وتفكره في ذلك ما يزيده يقيناً في

معتقده الأول .
وكذلك معرفة جزئيات العالم، من اختلاف الليل والنهار، وإنزال الرزق من السماء، وإحياء الأرض بعد موتها، وتصريف الرياح، يقتضي رجاحة العقل، ورصانته؛ لنعلم أن من صنع هذه الجزئيات هو الذي صنع العالم الكلي، التي هي أجرامه وعوارض عنه، ولا يجوز أن يكون يعضها صنع بعضاً؛ فقد قام البرهان على أن للعالم الكلي صانعاً مختاراً، فلذلك اقتضت البلاغة أن تكون فاصلة الآية الثالثة: " لقوم يعقلون " ، وإن احتيج إلى العقل في الجميع، إلا أن ذكره ههنا أنسب بالمعنى الأول؛ إذ بعض من يعتقد [أن الله] صانع العالم ربما قال : إن بعض هذه الآثار يصنع بعضاً، فلا بد إذاً من التدبر بدقيق الفكر وراجح العقل؟.
قوله تعالى : " ياً قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم * " [الأحقاف : ٣١].
قوله؛ " من ذنوبكم " ليست فيه "من" بمعنى (بعض)؛ لأن الحديث عن جزاء الإيمان بالله وترك الكفر، والانتقال من الكفر إلى الإيمان يمحو لذنوب التي وقع فيها صاحبها قبل إيمانه كلها، ويدل على ذلك ما عطف الله عليه بعده، حيث قال : " ويجركم من عذاب أليم "، والإجارة من عذاب الله لا تكون إلا بعد غفران الذنوب كلها، فدل هذا كله على ان التبعيض غير مفصود يالآية .
إذاً فلماذا عدى الفعل " يغفر" بحرف الجر " من " مع إمكان أن يعديه بنفسه ؟ ، وقد ورد كذلك في

آيات أخرى، كقوله : " قل إن كنتم تحبون الله
فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله
غفور رحيم [آل عمران: ٣١.]
الجواب : إن الفعل (يغفر لكم ضمن معنى؛
(ينقذكم، ويخرجكم منها)، قال أبو القاسم
السهيلي-رحمه لله-(١): (ولكن لا يكون ذلك في
القرآن إلا حيث يذكر الفاعل الذي هو المذنب، نحو
قوله: " لكم "؛ لأنه المنقذ المخرج من الذنوب،
ولوقلت: (يغفر من ذنوبكم)-دون أن تذكرالاسم
المجرور-لم يحسن إلا على معنى التبعيض؛ لأن
الفعل الذي كان في ضمن الكلام، وهوالإنقاذ، قد
ذهب بذهاب الاسم الذي هو واقع عليه) .
وفي قوله تعالى : (ويجركم من عذاب أليم)
"أليم": أبلغ من (مؤلم)؛ لأن (مؤلماً) يجوز أن
يكون قد آلم، ثم زال الألم، أما (أليم) فيدل على
ملازمة الألم وعدم انقاطعه . والله أعلم.

(١) نتائج الفكر: ٣٣٣ .

قوله تعالى: " فاصبر كما صبر أولوا العزم من
الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما
يوعدون لم يبثوا ألا ساعة من نهاربلإغ فهل يهلك
ألا القوم الفاسقون * [الأحقاف: ٣٥]
خصت الساعة بكونها من ساعات النهار، لا من
ساعات الليل؛ لأن النهاريقصر بسبب التشاغل فيه،
ويشبه حينئذ, بإبهام القطاة، أو بسالفة الذباب، أو
بظل الوتد، قال جرير:
ويوم كإبهام القطاة تخايلت ضحاه وطابت بالعشي

أصائله(١)
وقال الآخر:
ويوم عند دار أبي نعيم قصيرمثل سالفة الذباب(٢)
وتقول العرب : (يوم أقصر من ظل الوتد) ، وقال الشاعر :
فهذا طويل كظل القناة وهذاقصيركظل الوتد(٣)
وقال الخوارزمي:
ولازالت عداك بكل أرض لهم من ســـوء ظنهم نذير
قصيرنهارهم خوف طويل بهم وطويل عمر هم قصير(٤)
____
(١) ديوانه **479**.
(٢) أخبار أبي القاسم الزجاجي: ١٨٩.
(٣) الغيث المسجم في شرح لامية العجم للصفدي : ٢/٤٠٩.
(٤) محاضرات الأدباء:١٦٤.
و هكذا هو شأن ساعات النهار، ما لم يكن ثم ما يخالف المعتاد، كأن يكون الناظر إلى النهار مديناً؛ فإنه يرى ساعاته (أثقل من ثهلان)(١) ؛ لما يلقى فيه من هموم مناجزة الغرماء ، وأنى لمثله صبر؟ وقد قيل: (أثقل من الصبرعلى العدم)(٢)، وقد تمنى بعض المثقلين بالدين، المبتلين بالفقر، تمنى دوام لليل؛ لما يجد في النهار من الدائنين ولما يحتاج إليه من النفقة في كل يوم، فقال:
ألا ليت النهار يعود ليلاً فإن الصبح يأتي بالهموم

حوائج لا نطيق لها قضاء ولا رداً وروعات الغريم(٣)
أماً الليل فإنه يوصف عادة بالطول، وكذلك ساعاته.
يقول التنوخي :
وليلة كائها طـــــــول الأمل ظلامها كالدهر ما فيه خلل
كأنماالإصبـــــاح فيها باطل أزهقه الله لحــــــق فبطل
ساعتها أطول من يوم النوى وليلة الهجروساعات العذل
موصدة على الورى أبوابها كالنارلايخرج منها من دخل(٤)
ولا تقصر ساعاته إلا على الراقد فيه، قالت العرب في الأمثال: (أقصرمن الليل على الراقد)(٥)، وقيل:(ما أقصر الليل على الراقد!)(٦)، وقال ديك الجن"(٧):
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) مجمع الأمثال : ١٥٥/١ .
(٢) الأمالي لأبي علي القالي: ١٦٧/٢.
(٣) ديوان المعاني:٤٧/١ ٣.
(٤) ديوان المعاني:٣٤٧/١-٣٤٨.
(٥) الدرةالفاخرة:٤٤٤/٢.
(٦) التمثيل والمحاضرة : ٢٤٢ .
(٧) ديوانه:٥٩.

من نام لم يدرطال الليل أم قصرا مايعرف الليل إلا عاشق سهرا

أما على الساهر والمحب فيضرب به المثل في الطول، قال البحراني:

أما لهذا الليـــــــل من آخر قد بلغ التسهيد من نـــاظر

بت وما أعرف طيب الكرى ما أطول الليل على الساهر!!(١)

وقال خالد الكاتب :

رقدت ولم ترث للســـــاهر وليل المحب بلا آخــــــــــر(٢)

والمراد بقوله في الآية الكريمة " لم يلبثوا إلا ساعة من نهار " تقليل مدة لبثهم في الحياة الدنيا حين يرون العذاب، فشبهها بساعة من النهار تنقضي بسرعة ، فالله أكبر، ما أجمل هذا البيان ، وأبلغه !!! .

قوله تعالى : " إنانا كل شيء خلقناه بقدر" [القمر : ٤٩]

قرأ القراء السبعة : " إنا كل شيء " بنصب " كل "، وهوالراجح، ورفع " كل " وهي قراءة أبي السمال (٣)، مرجوح ؛ لأنه اسم مشتغل عنه، حيث نصب العامل بعده ضميره " خلقناه " ، فيكون الراجح نصب الاسم المشتغل عنه بفعل مقدر، يفسره الفعل المذكور، والتقدير :

---

(1) التذكرة الفخرية: ٢١٧.

(٢) الزهرة : ٣٨٧/١، التمثيل والمحاضرة: ٢٤٢.

(٣) المحتسب: ٣٠٠/٢، تفسير الرازي: ٧٢/٢٩.

(إنا خلقنا كل شيء خلقناه بقدر) ، ورفعه غير

راجح؛ لأنه قد يوهم أن الجملة المذكورة : " خلقناه " صفة ل " شيء " فيكون المعنى : (إنا كل شيء مخلوق بقدر) ، فأفهم ذلك أن مخلوقاً ما يضاف إلى غيرالله تعالى ليس بقدر، وهذا ما يميل إليه المعتزلة(1)، كأبي علي الفارسي والزمخشري؛ لأنهم يقسمون المخلوقات إلى مخلوق لله، ومخلوق لغير الله، والقسم الأخير عندهم هو أفعال ا لعباد الاختيارية، وأفعال الشر، مع أن هذه الآية صريحة الدلالة على خلق كل شيء من قبل الله تعالى، ولذلك قال ابن المنير-رحمه الله - في كتابه (الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال) (٢) : (لكن الزمخشري لما كان من قاعدة أصحابه تقسيم المخلوقات إلى مخلوق لله، ومخلوق لغير الله، فيقولون : هذا لله، بزعمهم، وهذا لنا، فغرت هذه الآية فاه، وقام إجماع القراء حجة عليه، فأخد يستروح إلى الشقاء، وينقل قراءتها بالرفع، فليراجع له، ويعرض عليه إعراض القراء السبعة عن هذه الرواية).

قوله تعالى :" لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون " [الواقعة :٦٥]
ف" لو " الشرطية التي تسمى (حرف امتناع لامتناع) ، اقترن جوابها باللام، وهي كما يقول النحويون: يكثر اقتران جوابها باللام إذا كان
____

(١) انظر: أخبار أبي القاسم الزجاجي :٩٠
(٢) حاشية الكشاف: ٤٢/٤ .
نعلاً ماضياً ، ولكننا نجد قول الله تعالى عن الماء :

" لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون *
[الواقعة: **70**] ، فجاء جوابها الماضي غير مقرون باللام، وفي ذلك نكت بلاغية عظيمة، منها: أن الله سبحانه وتعالى أكد وعيده بجعل الزرع حطاماً ؛ لأن الكفار قد تعبوا في الزراعة والسقي، وظلوا ليالي وأياماً طويلة في انتظار الثمر، فإهلاك الزرع، وجعله حطاماً، أشق على أنفسهم من نزول المطر عليهم أجاجاً، الذي لاحول لهم به ولا قوة، ولم ينلهم تعب ولا نصب في إنزاله، ولذلك أكد مع الزرع باللام، وترك التوكيد مع الماء.

وقيل: إن جعل الحرث حطاماً قلب للمادة والصورة، وجعل الماء أجاجاً قلب للكيفية، ففي نظر الكفار أنه مع الحرث أشد وأشق، ومع الماء أسهل وأيسر، فراعى حالهم، فأكد الأول، وترك الثاني دون تأكيد.

وقيل : إن اللام أدخلت على أية المطعوم؛ للدلالة على أنه يقدم على أمر المشروب، وأن الوعيد بقفده أشد وأصعب؛ من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعاً للمطعوم، ولهذا أيضاً قدمت آية المطعوم على آية المشروب.

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(1) الكشاف: ٥٧/**4**.

قوله تعالى : " ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آَثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآَتَيْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ

مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (27)"] الحديد 27]
جعل أبوعلي الفارسي " ورهبانية " مفعولاً به لفعل محذوف يفسره العامل المذكور بعده : " ابتدعوها "، والواوعنده للاستئناف، و ليست " رهبانية " معطوفة على " رأفة "، قال في كتابه (الإيضاح العضدي) (١): (فقوله: " رهبانية محمول على فعل، كأنه قال: (وابتدعوا رهبانية ابتدعوها) ، ألا ترى أن الرهبانية لا يستقيم حملها على "جعلنا" ، مع وصفها يقوله : " بتدعوها" ؛ لأن ما يجعله هو تعالى لايبتدعونه هم) .
وتيع الزمخشري (٢) أبا علي الفارسي في إعرابه، وذكر قراءة الرفع ل" رأفة "، لكنه فسر قوله: " جعلنا " ب(وفقنا)، فقال: (أي: وفقناهم للتراحم والتعاطف بينهم"(٣) .
وهذا الإعراب منهما مرجعه كونهما من المعتزلة، وهم يقولون : ما كان من أفعال العباد فلا يكون مخلوقاً لله، فالرأفة والرحمة من خلق الله، والرهبانية من ابتداع الإنسان، فهي مخلوقة له، وهم يعتقدون أن ما يفعله الإنسان لا يفعله الله تعالى، ولا يخلقه.
____

(١) ص:٦.
(٢) الكشاف: ٦٧/4.
(٣) المصدر السابق.
قال ابن المنير-رحمه الله - : (في إعراب هذه الآية تورط أبو علي الفارسي، وتحيز إلى فئة الفتنة وطائفة البدعة ، فأعرب " رهبانية " على

أنها منصوبة يفعل مضمر يفسره الظاهر، وعلل امتناع العطف، فقال : (ألا ترى أن الرهبانية لا يستقيم حملها على " جعلنا "، مع وصفها بقوله : " ابتدعوها " ؛ لأن ما يجعله هو تعالى لا يبتدعونه هم) . والزمخشري ورد أيضاً مورده الذميم، وأسلمه شيطانه الرجيم، فلما أجاز ما منعه أبو علي من جعلها معطوفة أغذر لذلك بتحريف الجعل إلى التوفيق فراراً ما فرمنه أبو علي من اعتقاد أن ذلك مخلوق الله، وجنوحاً لى الإشراك واعتقاد أن ما يفعلونه هم لا يفعله الله تعالى، ولا يخلقه، وكفى بما في هذه الآية دليلاً بعد الأدلة القطعية والبراهين العقلية على بطلان ما اعتقداه ؛ فإنه ذكرمحل الرحمة والرأفة مع العلم بأن محلها القلب، فجعل قوله: " في قلوب الذين اتبعوه " تأكيداً لخلقه هذه المعاني وتصويراً لمعنى الخلق بذكر محله، ولو كان المراد أمراً غير مخلوق في قلوبهم لله تعالى - كما زعما - لم يبق لقوله : (" في قلوب الذين اتبعوه " موقع) .

وأقول : إن هذا الإعراب من الفارسي والزمخشري باطل، ولا يستقيم على قواعد اللغة؛ لأن جعل هذه الآية من باب النصب على الاشتغال غير صحيح؛ فمن شروط الاسم المشتغل عنه أن يكون مختصاً؛ ليصح رفعه بالابتداء، والمبتدأ لا يكون إلا معرفة، أو نكرة مختصة، أما في هذه الآية ف" رهانية " نكرة غير مختصة، فلا يصح أن تكون من ياب الاشتغال ، وإنما الإعراب الصحيح لها أن تكون الواو عاطفة، و " ورهانية " معطوفة على " رأفه

" ، ووصفت (الرهبانية) بجملة " ابتدعرها " لأن الرأفة والرحمة فيا لقلب، ولاتكسب للإنسان فيهما، بخلاف الرهبانية فإنها أفعال بدن مع شيء في القلب، ففيها موضع للتكسب. والله أعلم

قوله تعالى : " لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آَبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (22) " [الجادلة: ٢٢]

فقوله: " يوادون " من الفعل الماضي (واد) على وزن (فاعل) ، وصيغة (فاعل) تدل على المشاركة، مثل: قاتل، وضارب، وساهم، وهكذا شأن هذا الوزن في دلالته على أنه فعل لاثنين إلا في افعال محصورة جاءت على وزن (فاعل) ، ولم تدل على المشاركة، وهي(١):" قاتل الله فلاناً، وبارك الله فيك، وبادر، وراقب، وضاعف، وقاسى، وعاين، وعافى، وعاقب، وداين، وباعد، وجاوز، وشارف، وناول، وظاهر.

(١) الكتاب: ٢٣٩/٢ ، إصلاح المنطق: ١٤٤- ١٤٥ ، أدب الكاتب: ٤٦٤ ، المخصص: ١٧٩،١٧٨/١٤.

ومجيء " يوادون " في هذه لآية الكريمة، وهي التي تدل على المشاركة في المودة، التي هي من

أعلى مراتب المحبة، ودون الخلة، تعني - والله أعلم- نهي المؤمن عن مبادلة الكافر ممن يحاد الله المودة إذ ابتدأه الكافر يها، فلا يصح من المؤمن ان يقابل محبة الكافر الذي تلك صفته محبته له بمثلها، وإذا كان النهي عن مبادلته المحبة فإن مبادرة المؤمن للكافر بالمحبة أولى بالنهي، وأشد في الأثم.

والمتأمل لقول الله تعالى : " لا تجد قوما " يلحظ أن التعبير قد جاء يصيغة الخبر، الذي هو ضد الإنشاء، مع أن المراد بذلك لنهي؛ وذلك للمبالغة في الزجرعن محبتهم، والأمر بمجانبتهم، والاحتراس من مخالطتهم ومعاشرتهم، فجاء النظم القرآني معبراً عن ذلك بأنه من المحال وجود مؤمنين صادقين في إيمانهم حقاً يوادون أعداء الله من المشركين. والله أعلم.

قوله تعالى : " هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأبتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقدف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار * " [الحشر: ٢].

تأملوا قوله: " وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله " حيث قدم خبر المبتدأ: " مانعتهم " على المبتدأ: " حصونهم " وجعل الجملة المكونة فيهما خبراً ل(أن) ، وجعل اسمها ضميراً عائداً على اليهود، ويمكن لقائل أن يقول: (ظنوا حصونهم

مانعتهم)، أو: (ظنوا أن حصونهم انعتهم)، فهذا هوالأصل، لكن التحول عن الأصل جاء مراعاة لحال أولئك اليهود الممتلئة قلوبهم غروراً يقوتهم المادية، فقدم خبرا المبتدأ: (مانعتهم) الدال على العزة والحصانة ؛ لفرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم، من حيث ارتفاعها، وقوة بنائها، وتوافر أسباب الأمان فيها، فحمايتها لهم أمر مقطوع به لديهم.

أما تصيير ضميرهم اسماً ل (أن) من " أنهم " ، وإسناد الجملة إليه، فدليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالى معها بأحد يعرض لهم، ريطمع في مغالبتهم، كذا قال لزمخشري في(كشافه)(١).

وأقول : هكذا شأن اليهود في كل زمان ومكان ، يهولون شأن قوتهم، ويتباهون بجنسهم، وينسون أن قدرة الله تعالى فوق كل قدرة، ولذلك كان الرد عليهم حاسماً، قال الله تعالى : " فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب " ، فالله وحده هو الذي أتاهم من حيث لم يشعروا، ولم يتوقعوا، وهو وحده الذي قذف في قلوبهم الرعب، فسبحان قاصم الجبابرة ومذل المتكبرين!
!

---

(1)االكشاف:٤/٨٠.

قوله تعالى: (إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون)" [الممتحنة : ٢]

جعل الله كونهم أعداء للمسلمين، وبسطهم أيديهم

وألسنتهم بالسوء ، أمراً محتملاً غير مؤكد، يإيقاعه في حيز جزاء الشرط : (إن) ، و(إن) - كما سبق - حرف شرط يدل على احتمال وقوع جوابه، لا على القطع به، ولكنه عبر عن رغبتهم في كفر المسلمين ورجوعهم عن دين الإسلام بقوله: " وودوا لو تكفرون " فعطف الفعل: " ودوا ", وهو ماض على الفعل المضارع : " يكونوا " ، والسر في ذلك - والله أعلم - أن رغبة الكفار في كفر المسلمين لما كانت قطعية غير محتملة للشك، متأصلة فيهم، لا يحول بين قلوبهم وبين مودتهم ذلك حائل، عبر عن ذلك بالماضي الذي يؤتى به للتعبير عما قد تحقق، أو عن متحقق الوقوع، كما قال الله تعالى : " وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم ألن نجعل لكم موعداً " [الكهف : ٤٨]، وقال : " ووضع انكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ألا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً " [الكهف : ٤٩]، وقال؛ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا " [الكهف : ٥٣]، وهي أشياء لم تحصل بعد، ولكن عبر بالفعل الماضي عنها لتحقق وقوعها ٠ أما كونهم أعداء للمسلمين ، وباسطي الأيدي والألسن بالسوء لهم فأمر مشكوك فيه؛ لاحتمال أن يعرض لهم ما يصدهم عنه من قوة في المسلمين أو ضعف في الكفار، فلما لم يكن متحقق الوقوع عبر عنه بالمضارع.

قوله تعالَى : " عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (7) [الممتحنة؛ ٧] .
بعد أن نهى الله عباده المؤمنين عن محبة الكافرين - ولو كانوا من أقاربهم - فتح باب الرجاء لهم في إسلام أقاربهم وأعدائهم، ولذلك ختم الآية بقوله : " والله قدير، أي: على جعلهم يسلمون، وقوله: " والله غفور رحيم، أي: للداخلين منهم في الإسلام، يغفرلهم ذنوبهم التي اقترفوها بكفرهم. والله أعلم.
وأخيراً تأملوا قوله تعالى :" عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة،" هذه كناية في غاية الروعة عن قرب دخول هؤلاء الكفار في الإسلام الذي يمحو كل العداوات السالفة، والكرة الشديد من قلوب المسلمين لأعدائهم عند دخولهم في الإسلام؛ لأنه كان نهى عن موادتهم وعن اتخاذهم أولياء حين كانوا على الكفر، ولا سبيل إلى إعادة المودة بينهم ألا بهدايتهم للإسلام؛ ليصيروا إخواناً لهم في الدين، يربط بينهم رباطه الوثيق محبة ومودة لا تنفصم عراها، ولا ينقطع مداها. والله أعلم.

قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عيكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن

أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم " [الممتحنة: ١٠] .
حيث كرر التحريم بين الكافر والمؤمنة ، فقال أولاً: " لا هن حل لهم " ثم أردف به قوله : " ولا هم يحلون لهن "، مع أن الظاهر يدل على أن الأولى مغنية عن الأخرى، فإذا كانت المرأة المؤمنة المهاجرة محرمة على زوجها، فهو محرم عليها، فما الداعي إلى التكرار ؟
إن للتكرار هنا فائدتين- كما قال الزركشي- رحمه الله-(1) :
(إحداهما : أن التحريم قد يكون في الطرفين، ولكن يكون المانع من أحدهما، كما لو أرتدت الزوجة قبل الدخول بها ، يحرم النكاح من الطرفين، والمانع من جهتهما ، فذكر الله سبحانه الثانية؛ ليدل على أن التحريم كما هو ثابت في الطرفين كذلك المانع منهما .
والثانية : أن الأولى دلت على ثبوت التحريم في الماضي، ولهذا أتى فيها بالاسم الدال على الثبوت، والثانية في المستقبل، ولهذا أتى فيها بالفعل المستقبل) . انتهى كلام الزركشي رحمه الله.
____

(١) البرهان في علوم القرآن : ٢٣/٣

وههنا نظرةأخرى في قوله تعالى : " إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات " فعبر ب "إذا" ولم يعبر ب(إن)؛ لأن (إن) تستعمل في الأشياء المحتملة

غير المؤكدة، ومجيء المؤمنات مهاجرات من
الأشياء المحققة، فقد هاجرت سبيعة بنت الحارث
الأسلمية رضي الله عنها، وتركت زوجها في مكة،
ولأجل ذلك عبر ب " إذا " التي تدل على تحقق
وقوع ما بعدها.
أما استعمال (إن) بعدذلك في قوله : " فإن
علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار" فلان
العلم اليقيني بصدق الإيمان لا يمكن أن يتحقق
من لقاء قصير يعقد عاجلاً لمحاولة معرفة ما لدى
المرأة المهاجرة من أسباب لهجرتها ، وهذا من
رحمة الله تعالى بالمؤمنات وبالمؤمنين؛ لأنه لو قال
: (فإذا علمتموهن مؤمنات) لوجب على الممتحنين
التثبت والتيقن من صدق إيمان المرأة، وهذا ما لا
سبيل إليه، وفيه مشقة على المهاجرة حيث تحتاج
إلى وقت طويل، وهي معلقة، حتي يظهر صدق
إيمانها لكن هذه الآية دلت على أن عماد الحكم
يكون على الظواهر، والله أعلم بالبواطن.
وأخيراً أقول : إن قوله تعالى : " جاءكم المؤمنات
ه استشهد به أبو علي الفارسى (١)على جواز
تذكير الفعل وتأنيثه إذ كان الفاعلما جمع بألف
وتاء، حيث قال: حز جاءكم، ولم يقل: (جاءتكم)،
ولكن د عليه بأنه يجوز الوجهان هنا؛ لوجود فاصل
بين الفعل : (جاء)

(١) التكملة:٨٩.

والفاعل: (لمؤمنات)، وهو المفعول به، وهو الضمير

(كم). والله أعلم.

قوله تعالى : و يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولوكره
الكافرون * " [الصف : ٨] .
عدى الفعل " يريدون " باللام، فقال : " ليطفئوا " مع أنه يتعدى بنفسه؛ لأن الفعل قد ضمن معنى فعل آخر، هو (يسعون)، فصار معنى الآية:
يريدون، ويسعون لإطفاء نور الله بأفواههم، وهذا يدل على أن مع إرادتهم سعياً وعملاً، وهذا أبلغ في جرمهم.

قوله تعالَى : " يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12)" [الصف،: ١٢]
لو أن سائلا سأل، فقال: لم حذفت (من) في هذه الآية: " يغفر لكم ذنوبكم " ولم تكن كآية سورة (الأحقاف) ؛ " يا قوم أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم "
[الأحقاف: ٣١] ؟ لقلت : قد بينت (١) أن آية (الأحقاف) تخص الكافرين، وقد دلت على الإنقاذ من الكفر وذنوبه؛ لأن الإسلام يجب كل ما قبله، فهي خروج كامل من الذنوب.
____

(1) ص **262 -263**

أما آية الصف فهي إخبارعن المؤمنين الذين قد

سبق لهم الإنقاذ من ذنوب الكفر بإيمانهم، ثم وعدوا على الجهاد بغفران ما اكتسبوا في الإسلام من الذنوب، وهي غير محيطة بهم كإحاطة الكفرالمهلك بالكافر، فلم يتضمن الغفران معنى الاستنقاذ ؛ إذ ليس ثم إحاطة من الذنب المذنب، وإنما تضمن معنى الإرهاب والإبطال للذنوب؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات، كذا قال السهيلي- رحمه الله - في كتابه (نتئج الفكر)(١).
أماً قوله تعالى : " إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهوخير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير "٢٧١ه" [البقرة: ٢٧١] فإن " من " فيها للتبعيض؛ لأن الصدقة لا تذهب جميع الذنوب ، بل بعضها(٢) .

قوله تعالى : " وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرأزقين " [الجمعة : ١١] جاء التعبير ب " إذا " الشرطية الدالة على تحقق الوقوع؛ لأن الشرط وجزاءه قد وقعا قبل نزول الآية، حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب بأصحابه خطبتي الجمعة بعد صلاتها، إذ جاءت تجارة من الشام، فانصرف كثيرمن الصحابة -رضوان الله عليهم-نحوها،

---

(١) ص ٣٣٣ ، وانظر : بدائع الفوائد لابن القيم-رحمه الله-:٥٩/٢ .
(2) نتائج الفكر :٣٣٤.

وتركوا الرسول صلى الله عليه وسلم مع قليل من أصحابه . فنزلت الآية (١)، فهي إخبار عما سبق.
وههنا وقفة يسيرة مع قوله : " انفضوا إليها "، فالأصل في الضمير أن يعود على أقرب مذكور، وهنا الضمير الذي جر ب(إلى) كان الأصل فيه أن يعود على اللهو، فيقال: (انفضوا إليه)؛ لأنه الأقرب، ولكنه عاد مؤنثاً إلى التجارة، وإن كانت أبعد ، فقال : " انفضوا إليها " .
وللعلماء في تعليل ذلك أقوال (٢)، منها : أن التجارة أجذب للقلوب، و أشغل لها عن طاعة الله من اللهو، وأن المشتغلين بالتجارة أكثرعدداً من المشتغلين باللهو، أو لأنها أكثر نفعاً من اللهو ، فهي أصل، وهو تبع لها، وكذلك إذا وقع النهي عن الانشغال بالتجارة - وهي مباحة - عن ذكر الله فالتحذير من الانشغال باللهو-وهو غير مباح - يكون من باب (الأولى) ، وليس العكس كذلك، ثم إن التجارة كانت سبباً في انفضاض الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يخطب يوم الجمعة، وبسببهم نزلت الآية، فناسب تقديم ما كان سبباً على ما جاء تبعاً، وهوضرب الطبول، أو اللهو.
والذي أراه أن الضمير يمكن أن يرجع إلى التجارة واللهو معاً، لكن لم يعد مذكراً لتدخل التجارة أيضاً، ولو عاد مذكراً لاقتصر على اللهو، ولم يغلب المذكرعلى المؤنث - كما هي عادة العرب -؛ لأن

(١) أسباب النزول للواحدي: ٤٩٣-٤٩٤ .
(٢) الكشاف:١٠٦/٤-١٠٧،لمحررالوجيز: ١٤/١،البحرالمحيط:١٠/**176**
تفسير أبي السعود : ٨/٢٥٠، تفسير التحرير والتنوير : ٢٨/٢٢٨

اللهو غير عاقل. والله أعلم
وتحسن الإشارة هنا إلى أن التكرار حرف الجر " من " في قوله : " ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة " فائدة، هي قطع إمكان الظن يأن ما عند الله خير من التجارة واللهو مجتمعين فقط، فبتكرار حرف الجر دلت الآية على أن ما عند الله من الرزق والثواب خير من اللهو، وخير من التجارة، منقردين، أومجتمعين، والله أعلم .

قوله تعالى : " وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ **(4)** "[المنافقون: ٤].
إن الآية جاءت في بيان بعض صفات المنافقين، وهي أنهم لا يفقهون، وأنهم لا يعقلون، مع أن أجسامهم حسنة معجبة، ولذلك شبههم بالخشب المسندة، فشبه هيئة جلوسهم في مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم، مستندين على الجدار، يتحدثون ، ويبدون الاستماع لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، شبه هذه الهيئة بالخشب؛ لأنها ذات أجسام طويلة بينة في الصورة، ولكنها

خالية من العقل، بعيدة عن الفهم، ولتقارب شكلها
مع شكل الإنسان شبههم الله تعالى بها، ولم
يشبههم بالحجارة؛ لفارق الشبه، وتأملوا وصف
الخشب بقوله : (مسندة) ؛ لأن الخشب يمكن أن
تفيد إذا سقف بها المكان ، لكنها إذا سندت لم
يستفد منها في تلك الحالة، والمنافقون مثل
الخشب غير المفيدة، وشبههم بخشب نخرة متآكلة
، إلا أنها مسندة، يحسب من رآها أنها صحيحة(١).
ثم إن تشبيههم بها في تلك الحالة إشارة إلى هيئة
مقامهم في مجلس رسول الله صلى الله عليه
وسلم مستندين إلى الجدار دون جلوس ؛ لعدم
حرصهم على الاطمئنان عند المصطفى عليه
الصلاة والسلام.
أما وصف الخشب مع أنها جمع بقوله : " مسندة "
، وهي مفردة، حقها أن يوصف بها المفرد ، فيقال :
خشبة مسندة، فالسبب في ذلك أن الجمع إذا كان
دالاً على الكثرة وصف بالمفرد ، كما هو الحال في
هذه الآية، فالخشب على زنة (فعل)، وهو من
أوزان جمع الكثرة، ووصفها بالمفرد يدل على
الكثرة كذلك، أما الوصف بما جمع بألف وتاء فيدل
على القلة، فلو قيل . خشب مسندات ، لحصل
تناقض، ف "خشب " تدل على الكثرة، و(مسندات)
تدل على لقلة، قال
الحريري في (درة الغواص في أوهام الخواص)
(٢): (وكذلك اختاروا - أي العرب - أيضاً أن
ألحقوا بصفة الجمع الكثير الهاء، فقالوا : أعطيته
دراهم كثيرة، وأقمت أياماً معدودة، وألحقوا بصفة

الجمع القليل الألف والتاء، فقالوا: أقمت أياماً معدودات، وكسوته أثواباً رفيعات). ولذلك قال بعض المفسرين في قوله تعالى : " وقالوا لن تمسنا النار إلا

---

(١) كتاب الجمان في تشبيهات القرآن : ٢٦٧ .
(٢) ص١٠١.

أياما معدودة " [البقرة: ٨٠ [، وقوله تعالى: " ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون " [آل عمران : ٢٤] : (إن قائلي ذلك من اليهود فرقتان: إحداهما قالت: إنما نعذب بالنار سبعة أيام، وهي عدد أيام الدنيا، وقالت فرقة: إنما نعذب أربعين يوماً، وهي أيام عبادتهم العجل، فأية (البقرة) تحتمل قصد الفرقة الثانية، وآية (آل عمران) تحتمل قصد الفرقة الأولى)(١) ، وقال الحريري(٢) (كأنهم قالوا أولاً بطول لمدة، ثم إنهم رجعوا عنه، فقصروا المدة).
وفي آية سورة (المنافقون) مدار النظرة تأمل قوله تعالى : " وإذا رأيتهم " إذ أتي ب "إذا" التي تدل على تأكيد حصول الرؤية، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يراهم دائماً، ولم يأت ب(إن) التي تدل على الاحتمال والشك، لكنه عن قولهم أتى ب" إن " بعد ذلك، فقال : " وإن يقولوا تسمع لقولهم " الدالة على قلة كلامهم، أوعلى عدم اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بقولهم، والأول أرجح. والله

أعلم .

قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفوررحيم " **[التغابن: 14] .**
حيث قدم الأزواج على الأولاد؛ لأنه قد حكم عليهم بعداوتهم
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) كشف المعاني: ١٠٣ .
(٢) درة الغواص: ١٠١ .

لهم، ووقوع ذلك من الأزواج أكثرمنه في الأولاد، ولذلك قدمهم. والله أعم.
وقوله : " عدواً " بمعنى (أعداء) ؛ لأن " عدواً " على وزن (فعول) الذي يستوي فيه المفرد والمثئى والجمع والمذكر والمؤنث، قال تعالى : وقال أفرأيتم ماكنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لي إلا رب العالمين *" [الشعراء: ٧٥ ٧٧]، ولذلك قال بعده: " فاحذروهم " ، فأعاد عليه ضمير الجمع .
ثم تأملوا قوله تعالى: " وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم " ، فترتيب العفو والصفح والغفران جاء في غاية الإبداع والروعة، فبدأ بالعفو، وهو ترك العقوبة، ثم ثنى بالصفح، وهو ترك التثريب واللوم والتعيير بالذنب، وختم يالغفران، وهو إخفاء الذنب وستره .

فتبارك من تكلم بهذا البيانِ حثاً ، وبلغه رسوله صلى الله عليه وسلم وحياً .

قوله تعالى: " إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (15) "
[التغابن: ١٥] .
قدم الأموال في هذه الآية؛ لأن الأموال لاتكاد تفارقها الفتنة، أما الأولاد فليست في استلزام الفتنة مثل الأموال، ولذلك أخر ذكرهم. والله أعلم.

قوله تعالى: " أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (19) " [الملك : ١٩]
في هذه الآية الكريمة قال: " أو لم يروا إلى الطير"، و(رأى): الأصل في معناها إذا كانت بصرية الرؤية دون قصد مسبق ، أما (نظر) فالأصل في معناها: الرؤية المقصودة، فتقول: نظرت إلى القمر، ورأيته، فالأول جاء بعد قصد النظر إليه، والثاني جاء دون قصد.
قال الراغب الأصفهاني في (المفردات) (١): (إذا عدي(رأيت) ب " إلى " اقتضى معنى النظر المؤدي إلى الاعتبار) ، فضمنت " لم يروا " معنى (لم ينظروا)، والدليل تعدي الفعل ب " إلى "؛ لأن المقصود والله أعلم رؤية الطير حالة كون الرائين قاصدين أو غير قاصدين، وكأنه يقول: انظروا إليها معتبرين.
وفي هذه الآية تنبيهات أود الإشارة إليها بإيجاز :

التنبيه الأول: قوله : " أو لم يروا " هذا القول مكون من : همزة الاستفهام، وواوالعطف، والفعل المجزوم ب "لم" والمعطوف عليه مقدر، والتقدير: آغفلوا ؟، ولم يروا ؟، وحذف المعطوف عليه يكثر في مثل هذا الأسلوب.

التنبيه الثاني: فائدة قوله : " فوقهم " طلب النظر والاعتبار فيها

---

(١) ص:209 .

في حالة طيرانها ؛ لأنها إذا لم تكن في حال الطيران فلا بسط فيها، ولا قبض، وأمكن اصطيادها بسهولة ، أما إضافة كلمة (فوق) إلى الضمير (هم) ، حيث قال : " فوقهم " ليدل على قربها منهم، وأنه لا يطلب منهم الاعتبار بشيء بعيد عنهم، وعسير عليهم بلوغه .

التنبيه الثالث: التعبير عن بسط الأجنحة بالاسم : " صافات " ، وعطف القبض عليه بالفعل " يقبضن "؛ لأن الطيران أكثره بسط للأجنحة ، وقبضها قليل، لا يلجأ إليه الطائر إلا عندما يهم بالهبوط، فكأن الأصل في الطيران البسط، فعبر عنه بالاسم؛ لأن الاسم يدل على الثبوت والدوام، وبما أن القبض فرع عليه يتجدد عند الحاجة عبر عنه بالفعل الذي يدل على التجدد والحدوث(١) .

التنبيه الرابع: مجيء اسم " الرحمن " في الآية دون سائرأسماء الله الحسنى في قوله : " ما يمسكهن إلا الرحمن " إشارة إلى رحمة الله تعالى

بهذه الطيور حيث خلقها على هيئة تمكنها من السلامة من الأذى بالطيران والبعد عن مواطن الخطر . والله أعلم .

قوله تعالى : " وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون * ولا يقول كاهن قليلاً ما تذكرون * "
[الحاقة : ٤١ ٤٢].
تأمل كيف ختم الله تعالى الآية الأولى بقوله : " قليلاً ماً تؤمنون "،

(١) الكشاف:١٣٨/٤.

وختم الآية الأخرى بقوله : " قليلا ما تذكرون " ، ووجه ذلك : (أن مخالفة القرآن لنظم الشعر ظاهرة وواضحة لا تخفى على أحد، فقول من قال : شعر، عناد وكفرمحض، فناسب ختمه يقوله : " قليلاً ما تؤمنون" .
وأما مخالفته لنظم الكهان وألفاظ السجع فتحتاج إلى تدبر وتذكر؛ لأن كلاً منهما نثر، فليست مخالفته لهما في وضوحها لكل أحد كمخالفة الشعر، وإنما تظهر بتدبر ما في القرآن من الفصاحة والبلاغة والبدائع والمعاني الأنيقه، فحسن ختمه بقوله؛ (قليلاً ما تذكرون)

قوله تعالى : "يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً * المزمل:٤.
كرر لفظ (الجبال) ؛ لأنه في مقام التهديد

والوعيد، ثم إنه لو أضمر، فقال : (وكانت كثيباً) ، لكان محتملاً أن يعود الضميرعلى الأرض(٢)، فتكون هي التي أصبحت كثيباً مهيلاً، وهذاغير مراد، فمنعاً لهذا الاحتمال أظهر في موضع الإضمار . والله أعلم.

قوله تعالى : " عينا يشرب به عباد الله يفجرونها تفجيرا " [الإنسان : ٦] .
قال: "يشرب بها" ، والمعروف أن (شرب) يتعدى ب(من)،
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) معترك الأقران: 44-1/43
(٢) البرهان في علوم القرآن: ٢/٤٩٢ .

ولكنه ههنا ضمن الفعل (يشرب) معنى ٠ يلتذ، أي . يلتذون بسببها ، وقيل(١): إنه ضمن معنى (يروى)، ويؤيده المجيء بفعل يدل على التكثير، وتأكيده بمصدره، حيث قال "يفجرونها"، ثم قال: "تفجيرا" .
فصار معنى الآية – والله أعلم-: عيناً يشرب، ويلتذ بها عباد الله، أو: عيناً يشرب، ويروى بها عباد الله. والله أعلم.
وقال الزمخشري: " فإن قلت لم وصل فعل الشرب بحرف الابتداء أولاً يريد قوله تعالى : " إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا * " [الإنسان: ٥] - ، وبحرف الإلصاق آخراً ؟ - يريد قوله تعالى : " عينا يشرب بها عباد الله "-، قلت

لأن الكأس مبدأ شربهم، وأول غايته، وأما العين فبها يمزجون شرابهم، فكأن المعنى: يشرب عباد الله بها الخمر، كما تقول: شربت الماء بالعسل) (٢)
.

قوله تعالى: "نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (28) " [الإنسان: ٢٨] .
سبق القول مراراً : إن (إذا) تستعمل في ما كان متحقق الوقوع، و(إن) تستعمل في ما كان محتمل الوقوع، أو بعيده، لكن أشكل على العلماء استعمان (إذا) في هذه الآية مع مشيئة التبديل، والتبديل
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) البحرالمحيط: ٣٦١/١٠
(٢) الكشاف: ١٩٦/٤ .

غيرواقع.
وأجيب بأن التبديل هن يحتمل وجهين ..
(أحدهما: إعادتهم في الآخرة؛ لأنهم أنكروا البعث
.
والثاني: إهلاكهم في الدنيا وتبديل أمثالهم، فيكون كقوله: " إن يشأ يذهيكم أيها الناس ويأت بآخرين " [النساء:١٣٣]
فإن كان المراد في الدنيا وجب أن يجعل هذا بمعنى (إن) الشرطية؛ لأن هذا شيء لم يكن، فهي مكان (إن) ؛ لأن الشرط يمكن أن يكون وألا يكون، ألا ترى إلى ظهورها في قوله تعالى : " إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين" [النساء: ١٣٣

]،" إن نشأً نخسف بهم الأرض "[سبأ ٩] ، وإنما جاز ل(إذا) أن تقع موقع (إن) لم بينهما من التداخل والتشابه)(١).
ولست أرى أن (إذا) هنا بمعنى (إن) ، بل أراها باقية على معناها لأصلي؛ فيكون ذلك أبلغ في التهديد، ليأتي نتيجة لم سبقه من ذكر الخلق وشد الأسر .

قوله تعالى : " ما ودعك ربك وما قلى * "
[الضحى : ٣]
حيث يجعل النحويون هذه الآية الكريمة شاهداً على حذف المفعول
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) البرهان في علوم القرآن: **201-4/200**

به لتناسب الفواصل ؛ فالآيات الأولى من تلك السورة مختومة بالالف المقصورة ، وكان الأصل في الآية أن يقال: (وما قلاك) .
والصحيح أن النظم القرآني ليس مبنياًع لى أسس لفظية فقط، فهذه الآية الكريمة التي بين أيدينا لو تدبرناها لتبين لنا أن الله - سبحانه وتعالى – ذكر الضمير العائد على الرسول صلى الله عليه وسلم مع التوديع، وحدفه مع القلى، وفي هذا تكريم للرسول صلى الله عليه وسلم من أن يواجه بالقلى، وهو البغض، حتى لو كان ذلك في سياق النفي؛ لما فيه من الطرد والإبعاد وشدة البغض، ومن نعم الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم أنه يرفق

به إذا عاتبه، ومن ذلك قوله: " عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين " [التوبة : ٤٣ [تأملوا - رحمني الله وإياكم - كيف قدم الله تعالى عفوه على عتابه لرسوله صلى الله عليه وسلم .
أما التصريح بالمفعول مع التوديع في آية سورة الضحى فلأن التوديع لا محذور فيه ، بل إنه لا يكون إلا بين المتحابين، ولذلك صرح الله تعالى بالضمير، فقال: "ما ودعك " والله أعلم.

قال تعالى :" ألهاكم التكاثر * حتى زرتم المقابر *0 كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون * كلا لو تعلمون علم اليقين * لترون الجحيم * ثم لترونها عين اليقين * ثم لتسألن يومئذ عن النعيم * "] التكاثر: ١-٨] .
هذه السورة العظيمة مؤثرة جدا في كل من ألقى السمع وهو شهيد، تقرع القلوب، رتهزها هزا يعيدها إلى جادة الحق، إذا أراد الله تعالى لأصحابها خيراً في الدارين. ولي في هذه السورة تنبيهات:
التنبيه الأول: تأملوا قوله: " ألهاكم التكاثر " حيث أسند لله تعالى الإلهاء إلى التكاثر، مع أن اللاهين هم الكفار، ولهوهم يكون عن الإيمان، أو هم المؤمنون، ولهوهم يكون عن الازدياد من الصالحات، وإسناد الإلهاء إلى التكاثر أبلغ من قول: (لهوتم بالتكاثر) ؛ لأنه في الآية الكريمة السبب الوحيد في الغفلة والبعد عن الإيمان أو الطاعات، فكأنه لا سبب غيره، أما لو لم يسند إليه لكان سبباً

من أسباب كثيرة .
ثم تأملوا قوله : " التكاثر " فصيغة التفاعل تدل على التفاخر في ذلك والتباهي به، وتدل على فشوهما في المتخاصمين أو في القبائل، فكل قبيلة تفاخر الأخرى حتى تشتغل بذلك عن الإيمان والطاعة، وكل واحد من المكاثرين همه أن يكاثر صاحبه، ولذلك لو حصلت الكثرة من غير تكاثر لم تضر
ولم يحدد الله المتفاخر به؛ ليعم كل ما يمكن أن يدخل فيه من مال، أوعبيد، أو أولاد ، أو مزارع، أومصانع، أوعلوم لايراد بها وجه الله تعالى، فالإيجاز بالحذف ههنا دل على العموم؛ لأن المهم ليس المتكائر يه، بل المهم الكاثر نفسه، وما ينتج عنه من صرف لصاحبه عن الإيمان والطاعة.
التنبيه الثاني : في قوله تعالى : " حتى زرتم المقابر" سمع أعرابي رجلاً يقرأهذه الآية ، فقال: (بعث القوم للقيامة ورب الكعبة)(١)، وقال علي بن أبي طالب رضي لله عنه (ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت (ألهاكم التكاثر * حتى زرتم المقابر *)(٢).
وقال عمر بن عبدالعزيز-رحمه الله (٣)بعد أن قرأ الآية: (ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر بد من أن يرجع إلى منزله، إما إلى جنة أو إلى نار).
فالتعبيرعن الموت بالزياة تعبير في غاية البلاغة عن كون الموت مرحلة برزخية، ينتقل بعدها الموتى إلى دار أخرى، فليست القبور دار استقرار، ولا أهلها باقون فيها، وإنما هم فيها بمنزلة

الزائرين، يحضرونها مدة، ثم يرحلون عنها،
كماهوشأن الزائر ، يرحل ولو بعد حين. فما أجمله
من تعبير ! ! !

---

(١) المحررالوجيز: ٣٥٩/١٦.
(٢) سنن الترمذي:٤٧/٥.
(٣) البحر المحيط :٥٣/١.

التنبيه الثالث: قوله: " كلا سوف تعلمون " قيل :
إنها تأكيد لقوله قبله: " كلا سوف تعلمون)
والصحيح أن العلم الأول يكون عند نزول الموت
بهم، فيعاينون العذاب، وما بعد " ثم " مقصود به
العلم بعذاب القبر.
وذكرابن القيم -رحمه الله- خمسة أدلة على ذلك،
هي(١):
الأول: أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل،
وقد أمكن اعتباره، مع فخامة المعنى وجلالته،
وعدم الإخلال بالفصاحة.
الثاني: توسط " ثم " بين العلمين - وهي تفيد
الترتيب مع التراخي-، فهي مؤذنة بتراخي ما بين
المرتبتين حقيقة زماناً وخطراً.
الثالث: أن هذا القول مطابق للواقع ؛ فإن المحتضر
يعلم عند المعاينة حقيقة ما سيكون عليه، ثم يعلم
في القبر وما بعده ذلك علماً يقينا، فهو فوق العلم
الأول .
الرابع: أن علي بن أبي طالب رضي لله عنه، وغيره
من السلف فهموا من الآية أن المقصود بها عذاب

القبر .
الخامس: أنه ذكرعذاب النار بعده، فقال : " كلا لو تعلمون علم اليقين * لترون الجحيم * ثم لترونها عين اليقين * ثم لتسألن يومئذ عن النعيم * "
فدل على أن الأول غير مراد به النار .

(١) بدائع التفسير :٣١٢/٥، التفسير القيم : ٥١٦ .

وقيل : إن الأول توعد بما ينالهم في الدنيا، والثاني توعد بما أعد لهم في الآخرة، فليس في السورة تكرار .

قوله تعالى : " إنا أعطيناك الكوثر * فصل لربك وانحر * " [الكوثر: ١،٢]
يفرق علماء اللغة بين (أعطى) و(آتى)، فيجعلون الإيتاء أقوى من الإعطاء (١)، ويستشهدون على ذلك بقوله تعالى : " قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء " [آل عمران ٢٦] ويقولون: إن الملك شيء عظيم لا يعطيه الله إلا من له قوة، ولذلك تأمل قوله: " وتنزع الملك ممن تشاء " تجدها قوية دالة على تمكن الملك قبل النزع.
إذا عرفت هذا فربما قلت: كيف استعمل في سورة (الكوثر) الإعطاء، فقال:" إنا أعطيناك الكوثر "، ولم يقل: (إنا آتيناك الكوثر)؟.
قال الزركشي رحمه الله في تعليل ذلك (٢): (لأن النبي صلى الله عليه وسلم وأمته يردون على

الحوض ورود النازل على الماء ، ويرتحلون إلى منازل العز، والأنهار الجارية في الجنان، والحوض للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته عند عطش

(١) نقله الزركشي في كتابه (البرهان في علوم القرآن: ٨٥/٤)عن الجويني .
(٢) المصدرالسابق: ٨٦/٤

الأكباد قبل الوصول إلى المقام الكريم، فقال فيه: " إنا أعطيناك "؛ لأنه يترك ذلك عن قرب، وينتقل إلى ما هو أعظم منه). والله أعلم.
وتأمل قوله تعالى : " فصل " تجده قرن الفعل بالفاء ، وقد أفادت
معنيين:
(أحدهما: جعل الإنعام الكثير سبباً للقيام بشكر المنعم وعبادته.
وثانيهما: جعله سبباً لترك المبالاة بقول العدو؛ فإن سبب نزول هذه السورة أن العاص بن وائل قال : إن محمداً صنبور (١)، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢)، فأنزل الله هذه السورة) (٣).
وتأمل كيف أظهر الاسم بعد إضماره ، فقال: " لربك "، ولم يقل: (لي)، ولا :(لنا)؛ للتنبيه على أنه تعالى أهل لأنه يصلى له؛ لربوبيته،حيث خلق الخلق، وأبدعه، وأنشأه بنعمته، وفيه تعريض بدين العاص بن وائل وأشباهه ممن كانت عبادته ونحره لغير الله.

وقال الإمام فخر الدين الرازي عن قوله: "لربك"(٤): (فيه حسنان: وروده على طريق الالتفات التي هي أم من الامهات، وصرف الكلام عن لفظ المضمر إلى لفظ المظهر، وفيه إظهار لكبرياء
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(١) في (القاموس المحيط : ٥٤٨) : " الصنبور : الرجل الفرد الضعيف الذليل يلا اهل وعقب و ناصر " .
(٢) انظر : أسباب النزول للواحدي: ٥٤١ - ٥٤٢ ، وفيه أن العاص قال : إن محمدًأبتر .
(٣) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: ٣٧٧-٣٧٨ .
(4) المصدر السابق: ٣٧٩.

شأنه، وإبانة لعزة سلطانه، ومنه أخذ الخلفاء قولهم يأمرك أمير المؤمنين بكذا.
وعن عمر— رضي الله عنه - أنه حين خطب الأزدية إلى أهلها قال لهم : خطب إليكم سيد شباب قريش مروان بن الحكم، وسيد أهل المشرق جرير بن بجيلة، ويخطب إليكم أمير المؤمنين على نفسه" .

قوله تعالى عن أَبي لهب " وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (5)" [المسد: ٤، ٥] .
فالجيد لفظ لا يطلق إلا على المرأة، وبخاصة إذا ذكر الحلي والحسن، وهو موضع الحلية من عنقها ،

قال الأعشى :

يوم أبدت لنا فتيلة عن جيد   تليع تزيئه الأطواق (١)

وقال ابن الرومي:

وأحسن من عقد لمليحة جيدها   وأحسن من سرباله المتجرد(٢)

وقال كثير بن عبدالرحمن :

إذا ما أراد الغزو لم يثن همه   حصان عليهاعقد در يزينها(٣)

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) ديوانه:259.

(٢) ديوانه: ٢/٥٥٩

(٣) ديوانه: ٣٦٥.

وقال يزيد بن معاويه:

إذا برزت ليلى من الخدرأبرزت   لنا مبسماً عذباً وجيداً مطوقا(١)

وقال الشماخ :

دار الفتاة التي كنا نقول لها   يا ظبية عطلاً حسانة الجيد(٢)

وقال العرجي

أبصرت وجهاً لها في جيده تلع   تحت العقود وفي القرطين تشمير(٣)

وقال البهاء زهير :

أبداً أزيد مع الوصال تلهفاً   كالعقد في جيد المليحة يعلق(4)

وقال الحارث بن خالد المخزومي :

ومنها علامات بمجرى وشاحها   وأخرى تزين الجيد من موضع العقد(٥)
وقال أمين الدين عبدالرحمن بن علي الموصلي :
هويتها طفلة دقت محاسنها   فطرفـــها نرجس والخـــــد تفاح
يتيمة الدهرنثرالدر من فمها والعقد في جيدها والوجه مصباح (٦)
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
(1) التذكرة الفخرية:٨٤.
(٢) ديوانه: 110.
(٣) ديوانه: 226.
(٤) ديوانه: 102.
(٥) شعره: 69
(٦) التذكرة الفخرية: ١٨٨ .

والعنق لفظ عام للرجل والمرأة وغيرهما، وحين يراد الغل والتعذيب يطلق لفظ العنق(١)، كقوله تعالى : " ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك [الإسراء؛ 29] وقوله : " وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا [سبأ: ٣٣] ، وقوله: " وأولئك الأغلال في أعناقهم [الرعد 5]، وقوله: " إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا " [يس: ٨] ، وقوله: " إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون [غافر: ٣٧١.]
والغل والتعذيب هما المرادان في سورة المسد، فكيف جاء التعبير عن ذلك بخلاف الأصل؛ حيث عبر بالجيد، وليس بالعنق؟

الجواب عن ذلك - والله أعلم-أن النساء مغرمات بالتحلي والحلي، وحينما تبشر المؤمنات بلبس أحسن الحلي يوم القيامة تبشر العوراء أم جميل بنت حرب امراة أبي لهب بحلي من نوع خاص لا يليق إلا بمثلها، وهو حبل من جهنم، يطوق عنقها ، فهذا من باب البشارة بالسوء ، كقوله تعالى : وبشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما [النساء: ١٣٨]
قال سعيد بن المسيب رحمه الله (٢): (كانت لها قلادة فاخرة من جوهر، فحلفت لتنفقنها في عداوة محمد ، فيكون ذلك عذاباً في جسدها يوم القيامة) ، وكانت تحمل الغضى والشوك والسعدان ،

(١)الروض الأنف :١١٣/2.
(٢) تفسير القرطبي: ٢٢٢/٢٠.

فتطرحها بالليل على طريق النبي صلى الله عليه وسلم، فانظروا كيف جاء الجزاء من جنس العمل: حبل في مقابل حبل، وحلي مقابل حلي، لكن شتان بينهما؛ فلها يوم القيامة حبل طويل من نارتستعر، أو من ليف خشن(١). هذا والله أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم.

(١) قال الشيخ إبراهيم بن يوسف : (وأضيف إلى ذلك الجواب جواباً آخر لبعض أهل العلم، خلاصته أنه لم يعبر بالعنق والرقبة لأن هذين اللفظين مع اشتراك الرجل والمرأة فيهما لا يعبران عن جانب

الجمال والغيد الذي يشي به لفظ الجيد، ولهذا عوقبت هذه المرأة الملعونة في جيدها الذي تدل به، وتعطو به، متتبعة المسالك والطرق التي يمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم لتملأها شوكاً وأذى.

ولم يذكر الشعراء في باب الغزل إلا لفظ الجيد؛ لأنه مرادف له في معناه الخاص، ودلالته الحافة، وظلاله الموحية، وربما ذكروه في باب الهجاء إشارة إلى اتسام المهجو بصفات النساء من تكسر ودال وتغنج، وبعد عن اقتحام المعارك وطلب المعالي.

ومنه قول حسان رضي الله عنه يهجو مسافع بن عياض التميمي :

أو في الذوابة من قوم ذوي حسب   لم تصبح اليوم نكساً ثاني الجيد .

انتهى كلام الشيخ جزاه الله خيراً.

وأقول: ومن أحسن ما قرأت في (الجيد) قول قيس بن الخطيم:

تروح من الحسناء أم أنت مغتدي   وكيف انطلاق عاشق لم يزود

تراءت لنـــــــا يوم لرحيل بقلتي   غرير يلتف من السـدرمفــــرد

وجيد كجيد الرئم صــــــاف يزينه   توقد ياقوت وفضـــــــل زبرجد

كأن الثـــريا فوق ثغرة نحرهـــــا   توقد في الظلمـــــــاء أي توقد

انظر : ديوانه : ٧٠ .

[image]

[image]